مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤
مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشباب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة
مكتبة الأسرة

إبداع المرأة

رمزة
ابنة الحريم

رواية



قوت القلوب الدمرداشية

ترجمة: دسوقى سعيد

مشهد للحياة اليومية فى الحرملك للفنان كارل ليبرت أوجستانتز

١٠
سنوات

رمـــــزة

روايـــة

قوت القلوب الدمرداشية

ترجمة

دسوقى سعيد



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة إبداع المرأة)

إشراف : عفاف السيد

رمــزة (رواية)
قوت القلوب الدمرداشية
ترجمة : دسوقى سعيد

الغلاف والإشراف الفنى:
للفنان: محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيدة التى جعلت من الكتاب وطناً !

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء «**مكتبة الأسرة**» وأذكر أنه كان يومًا مشهودًا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التى كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذى لا يتوقف عن التفكير أبدًا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التى كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المدارس الابتدائية، ورفع مستواها العلمى والتعليمى، وحتى مستوى الأبنية والخدمات.. فكان الأساس فى ذهنها، كما أدركت بعد ذلك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هى أهم ما يميز الأوطان، وأن الطفل الذى يمثل البذرة الأولى فى بناء مستقبل أى وطن هو البداية الحقيقية، كنا نتعجب جميعًا فى صمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحد من قبل فى الطفل، ولا أعنى صحته فقط، أو ما قد يصيبه من أمراض، أو مستوياته الاقتصادية

والاجتماعية.. لماذا لم يفكر أحد فى الطفل الإنسان؟! أى فى عقل الطفل ووجدانه، والانطباعات المختلفة، التى يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصرى فى ذلك الوقت معتادًا أن يمسك بالكتاب المدرسى ويصب عليه كل ما فى طاقته من كره وسخط، ويحفظه حفظًا آليًا بلا فهم، ويُفرّغ هذا الفهم على الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما فى آخر السنة فكانت العادة أن يرمى الكتاب المدرسى من النافذة، كأنه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التى قُدّر لها أن تعنى بمستقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر فى الطفل كإنسان، وكعقل، وكروح،.. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يأتى إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسى، كما لا يأتى أيضًا إلا من خلال كتاب يوضع فى يده ليحبه شكلاً ومضمونًا، ويحتضنه فى سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التى يقرؤها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتاب إلى عالم سحرى من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتها لوطن يبنى نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادى والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة فى الأحياء الفقيرة والمُعدَمة،

كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت فى ذهنها فأصبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافى فى القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين.. «**مكتبة الأسرة**».

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فى نفس الوقت، وهى أن نقوم بغرس عادة القراءة فى نفوس ملايين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءًا من حياتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تمامًا، فقد كان بعض من يسخرون من الشعب المصرى، محاولين الحط من قدره يصفونه بأنه شعب **الفول والطعميه**، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بلا تردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبى والفكرى والعلمى والإبداعى الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية فى عالمنا العربى، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصرى لينقل العالم العربى كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب تعيش عصر العلم والتقدم، وتبنى شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافى على مدى العالم..

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضنى والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن فى كل بيت مصرى، تحمل صورة السيدة التى فكرت ونفذت هذه

الذخيرة من الفكر والإبداع التى تثرى عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابًا، ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم العربى كله.. وأصبحت المادة التى تضمها هذه الكتب هى أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل القيمة والحجم وتحقق.. تحية لهذه السيدة العظيمة «**سوزان مبارك**»، واحترامًا وحبًا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة **سوزان مبارك** موجودة على كل كتاب، وفى كل بيت تُذكّر كل مصرى أن الحلم الحقيقى ليس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو «**المعرفة**» وبدون معرفة فى هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شىء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

قبل أن تقرأ
عالم قوت القلوب المتناقض!!

في نفس العام الذى ولدت فيه قوت القلوب الدمرداشية، ولدت أيضا مجلة «الهلال»، وقوت القلوب هى كاتبة مصرية لم يقرأ لها القارىء المصرى كلمة واحدة باللغة العربية حيث رواياتها جميعا منشورة باللغة الفرنسية، رغم أهمية هذه الروايات.

وصفت السيدة چيهان السادات فى الطبعة الألمانية لهذه الرواية «قوت القلوب الدمرداشية» بأنها «سيدة جديرة بالتقدير والاحترام والإعجاب»، لكن هذه الطبعة لم توضح ماهى العلاقة التى كانت تربط بين قوت القلوب وجيهان السادات إلى الدرجة التى دفعت دار النشر لأن تستعين بجملتها تلك كنوع من الدعاية للكتاب.

فقوت القلوب التى ماتت عن ٧٦ عاما فى ١٩٦٨، هى واحدة من الكاتبات المصريات اللاتى أبدعن أدبهن باللغة الفرنسية، وهى اللغة التى كان يزيد أستخدامها بين عائلات مصر الارستقراطية قبل ثورة ١٩٥٢، حين كان لدى قوت القلوب صالون أدبى متميز يأتى إليه رجال ونساء المجتمع البارزون.

ولم تهتم كتب النقد والتأريخ الأدبى كثيرا بها، ربما لأنها كانت تكتب باللغة الفرنسية، وحسبما جاء فى كتاب «الأدب العربى المكتوب بالفرنسية»، فإنها تنتمى إلى أسرة تنحدر من سلالة أحد أمراء المماليك، الذى كان بدوره قادما من القوقاز مع العثمانيين الذين جاءوا إلى مصر عام ١٥١٧، كان اسم هذه الأسرة «تيمور تاش» ثم تحول بمضى الوقت اسم العائلة إلى «الدمرداشية».

وقد فسر ناصر الدين النشاشيبى فى كتابه «نساء من الشرق الأوسط» سر

تغير اسم العائلة حين قال: «إنها من عائلة رائدة فى التصوف، وكانت الطريقة الدمرداشية فى التصوف تمتاز بالتربية الذاتية والخلوات الفردية، ومن خلال هذه الطريقة الصوفية عاشت قوت القلوب وهى تسبح عكس التيار بالنسبة لانتمائها الصوفى أو مسلكها العام أو تصرفاتها الشخصية».

إن كتابتها الأدب باللغة الفرنسية جعلتها أديبة مجهولة على المستويين العربى والمصرى، رغم ماتحظى به أعمالها من اهتمام فى العالم الغربى.. ولأنها غير معروفة فمن الطبيعى ألا يعرف كثيرون أنها ابنة الشيخ عبدالرحمن الدمرداش الذى كان يعتبر نفسه شيخ الطريقة الدمرداشية.. وقد كان على جانب كبير من الثراء، فوفر لها هذا مساحة هائلة من الرفاهية بعيدة تماما عن الانتماء الصوفى للأسرة الذى قد يفرض على القارىء انطباعا بالزهد.

وحسبما يضيف النشاشيبى فإن قوت القلوب تزوجت من رجل أقل منها فى المكانة الاجتماعية، واشترطت لنفسها حق العصمة، وأنجبت منه ثلاثة أولاد وابنة واحدة، وحين ماتت تركت وراءها ميراثا ضخما ومستشفى خيريا خاصا يحمل اسمها حتى اليوم.

كما جاء فى كتاب «الأدب العربى المكتوب بالفرنسية» عن هذه السيدة أنها كانت مصرية وليست متفرنسة، وأنها عرفت طريق الأدب حين تجاوزت الخامسة والأربعين فى فترة أصبح فيها ظهور المرأة المصرية فى الشارع قويا وقد نشرت كتابها الأول عن دار المعارف باللغة الفرنسية فى عام ١٩٣٧ تحت عنوان «مصادفة الفكر».. وفى نفس العام نشرت روايتها «حريم» عن دار جاليمار، ثم تنوعت أعمالها بين اليوميات والرواية والقصة القصيرة، لكن القارىء المصرى لم يتعرف عليها إلا مرة واحدة فقط حين نشرت فى مجلة الهلال ـ عدد ديسمبر ١٩٤٩ ـ ملخصا لروايتها «زنوبة».

وتبدو أعمال قوت القلوب الرئيسية: «الحريم» ، «زنوبة»، «ليلة القدر»، «رمزة»، «حفناوى الرائع».. كاشفة عن عالم أدبى من نوع خاص، عالم يهتم بالنساء، وعناصر المجتمع البرجوازى، وتأثيرات مفردات الشرق على المرأة.

إن هذا ماتكشفه أحداث رواية «رمزة» التى تجعل قوت القلوب بين يدى

القارىء العربى لأول مرة، فهى لها أحداث تدور فى مبان تاريخية قديمة لاتبخل هى عن ذكر مزيد من تفاصيلها المعمارية كوسيلة لنقل مزيد من سحر الشرق وغموضه وأسراره، مخلوطا بتفاصيل سيرة ذاتية تطل من حين لآخر بين سطور الرواية.

وتدور أحداث الرواية فى فترة حكم الخديو إسماعيل، حين كان يريد لمصر أن تصبح قطعة من أوربا، وحين شملت حركة الازدهار الاقتصادى والاجتماعى إلغاء الرقيق فى عام ١٨٧٧، وهو حدث هام يبدو تأثيره واضحا على الرواية التى تتحدث عن قسوة هذا العالم.. عالم الجوارى والرقيق.

وتبدو قوت القلوب حريصة تماما على هذا الموضوع الساخن؛ وضع المرأة فى المجتمع الشرقى، حين تقول فى مقدمة الرواية: «لقد تورطت فى هذه القضية نصف قرن، هززت فيها أسوار الحريم، تمردت وثرت، على عادات القرون الماضية ووضعت أمام الرأى العام قضية الحرية وحقوق المرأة، وخضت حربا ضد المحافظين على التقاليد القديمة وسددت مدافع الأفكار الجديدة».

وقد تأثرت قوت القلوب فى قضيتها تلك برموز التنوير فى المجتمع المصرى خلال عصرها، فقابلت قاسم أمين عام ١٨٩٩ حين نادى بتحرير المرأة فى كتابه المعروف، وتعرفت على الشيخ محمد عبده وتبنت آراءه التى تنادى بتقدم وازدهار مصر عن طريق رؤية عصرية للإسلام.

وقد طغت قضية المرأة على إبداعها الروائى، متأثرة بكل هذه الأجواء التى كانت تدور فى المجتمع، حتى أنها تستخدم عبارات من نوع «لاتود أن تعامل كسلعة».. «مضى عهد استعباد المرأة» «تختار زوجها بنفسها».. ورغم هذا التحرر إلا أنها ربت أبناءها تربية ملتزمة حسب الشريعة الإسلامية فى نفس الوقت الذى تلقوا فيه دروسا فى علوم وفنون الغرب، وكان بيتها مزارا لكل كتاب العالم الذين يأتون إلى القاهرة أمثال فرانسوا مورياك وأناتول فرانس.

إنها باختصار حالة امرأة من نوع خاص، أبدعت أدبا متميزا، عاشت حالة تناقض، ولكنه كان تناقضا يبحث عن المنطق.. بين رفض قيم وتقاليد المجتمع

البالية والإيمان الكامل بالشريعة الإسلامية.. وبين عالم يعيش التصوف والزهد وعالم الرفاهية.. بين أسرة مصرية وأدب يُكتب بلغة الغرب.

والرواية التى نترجمها عن الألمانية تكشف بوضوح عن أهمية قوت القلوب الدمرداشية «أولا كأديبة، وثانيا كمناضلة من أجل نيل المرأة حقوقها بعيدا عن أسوار الحريم». فهى صاحبة جائزة أدبية عرفت فى الوسط الأدبى نالها كل من نجيب محفوظ، وعادل كامل، وغيرهما.

ويبقى سؤال لماذا ظلت مثل هذه الروايات مجهولة فى مصر، رغم أهمية الكاتبة ومكانتها الأدبية والاجتماعية؟، يأتى الجواب فى أنه كم من أسماء موهوبة مجهولة تاهت من الذاكرة لمجرد أنها كتبت بالفرنسية.

دسوقى سعيد

الفصل الأول

الحريم

١ ـ «إندشا»

وُلدت «رمزة» فى حريم عائلة غنية، ترعرعت بين الجاريات.. جاريات من كل نوع.. زوجة أو خادمة.. بيضاء أو سوداء.. صغيرة أو عجوز.. كلهن تم شراؤهن أو كن بنات لجوار أخريات، وحتى اللاتى تم تحريرهن عشن أيضا مثل الأخريات فى عالم غامض ينتهى عند أسوار الحرملك.. ولم تكن أى منهن تعرف شيئا عما يدور فى الخارج، بالرغم من الساعات الطويلة التى كن يقضينها خلف المشربيات، وكل علاقاتهن بالعالم الخارجى تتوقف عند حدود ما يرين من خلف المشربيات. وهو أقل بكثير مما يحدث فى الحياة اليومية فى الحى.. ويصبح الوجه الجديد أو الحركة غير العادية أحداثا هامة لابد من مناقشتها بجدية.

كان مجتمع هؤلاء النسوة مغلقا تماما. وفى كل يوم تتكرر أعمال منزلية معتادة، وإيقاعه يحدوه آذان المؤذن عندما يحين موعد كل صلاة.. ولا تتحطم الرتابة إلا حين تصل أنثى جديدة إلى الحريم.. أو حين تتغير الأحوال بين اثنتين من الصداقة إلى العداوة، أو إذا ماحدثت مشادة، دسيسة، مرض، موت، غيره، إن هذا ما كان يعطى للحياة هنا طعما.

حين أستعيد بذاكرتى تلك الأيام، أتساءل: هل هؤلاء النساء اللاتى عرفتهن وشاركتهن حياتهن كن تعيسات؟!، لا أعتقد.. لقد كن على الأرجح غير ذلك.. لم يكن فى أذهانهن أى معنى للحرية.. لم يفتقدن الحرية.. كن يمتلكن كل مايتمنين.. كن راضيات بالراحة التى يتمتعن بها.. وكانت هناك نساء قليلات جدا ـ مثلى ـ لديهن حاجات مختلفة.

نعم.. إن ذاكرتى تحتفظ بوجوه اللواتى أحببننى واختفين منذ زمن، أرى الآن الرضا الذى كان يطبع وجه أمى، أرى جدتى ذات الملامح الصارمة تحت الحجاب الأسود.. ونرجس التى كنت أناديها «خالتى»، وكانت ترعانى فى طفولتى أكثر من أمى.. وجولستان الجميلة زوجة أبى الأولى المعتزة بنفسها.. ونعمات الوصيفة التى حكمت الحريم.. هذه أو تلك الخادمة ببشرة سوداء أو برونزية كلهن صديقات أو عدوات، أحتفظ لهن فى ذاكرتى بابتسامة هادئة، كانت تغطى وجوههن كما كانت

تغطي وجهي مبروك وكوتشوك.. الأغوين الضخمين اللذين كانا يحرسان هذا العالم من الحريم.

أما وجه أمي بين كل هذه الوجوه فأتذكره بالحنان، كانت بالنسبة لي دائما صغيرة، لقد ماتت قبل أن تبلغ الأربعين، كان شعرها أصفر كالحرير، بشرتها فاتحة اللون، كانت جميلة جدا، وربما كانت أجمل قبل أن تمرض، وعلى الرغم من الآلام القاسية المستمرة والهالة السوداء التى كانت تحيط بعينيها الواسعتين إلا أنها كانت جذابة جدا، لها وجه مملوء بتعبير طفولى ساذج.. لم تكن بها ذرة من شر.. ولم تكن تستطيع أن تتخيل أن لدى الآخرين شرا.

عندما كنت صغيرة كانت هى لينة، حتى أننى كنت أتجرأ وأصرخ فيها، ثم أرتمى فى أحضانها طالبة العفو، باكية.. لكننى أذكر كيف كنت ألعب معها دور الفتاة الكبيرة، أدافع عنها، لايجرؤ أحد على أن يهاجمها فى وجودى، وربما لهذا كنت بينهم طفلة سيئة واستمتعت بهذه السمعة.

كانت أمى موسيقية ممتازة، تجلسنى بجانبها على البيانو لأتعلم منها العزف.. لكننى كنت أقول لها: اعزفى أنت فقط.. ولم أشبع من عزفها قط.

فى آخر سنوات عمرها كانت تجلس، دائما ولساعات طويلة، على الديوان.. أسمع سعالها.. أبكى.. تنادى علىّ.. فألتصق بها.. فتدلك رأسى بحنو وتقول لى: أنت غزالتى. كانت تقص علىّ حياتها كاملة بشكل متقطع وغير مرتبط.. حياة جارية. وبسذاجتها تظن أنها كانت تسلينى بذلك التصوير للحياة التى تتوهم أنها كانت رائعة.. ألم تستطع أن تتمنى لى حظا أفضل منها؟!.. إنها لم تلاحظ أبدا وهى تروى تلك الحكايات كيف كنت أطبق يدى.. وكيف أن روحى المتمردة تشتد.

كان اسم أمى التركى هو «إندشا».. وكنت أناديها بهذا الاسم بدون كلمة أمى حين صرت أنا وهى صديقتين. كانت «سلافية».. لم أعرف هذا إلا فى الأسابيع الأخيرة، قبل موتها، حين بدأت تجتر أمامى حياتها البعيدة وذكريات طفولتها.

للأسف لم تعد تتذكر اسم القرية التى ولدت فيها، كانت فقط تتذكر كيف كانت محاطة بسياج من الجبال ذات اللون البنفسجى، تلعب فى حديقة بجانب منزل صغير بالقرب من كنيسة، ومن داخل الكنيسة، كان يتلألأ نور الشموع الذى كان يهتز أمام صور القديسين، والنجف كالألماظ معلق فى القبة العالية التى لانهاية لها.. وأمام المذبح كان يقف قسيس له ذقن ذات شعيرات ذهبية، يحوطها بحنان

فياض. هذا القسيس كان بمثابة والدها. وذات مرة كانت فى استانبول، حين سمعت صوت خادمة تغنى بلغة أجنبية، ودون أن تفهم كلماتها تعرفت على لحنها المألوف.. حين إذ أدركت أنها من الصرب.

لقد كانت تحكى لى أيضا عن رجل قابلها فى طرقات حديقة تتصدرها شجيرة ورد.. لم تخف منه.. كانت تعرفه.. لكنه فجأة أمسك بها وأغلق فمها بيده وقيد ساقيها بعنف، حدث هذا عندما حل الظلام.. عندئذ سمعت صوت أمها تنادى: «أولجا.. أولجا».. وكانت تحاول أن تجيب: أنا هنا يا ماما.. ولكن شفتيها كانتا عاجزتين عن الكلام. كانت أمى تقص على هذا الذى حدث كما لو كان حلما مفزعا.. كابوسا.. يطاردها بين حين وآخر.. وفى كل مرة كانت ترويه كانت تشعر بنفس إحساس الرعب الذى عانت منه فى المرة الأولى.. كانت تلك هى ذكرى اختطافها، حتى راهبات المدرسة المسيحية فى استانبول .. حيث أودعها.. نادوها أيضا أولجا.

قضت أمى معظم طفولتها فى استانبول، وكانت محظوظة لأنها صادفت سيدة عوضتها عن حنان أمها.. توفيقة هانم.. تلك المرأة التى اشترتها من تاجر الرقيق.. أرملة.. مات اثنان من أطفالها.. وأعطت كل مشاعر الحب التى تملكها لهذه الفتاة الصغيرة القادمة من بلاد الصرب. إن إمى كانت تحتفظ لها بمشاعر حب عميق وغالبا ماتقول هى أيضا: «حتى أهلى لم يكونوا ليستطيعوا تربيتى بهذا الحب والتضحية.. كانت تنادينى بـ «كِسْ».. أى الإبنة.. وكان هذا الاسم يرن فى فم توفيقة هانم بكل الحب والتدليل.. وكنت أنا أناديها.. نينا.. أى ماما». بمضى الوقت نسيت كِسْ أنها كانت تتكلم لغة أخرى غير التركية.. وتدين بدين آخر غير الإسلام.. لقد ذهبت إلى مدرسة «روميلى ــ هزار» فتعلمت التركية والفرنسية على يد راهبات مسيحيات.. وتعلمت الأشغال اليدوية بمهارة، وأتقنت عزف البيانو.. وتدربت على الإتيكيت. كانت جميلة جدا، وبسبب هذا الجمال كانت توفيقة هانم تعدها بزوج أمير.. وأطلقت عليها هذا الاسم الذى ستحتفظ به طيلة حياتها : «إندشا أى لؤلؤة».

وماتت توفيقة هانم، ماتت قبل أن تفى بوعدها. وتحولت إندشا إلى جزء من ميراثها.. فصارت بالتالى جزءا من ممتلكات أخ عجوز لتوفيقة هانم.. وورثها هذا الضابط الانكشارى السابق.. صاحب الوجنتين الحمراوين والذقن الرمادية

الطويلة، المتجهم دائما، الفظ دوما، والذى كانت تخافه إندشا. كانت توفيقة تعرف مشاعر إندشا تجاه أخيها.. ولهذا فإنها قبل أن تموت طلبت من أخيها وعدا بأن يمنح الجارية الصغيرة حق تقرير مصيرها. واختارت إندشا.. أن تباع.

ولقد أدهشنى هذا كثيرا، قلت لها: يا أمى إن توفيقة كانت تحبك.. لماذا لم تمنحك حقك فى الحرية؟.. لماذا لم تفك قيدك قبل أن تموت! وكانت أمى تجيب علىَّ فى استسلام: وماذا كنت أفعل بالحرية.. كنت لم أزل فى الرابعة عشرة.. كانت توفيقة هانم طبعا عندها حق.. ماذا تعنى الحرية لصبية بدون أقارب فى مدينة تركية مثل استانبول.. لقد كانت الحرية مصيبة بالنسبة لى.. وكان الأفضل أن أكون بين الرقيق، كان هذا الحل المناسب دائما.

فى هذا العمر يحلم المرء بالمغامرة.. وارتفع ثمن أمى، زاد سعرها. فقد تربت بشكل جيد.. كانت تبحث عن حظها..كانت تظن أنها حين تباع لحريم أمير.. سوف تحظى بمكانة ملائمة تكون محبوبته المفضلة ثم تصبح زوجته.. أميرة، بل ربما أصبحت أيضا زوجة سلطان.. ولِمَ لا؟

ووصل رستم أغا إلى استانبول.. إنه أشهر تاجر رقيق فى القاهرة.. اشترى بالمصادفة إندشا.. فوجدت نفسها فى يوم جميل على ظهر سفينة مبحرة إلى مصر.. مع عشرين فتاة أخرى تم شراؤهن من مدن عديدة فى الامبراطورية العثمانية.. لم يكن بينهن أى تعارف سابق.. كان كل الذى يربطهن ببعضهن فقط: الجمال والشباب.... و.... والعبودية. إن أمى لم تنس هذه الرحلة أبدا. لقد تركت فى نفسها أثرا عميقا.. فى الليلة الثانية وحين دخلت السفينة عمق البحر هبت ريح عاصفة قوية.. وأدى هذا لهياج هائل على ظهر السفينة.. فأصدر رستم أغا قرارا بحبس الفتيات العشرين فى الطابق السفلى.. وظللن يومين كاملين فى الظلام.. مصابات بدوار البحر، وخائفات حتى الموت، وصارخات بشدة حين تصطدم السفينة بجسمها الصغير فى الأمواج العاتية، حتى ظنت كل واحدة منهن أن ساعتها قد اقتربت. ثم هدأت العاصفة، فأفرجوا عنهن.. سمحوا لهن بالصعود إلى السطح.. ولكن الحرية فى هذه اللحظات كانت محدودة أيضا.. إذ أمر رستم أغا بأن يبقين فى مؤخرة السفينة.. بعيدا عن نظرات البحارة الفضوليين.. وسمح لهن بكمية وفيرة من الطعام.. فمرت الأيام الباقية من الرحلة الصعبة هادئة.

فى هذه الأيام تعرفت أمى على هذه الفتاة الشركسية الصغيرة التى بقيت

قريبة منها طوال ساعات العاصفة القاسية، كان اسمها نرجس.. ورغم أنها كانت في نفس عمر إندشا إلا أنها كانت أضخم.. صاحبة جسد كبير.. وربما كانت هذه الإمكانات الصحية المتميزة هي التي حمت نرجس من دوار البحر.. فكانت معاناتها منه أقل.. ولهذا فإنها وجدت في نفسها القدرة على أن ترعى إندشا.. وتهتم بها.. وتهدىء من روعها.. وفي هذه الأثناء حكت كل منهما قصتها للأخرى.

لقد ولدت نرجس في قرية بجبل القوقاز، وربيت منذ طفولتها على أنها سوف تباع يوما ما، ولذلك رباها أبواها باهتمام شديد.. كانا حريصين للغاية على ألا يصيبها مرض.. لم يكلفاها بأي عمل يمكن أن يفسد بشرتها البيضاء التي تشبه «اللبن الحليب».. وبمجرد أن بلغت بدايات المراهقة بيعت لتاجر رقيق كان يمر بقريتها بانتظام. لم تكن تشعر بأي اشتياق إلى أسرتها وقريتها البعيدة. كانت نرجس تحلم هي الأخرى أن تكون في حريم أمير جميل شاب.

وكانت الرحلة بداية صداقة بين نرجس وإندشا.. استمرت حتى موتهما.. فظلت كل منهما مع الأخرى.. ورفعتا للسماء دعاء واحدا «ألا تفترقا أبدا».. وكانت أبواب السماء مفتوحة فاستجاب الله لهما.. ولم تفترقا.

واصل الجواري السفر في دهبية اتجهت إلى أعالي النيل. إن الدهبية تكاد تكون منزلا عائما، به عدد من الحجرات التي ليست بها نوافذ.. وبها وصلن إلى الميناء القاهري.. بولاق.. ومن هناك تم شحن الفتيات مرة أخرى إلى المدينة.. هذه المرة داخل حناطير حريم خاصة تغطيها ستائر كثيفة.. كانت في كل مرة تنقل داخل مثل هذه الحناطير.. ولم تركب شيئا آخر ولم تكن تعرف كيف تبدو شوارع القاهرة، وهكذا لم ترى أمي شوارع القاهرة التي عاشت فيها أغلب سنوات عمرها.. ولم تكن تعرف في أي حي كانت تسكن.. حين يذكر أحدهم اسم حي أو شارع أمامها فهي لاتعرف حتى أين يقع، فإذا ماوجدت في نفسها فجأة نزوعا إلى الهروب بعد عشرين سنة في القاهرة .. فلن تجد مخرجا.. لأنها ستكون مثل الغريب الذي وصل توا لايعرف شيئا.

إن أمي في هذه السنوات كانت مثل أي سجينة في الحريم.. تسأل أسئلة ساذجة.. تطلب من كل من له علاقة بالعالم الخارجي أن يصف لها الدنيا التي يعرفها.. كانت تسأل الخادمات والخصيان والطواشية. وكان غيرها يسأل أبناءه إذا ما أتيحت له فرصة الخروج من المنزل.. وفي كل مرة كنت أخرج فيها كان لابد

حين أعود أن أصف لأمي بالضبط كيف تبدو الشوارع، وما الذى شاهدته فى الطريق.. وما الذى سمعته.. كنت عينها التى ترى بها القاهرة.. وكانت هى تأخذ هذا الذى أقوله وتقارنه بذكرياتها وماكانت تراه وتسمعه فى طريقها إلى المدرسة فى ذلك الوقت فى استانبول.. وكنا نتجاذب أطراف الحديث طويلا فى هذا.

ولأنها دخلت إلى بيت رستم أغا حبيسة لم تستطع أمى أبدا أن تصف لى مكانه.. فقط كانت تعرف أنه منزل كبير، به غرف كثيرة، لا نهاية لها.. عليها شبابيك.. خلف مشربيات.. وخارج المشربيات أعمدة حديدية.. لم تتحدث أبدا بسوء عن رستم أغا، كانت تذكر له الود.. تقول إنه رجل كريم طيب واسع الذهن. لقد كان رستم أغا مملوكا سابقا، وزوجته رقية التى كانت بدورها جارية سابقة.. كانت تشاركه تجارته بعد أن حصلت على حريتها.. كانا عجوزين.. يحظيان بثقة وتقدير الشخصيات الكبيرة فى الدولة.. يوردان الجوارى لبلاط الخديو إسماعيل.. كانا يهتمان بالعبيد اهتمام التاجر ببضاعته.. ولذا لم يكونا حريصين على البيع لأول زبون وإنما للأفضل، وكانا يتابعان صعود السلم الوظيفى لهؤلاء العبيد.. وأحيانا يزوران الجوارى فى الحريم.. وكان يساعدهما فى هذا شرط فى عقد البيع يقضى باسترداد الجارية إذا لم تعامل بالحسنى.. هكذا كان من حق رقية أن تزور أمى وغيرها فى أى وقت. بعض الجوارى اللاتى اشترياهن أطفالا عشن سنوات طويلة عندهما وحصلن على تربية بعناية. فى بيت رستم كانت هناك مدرسة لتعليم الجوارى كل شىء.. كانت الجارية تتعلم كيف تصبح زوجة جيدة.. أو خادمة ممتازة.. هؤلاء الأطفال كانوا ينادون الزوجين أبا وأما، حتى أنه قد تبنى بعضهم، وقد بقيت جوار عديدات فى بيته سنوات طويلة قبل أن يتم بيعهن.. بعض هؤلاء كن محظوظات.. إذ إنه حين مات ـ بعد أن ماتت زوجته بعام ـ ذهب ميراثه إلى الجوارى اللواتى تبناهن رستم، وتقول أمى إنها تعرف واحدة منهن.. تسكن ڤيلا فاخرة ..عرضت عليها ذات يوم مجوهرات رقية التى كانت تحتفظ بها، حتى أن الأميرة يمكن أن تحسدها عليها.

أمى، إندشا، لم تكن من هؤلاء المحظوظات، فقد بقيت فى بيت رستم أغا فترة قصيرة، ثم قدمت مع نرجس لأحد الطواشية الذى جاء إلى البيت محشورا فى «جونلة» سوداء، إن أمى تقول إن رستم قابله باحترام شديد. وعندئذ فهمت الجوارى أنهن مقبلات على امتحان، لكن الامتحان لم يتم.. إذ كان الطواشى

السمين يثق فى كلمة رستم.. فاشترى نرجس وإندشا بدون فصال.

لقد تخيلت أمى ونرجس أن الذى اشتراهما هو الخديو اسماعيل نفسه.. أو ربما كان أحد أبنائه..كان هذا سوء فهم سارع رستم أغا بجلائه حين أكد لهما أنهما ستعيشان أفضل حتى من الحياة فى قصر أحد الأمراء.. وأن الطواشى الذى قام بتقييمهما هو الأغا بشير رئيس حريم إسماعيل باشا.. أقوى مفتش مالية فى مصر.. وحينئذ كى يقضى على إحباط لديهما، مضى يصف مميزات هذا الرجل للبنات المندهشات.. الذى قال إنه أغنى رجل فى مصر بعد الخديو إسماعيل. إنه: «أوجه وأكرم الرجال، وأقدر وزير مالية وأهمهم جميعا، وما أعظم حظ إندشا ونرجس، ستعيشان فى أفخم القصور فى كل يوم احتفال رائع.. ولايكفى أن تحمدا الله وتشكراه على فضله طيلة حياتهما».. وزاد رستم أغا وهو يخفض صوته قائلا: «إن الخديو نفسه يحسده على هذا».

كانت أمى قلقة، وكان الذى يهمها هو أن تبقى مع نرجس، لكن نرجس التى لم يكن من السهل إدهاشها بكل هذه الأوصاف التى قالها رستم كانت تريد أن تعرف.. هل هو رجل عجوز.. قال رستم: إنه فى أحلى سنوات عمر الرجال.. إنه رجل ذو خبرة ولذلك فهو أفضل بالذات للبنات الصغيرات من أبومنقار أخضر.. سخى.. كريم.. يغدق بالهدايا على من يرضى عنها.. كل حريمه يحبونه حتى الموت. بعد أن استرقت إندشا السمع لهذا التقرير.. فرحت إندشا ليس لأنها ستكون عند أقوى وزير ولكن لأنها ستكون مع أختها المشتراة نرجس مدى الحياة، وهذا ما كان يشغلها فقد نشأت علاقة أخوية قوية من شراء اثنتين من الجوارى ومن قانون غير مكتوب فى عالم الحريم الخاص.. علاقة أخوة أقوى حتى من علاقة الدم بين اختين، كانت كل من إندشا ونرجس تنادى الأخرى بلطف «أبلة» أختى.. لمست بنفسى كيف كانتا مرتبطتين ببعضهما وكنت أنادى على نرجس «خالتى».. كانت هناك علاقة قرابة مشابهة من ناحية جدى لأبى.. أحد مماليك محمد على.. بالرغم من أن عقد شراء الأقارب يرجع إلى جيلين.. إلا أنهم مازالوا يهتمون بهذه العلاقات المألوفة حتى اليوم.. وكانت مثل هذه العلاقة مغروسة بعمق فى طفولتى، حتى أن حق التوريث مكفول كالأقارب من الدم.

بعد أيام أرسل الأغا بشير مجموعة من الخياطات إلى نرجس وإندشا.. أخذن مقاساتهما.. وبدأت عملية واسعة لحياكة كل أنواع الملابس للأختين من الحرير

الوردى.. بلوزات.. فساتين لها أكمام مملوءة بالهواء.. أحزمة من اللاميه، صديريات، حجاب بأهداب من الألماظ ذى اللون الوردى».

لقد جعل هذا الطقس الاختين تشعران كأنهما مقبلتين على عرس حقيقى.. كانتا تبدوان وكأنهما تستعدان للزفاف.. كانتا تستمتعان بالبروفات..

كانتا تتعلمان ومنذ الطفولة المبكرة كيف تستحوذان على الإعجاب.. بالرغم من الحقيقة أنهما مازالتا طفلتين حتى جاء اليوم الذى صحبتهما فيه رقية داخل عربة مغلقة.. إلى قصر المفتش فى حى الإسماعيلية الذى كان قد بنى أخيرا. فى الطريق كانت رقية تلقن إندشيا ونرجس الدرس الأخير.. كانت تتحدث معهما كأم تمنح بناتها وصايا الأدب.. وبدت حزينة لفراقهن.. هذه الحزينة، هى التى اشترتهما.. والآن تبيعهما.. وتوردهما للزبون!

حين وصلتا إلى البيت سلمتهما رقية إلى زُخرة هانم.. هذه الأثيوبية العجوز التى قابلتهما بنظرة صارمة هى الزوجة الأولى للباشا المتزوج من ثلاث غيرها.. بالإضافة إلى النساء المعترف بهن رسميا.. إنها هى التى رجت رقية أن توجههما إلى مكان يضعن فيه أشياءهما.. فتم اصطحابهما إلى غرفة بها سريران ودواليب وأشياء أخرى.. بدت كلها جديدة، وقيل إنها جاءت توا من باريس.. بعدها رافقت رقية الجاريتين إلى غرفة كان بها عشر فتيات.. صديقات المستقبل.. جاريات مثلهما.. صغيرات.. جميلات.. مرتديات الحرير ذا اللون الوردى مثلهما.. وقد كانت رقية تعرفهن جميعا.. تحدثت معهن وطلبت منهن حسن استقبال الجديدتين.

لقد وصفت أمى هذه اللحظات لى فيما بعد: كانت النظرات المتفحصة تجعلنا نبدو كالعرايا.. كنا نُقيّم.. وكنت مرتبكة من هذه النظرات التى تأتى من عيون باردة وخبيثة، لكن نرجس لم تهتز.. ورفضت طلبا لإظهار الإمكانيات التى تملكها فى الرقص والغناء والعزف وقالت بأن ذلك سيكون أمام سيدها.

وكانت نرجس تقول لأمى ناصحة: إن لعبة الحريم قذرة.. إذا لم تصدين من البداية سوف تهزمين أبدا.. نرجس وضعت نفسها فى وضع الدفاع عن أختها أيضا.

جاءت وصيفة اصطحبت الجوارى إلى زُخرة هانم.. سيدة فى الخمسين من عمرها طويلة ضخمة سمراء وقورة.. تتحلى بالمجوهرات والماكياج الثقيل.. تبدو معتزة بمكانتها.. كانت هذه التفاصيل هى أكثر مالفت نظر أمى إليها. قالت لأمى

عندما جاء الدور عليها لتقدم نفسها وبعد أن فحصتها الهانم من رأسها حتى قدمها: أنت صغيرة.. أطيعى ما أقول.. ولن تعانى.

لقد اصطفت البنات كلهن خلف ظهر زُخرة هانم فى نصف دائرة.. بعدها فتح الباب.. دخل أربعة أغوات أثيوبيون.. يرتدون ملابس سوداء وعلى رأس كل منهم طربوش أحمر.. ودخل الباشا فانحنى الجميع بما فى ذلك زُخرة هانم.. وتجرأت أمى لترفع رأسها وتراه خلسة: «خيب ظنى.. إنه صغير الحجم، عجوز له ظهر منحن، قبيح، ليس كما تخيلته، وكان عصبيا، ينتف شعيرات ذقنه الرمادية باستمرار». قدمت له زُخرة هانم القهوة، وبينما كان يحتسى من الفنجان ألقى نظرة شاملة على نصف دائرة الجوارى.. ثم استقرت عيناه على إندشا ونرجس.. فأشارت لهما زُخرة هانم.. تقدمتا وانحنيتا احتراما له، أمرهما بالاعتدال، ثم قال لزوجته: إنهما صغيرتان.

قامت بقية الجوارى بإحضار الكمنجات والعود والدرابوكا.. وأعطت زُخرة هانم إشارة بدء العزف.. وكان الباشا يقاطع الموسيقى وهو يتحدث من حين لآخر إلى إندشا بالعربية.. فيترجمون لها مايقول: «أنت من استانبول.. تعرفين أغانى تركية بالتأكيد». أجابت أمى: نعم. فطلب منها أن تغنى.. وغنت.. ويبدو أنها أعجبته.

خرج الباشا، وجاءت مدرسة الرقص، إيطالية.. طلبت من الجميع القيام ببعض التدريبات فأطعنها تحت ضغط نظرات زُخرة هانم الصارمة.. ورقصت إندشا ونرجس قدر استطاعتهما، وبعد الظهر قضينا وقتا آخر فى العزف.. ثم تمشينا قليلا. وفى المساء جاء الأغوات، أخذوا إندشا ونرجس إلى ممر طويل.. ثم إلى سلالم سرية.. قادتهم إلى صالة فخيمة من القصر.. كانت مملوءة بالسيدات.. كل واحدة منهن أخذت مكانها خلف شباك به فتحات ضيقة. كن يشاهدن من ورائه رجالا كثيرين فى ملابس السهرة الرسمية. لقد حدثتنى أمى بانبهار عن هذا المساء: فرق تعزف الموسيقى، خدم يقدمون المشروبات المنعشة، ألمظ كانت تغنى، كانت فى ذروة مجدها.. ولم أزل أذكر أغنياتها فى ذلك اليوم.

أمى لاتنسى أيضا حفل اليوم التالى فى حديقة القصر.. لم تكن أمى تتخيل هذا الاحتفال الأسطورى الذى عاشته وتعتبره حلما. بعد الظهر حين ارتدت كل الجوارى فساتين وردية.. وحين ثبتت الخياطات تلك منهن أجنحة من الحرير خلف

ظهورهن.. ثم نزلن إلى الحديقة.. التى يحرس الأغوات أبوابها.. كانت الفخامة تسمر العيون.. نخيل ملكى عريض الجذوع له لون أبيض.. طرق مليئة بالأشجار وأحواض القرنفل والورد وأكشاك خشبية، منحوتة، وأروقة ذهبية ممتدة للقصور الثلاثة وحتى الطرق ذات الأشجار.. فى الأكشاك كانت هناك نساء يعزفن الموسيقى.. وكان الهواء مملوءا بالنغمات العذبة وبصفة مستمرة.

خلف مدربة الرقص الإيطالية مشيت أمى ونرجس ورفيقاتها فى الطريق المحاط بالأشجار.. كن يحاولن مع الجوارى المشى بالطريقة الرشيقة التى أمرن بها وتدربن عليها.. وكن يتقاطعن مع مجموعات أخرى من الجوارى.. كن يرتدين الفساتين نفسها ذات الأجنحة ولكن بألوان أخرى، كل لون مخصص لجوارى كل زوجة من زوجات الباشا.. الوردى والأخضر والأصفر والبنفسجى.

اصطفت النساء بالقرب من السلالم، تحوط كل منهن جواريها.. وأبنائها من الباشا.. وفى الرابعة من عصر هذا اليوم ظهر الباشا نفسه.. فتمشى أولا بصحبة زوجاته فى الحديقة.. ثم أخذ مكانه على كرسى فوق السلالم. وعندئذ حدث مالا يمكن أن أصدقه لولا أن التى روته لى هى أمى وخالتى.. ولايمكن حتى أن أصدق اليوم أن الخدم قد ابتدعوا مثل هذه التسلية.. حتى يصرفوا سيدهم وأسيادهم عن همومهم.

كان الهدف هو أن تسلى الجوارى سيدها!.

ففى نهاية الطريق الرئيسى الذى تحوطه الأشجار وضعت أربعة عربات خفيفة بالخيل، كانت كلها مبطنة بالحرير، على كل منها علم يرفرف مكتوب عليه بالحروف الذهبية اسم فصل من فصول السنة.. أمام هذه العربات تم ربط البنات بحبل طويل.. وركبت كل زوجة عربة.. ثم أعطيت إشارة البدء بينما تصاعدت نغمات الموسيقى الصاخبة، ووسط ضحكات وقهقهات الحضور جرت الجوارى بالعربات بطول الطريق ذو الأشجار.

وفازت سيدة اللون الأخضر، فنزلت من عربتها وانحنت أمام الباشا الذى منحها رمز الفوز.. وهو بروش من الألماظ.. ثم ألقى على بناتها ملء يديه من القطع الذهبية كمكافأة.

كنت منزعجة من هذا الذى حدث، لكن أمى كانت تحكى لى هذا وهى تجتر لحظات المرح، دون أن تنسى أن تأسف لأن عربتها لم تفز.. بينما كنت أنا غارقة

فى مشاعر الإذلال والإحساس بالمهانة.. وأنا طفلة.. لقد كانت أمى تعامل معاملة الخيول.

فيما بعد ماتت أمى، وكانت نرجس تحكى لى قصة هذه السباقات التى كانت تقام أسبوعيا تقريبا.. «كان الجرى يدفع الدماء إلى خدود الجوارى، وتلمع عيونهن، فتجذب تلك الأمور نظر المفتش إلى إحداهن، وعندما يعجب بواحدة منهن بشكل خاص.. فيثنى عليها، وعندئذ تفهم الزوجة التى تتبعها هذه الجارية معنى ثناء الباشا.. وفى مساء اليوم نفسه تقوم بتزيين الفتاة بنفسها وبمجوهراتها الخاصة وتعطيرها وتأمر بإحضارها إلى حجرة الباشا».

فى اليوم التالى تظهر علامات رضا الباشا.. هدية.. أو عدة هدايا قيمة لزوجته.. وكان الأطفال الذين يولدون فى نهاية هذه السباقات ينسبون للزوجة التى تتبعها الجارية.. وتتركهم يتربون بين أولادها. كنت أرفض هذا، وكانت نرجس تندهش من علامات تمردى.. وترى فى ذلك أمرا طبيعيا.. ولم تستطع فهم تمردى، وفى الحقيقة كانت مثل هذه القصص المكررة التى أسمعها هى التى أنبتت فى روحى بذور التمرد.

كانت المرة الأولى والأخيرة التى تربط فيها أمى أمام عربة من أجل الترفيه عن رجل ولم تقض ليلة فى حجرة المفتش، وعلى العكس منها نالت نرجس هذا الشرف.. ووصفت لى الظروف التى أدت إلى ذلك.. لقد حدث هذا رغم أن الباشا نفسه لم يطلبها.. لكن زوجاته لاحظن ذات يوم أنه كان مهموما على غير العادة.. فبحثن عن وسيلة تسلية له.. وظنت زُخرة أن أنثى عذراء سوف تقوم بالمهمة.. فاختارت نرجس.. التى تتمتع بقوام ناضج وبخجل أقل من إندشا.. وانتظرت نرجس مع الوصيفة طويلا فى غرفة جانبية.. ومن غرفة مكتب الباشا سمعتا خطوات، وأصوات، وكركبة موبيليا تتحرك هنا وهناك، وفجأة فتح الباب.. فظهر الباشا.. وحين رآها صرخ: «إبعدا من هنا».. وعندما هما بالإنصراف مفزوعات استدعى نرجس.. تحدث معها بهدوء عن وطنها وعمرها والتاجر الذى باعها، كما سألها بالتفصيل أيضا عن إندشا. ثم ذهب إلى غرفة مكتبه وفتح أحد الأدراج، ثم رجع بقطعتين من الألماظ أعطاهما لها وقال «لكى ولأختك»، كان يبدو حزينا وأكبر من سنه.. وأرادت نرجس أن تقبل يده.. إلا أنه أعطاها ظهره وأغلق الباب خلفه. وفى هذا المساء لم تعرف نرجس بالضبط هل كانت تشعر بالرضا أم بالضيق

بسبب الطريقة التى تمت بها المقابلة.

كان ذلك هو لقاؤها الأول والأخير مع المفتش، خاصة أنه لم يظهر فى اليوم التالى عند أى من زوجاته كى يحتسى القهوة. وقيل أنه ظل الليل كله مستيقظا وقد أغلق الباب على نفسه مع الأغا بشير وسكرتيره ـ ولم تستطع نرجس أن تحكى شيئا أكثر مما رأت.. لكنها أخفت قصة الألماظ طبعا.

لقد كان مقررا أن يقام سباق آخر للعربات فى اليوم التالى، فارتدت الفتيات الفساتين الحريرية الوردية اللون وربطن الأجنحة.. وانتظرن.. ومن النوافذ ظهرت الحديقة هادئة خالية من البشر.. وفى مكان ما بدأت فرقة موسيقية العزف ثم توقفت.. مرت ساعة .. وبعدها تم إلغاء السباق.. وفككن الأجنحة وخلعن الفساتين.. وحل الظلام.. حين نادى الأغا بشير ـ شخصيا ـ على إندشا ونرجس.. وأمرهما بجمع أشيائهن ليذهبن معه.. فغادروا القصر وركبوا الحنطور. كانت ليلة خريفية معتدلة.. حين توقف الحنطور بهن لاحظت إندشا ونرجس أنهما وصلتا فى بلاط رستم أغا. وحيتهما رقية بإفراط.. ثم اصطحبتهما إلى غرفة نوم، وفى المساء عرفا ما أسر به بشير إلى رستم.

لقد عرفتا أنه فى الأيام الماضية حدثت مشاجرات بين الخديوى إسماعيل ومفتش المالية.. كان الأخير يخشى أن يعزل.. أو يقبض عليه.. أو ربما نفوه.. ولأنه علم أنه سقط فى المحظور.. قام فورا بتسوية أوضاعه فى هذه الليلة وأعطى تعليماته لكل الموظفين.. وحين كان يقوم بترتيب أموره رأى نرجس فقال لبشير: «هذه الصغيرة تعجبنى لايجب أن تبقى عند ذُخرة» ثم أضاف بعد تفكير قصير: «خذها إلى رستم.. هناك أفضل لها»، وقال بشير مستفسرا: ماذا أفعل مع أختها؟ فقال له: «خذها أيضا معها، وقل لرستم أن يهتم بهما حتى أطلبهما مرة ثانية».

أطاعه بشير، رغم أنه كان شخصيا يرى أنه لاتوجد أزمة: «الخديوى نفسه حضر شخصيا كى يصالح المفتش.. وقد كنت موجودا حين جاء حارس القصر وأسر فى أذن الباشا بكلمة صرخ بعدها: إسماعيل!.. لقد حضر بنفسه «إنه لا يستطيع أن يستغنى عن خدماتى».. وقال بشير: «لقد أسرع إلى السلاملك، حيث قابل إسماعيل، ورأيتهما معا يتحادثان كأصدقاء، وركبا حنطور الخديو الذى انتظر أمام السلم وفى اتجاه كوبرى قصرالنيل.. ربما يلتقوا فى قصر الجزيرة..

إن كل شيء على مايرام».

عاد بشير إلى القصر وهو يظن أن سيده قد عاد.

في اليوم التالي جاء رستم أغا ثائرا جدا إلى إندشا مع بعض الجرائد، فهو لم يكن يقرأ.. وهي تجيد الفرنسية والتركية.. وكان خبر الصحف في ذلك اليوم هو قصة إلقاء القبض على وزير مالية إسماعيل صادق باشا.. كان متحفظا عليه في سفينة الخديو، بتهمة التآمر، وحكم عليه بالنفي إلى دنجلة، وكان الجميع في حالة ذهول من وقوع هذه الأحداث الغير متوقعة بالمرة. رستم الذي حرك رأسه مفكرا، كان يشك أن المفتش لم يزل على قيد الحياة.

ولم تنام إندشا في هذه الليلة، ولم تنام نرجس.. كل أحلام المستقبل الباهر في القصور الفخيمة ضاعت.. وها هما مرة أخرى ينتظران قرار المستقبل حول مصيرهما؟.. وكان السؤال الذي يلح عليهما: هل سيبقيا معا أم سيفترقان؟.. وكان السؤال الأهم هو: من سيكون السيد القادم!

وكانت نرجس بوجه خاص تبدو أكثر حزنا على سيدها السابق، الذي تركته منذ قليل وشعرت بالأسف على الباشا القوي وهي الجارية الصغيرة، وقد وضعت على صدرها الألماظة التي أهداها لها الباشا.. الأخرى أعطتها إندشا.. وكانت تحلم بعودته وبأنها ليست نهاية المفتش الذي ربما يحكموا عليه بالعدل.. ثم يعود بعدها لقصره.. وتحلم بأنه سوف يطلب استعادتهما.. كي تصبحن المفضلات لديه ثم يصبحن زوجاته.

ودارت دائرة الشائعات.. وتعددت الروايات.. حتى جاء يوم قال فيه رستم أن الباشا خنق على السفينة المتحفظ عليه فيها ودافع عن نفسه و قاوم بشدة حتى أنه عض أصابع الذي خنقه.. وقيل أنه متجه في سفينة بها كوة مسمرة متجهة إلى وادي حلفا ومسجون فيها.. لكن رستم كان يؤكد: لقد مات.. وهو في قاع النيل الآن.

بعد كلماته لمعت عيون نرجس بالدموع وبدأت إندشا في البكاء.. وبالفعل، قالت الجرائد بعد فترة أن الوزير المخلوع مات متأثرا بمرضه قبل قليل من وصوله إلى دنجلة ، وكما تنبأ بشير بالضبط فقد صودر قصر المفتش وكل مايملكه وبيع في المزاد.. وأعاد رستم شراء بعض جواريه. جاء بشير ذات مساء لزيارة قصيرة.. بعدها اختفى ولم يسمع أحد عنه شيئا

ومضت الأيام القليلة التى قضتها إندشا ونرجس فى حريم المفتش الثرى، ولم يبق منها سوى ذكرى الاحتفال الأسطورى الذى كان بمثابة حلم.. واحتفظا الاثنين بالألماظ بعناية.. أعطتنى أمى ما تخصها على سرير الموت، ولم أشعر تجاهها بأى معزة خاصة على عكس أمى، بعتها ومن ثمنها أناضل حتى الآن كى لا تعيش نساء الشرق الصغيرات مستقبلا فى حريم القصور، وكما لو كنا فى أقفاص ذهبية وألا يقمن فيها بجر العربات الفاخرة.

٢ ـ منزل على الخليج

قبل ثلاثين عاما، كان من الممكن أن أدلك على المنزل الذى عاشت فيه إندشا حياة الحريم القصيرة.. لقد ولدت فيه وعشت طفولتى بين جنباته.. منزل أبى.. فريد باشا.. إنه منزل له تاريخ.. يقولون إنه كان يخص مملوك مات فى مذبحة القلعة بأحد سيوف شركسية محمد على والذى أُهدى إلى جدى مع ضيعة كبيرة فى شمال القاهرة.

لم يكن قصرا، بل منزل من الطراز القديم، له عديد من المبانى الجانبية، وحين كنت أنا فيه عفريتة صغيرة كان عمر البيت مائة عام على الأقل.. له جانب يطل على حارة ضيقة.. والجانب الثانى فى الزاوية اليمنى على الخليج.. القناة القديمة والتى لم يردمها أحد حتى يشقوا مكانا للترام.. وعلى الجانبين الآخرين أسوارا عالية تفصل حدائقه عن بيت الجار، هذه الأسوار التى لم أكن أرى عبرها سوى قمة تاج النخيل التى تتعلق بها خصلة من البلح الأصفر الذهبى.

هذا النخيل كان يدهشنى جدا، كنت أحب رؤيته وهو يتأرجح مع النسيم، وكان إحساس إعجاب به يتزايد حين يظهر أولا رأس.. ثم جسم الجناينى الذى يلف جسمه بحبل يربطه بجزع النخيل.. ويرفع الحبل لأعلى «مرة تلو مرة» حتى يصل إلى القمة ويقطع السعف ويجمع البلح.. كنت فى هذه اللحظات أبحلق فيه بفم مفتوح وقلب يدق.. أخاف أن يسقط.. ورغم ذلك أتمنى أن أفعل مثله.. وفى هذه الأيام لم يكن مسموحا للنساء بدخول الحديقة.. ربما بسبب اتفاق ودى بين الجيران، وقد سرى هذا الحظر علىّ حين كنت فى السابعة أو الثامنة، وكنت أبقى لساعات طويلة فى إحدى الغرف العلوية حتى أستمتع بهذا المشهد التمثيلى.. ولا أعلم لماذا وحتى اليوم أحتفظ بهذه الذكرى السعيدة.. ربما لأن حياتى فى البداية كانت مصونة فأصبح كل شىء حدثا..

كانت هناك فتحة وحيدة أمام الشارع الجانبى فى الدور الأرضى.. كانت البوابة.. بوابة ضخمة من الحديد مزينة بنوافذ صغيرة مربعة وعليها قضبان. كنت أنزل مع أخوتى إلى البوابة.. نتأمل الأقفال والترابيس الكبيرة.. كانت ضخمة

بالنسبة لنا كأطفال. ونتملق البواب العجوز العملاق الملتح.. عبدالله.. ذلك الذى كان دائما يرتدى بنطلون فضفاض وصديرى أسود برباط فضى وعمة ضخمة.. وحين يكون يومنا جميلا كان يخرج لنا مسدسيه المزينين بالحرير من الحزام حتى نراهما ونلمس بأصابعنا المرتجفة الحديد البارد. ثم يتركنا ندخل منزل الحرس الصغير لنشاهد سيفه ونندهش للبنادق الطويلة الموضوعة فى الجراب. كنا ننهال عليه بالأسئلة ليوضح لنا كيف تعمل، ونسأله عما إذا كان قد قتل الناس بها.. ثم يحكى لنا عن المذابح الطويلة.. كان مملوكا سابقا لجدى.. فوزى بك.. رافقه فى كل معاركه الحربية، وكان يفضل الحديث عن حملة اشترك فيها على حصن إكو حين كان جنديا صغيرا فى لواء فوزى بيك، احتل برجا يطلق عليه كابو بورجو.. كان يحارب رجل ضد رجل.. كانوا ألبان مثله، لم نتضايق عندما كان يمثل أمامنا المعركة، يسحب السيف ويطلق النار من المسدس «طاخ طاخ!!»، ثم يلف حول نفسه ويشير إلى ثلاثة من القتلى الوهميين تحت قدميه، ثم يسقط فى النهاية متعبا على حصيرته وكما لو كان يدمى من الجراح العديدة.

ومن فرط إندهاشى من رواياته تلك أكثر من أخوتى.. أكاد أخجل اليوم من اعترافى من أننى كنت أحلم بأن أتنكر فى زى رجل. وحين أكبر أصبح ضابطا أو حتى لواء.. يقوم بأعمال بطولية عظيمة.. كنت أكره حياة السيدات اللاتى لم يكن فى رأسهن أكثر من أن يأكلن ويتزين.

كانت الواجهة الرئيسية لمنزلنا تقع على جانب القناة .. حيث توجد بوابة ثقيلة مزينة بالحديد بضلفتين .. نادرا ما كان يتم فتحهما .. وكانت المدخل الرئيسى ذات يوم .. وجسر صغير ضيق بدرجتين سلالم يفصل البوابة من الماء ويلاصقه اثنين من الأعمدة القديمة جدا.

كانت الأسوار سميكة، بها فتحات، ليس من أجل الضوء ولكن من أجل استخدامها فى إطلاق النار من البنادق.. لقد كان البيت يبدو كقلعة.. به بلكونة حجرية.. واسعة تطل على الماء ومزينة بالمشربيات.. تخص المندرة.. أفخم مكان فى البيت.. حيث الأرضية مغطاة ببلاط جميل.. وفى المنتصف نافورة صغيرة عندما كنا أطفالا ويسمحوا لنا بزيارة أبانا فإذا كان أبانا راض عنا جعل الماء يندفع منها كالمطر ينزل علينا وفى غمرة سعادتنا كنا نضع أيدينا وأرجلنا فى الماء البارد.. أعلاها قنديل من زجاج ملون له إضاءة خافتة.. فإذا ما جاء ضيوف

استعملت شموع بلا عدد على النجفتين الفخمتين اللتين تضيئان الأعمدة الملونة بالأحمر والذهبي. بجانب كل الحوائط تقريبا كانت توجد دواليب فخمة بها كتب أبي ونحن أطفال كنا نسعد بالبحث عن الحيوانات والزهور فيها ونضع أصابعنا على معالم النقوش المتشابكة ونلف بأيدينا عليها، كان أبي يمتلك مجموعة مقتنيات من الأدب العربي الشيء الذي كان يشدني إلى هذه الكتب هو غلافها الجلدي القيم والتي أشعر بنعومتها عند ملامسة أصابعي لها.. وبسبب الصور التي زينت بعناوين وألوان براقة فسفورية والأحرف الأولى منها مزركشة.. وكان أبي يمنعنا من أخذها.

كان أيضا ممنوعا عليّ ـ حين تجاوزت سن الطفولة بأيام ـ أن أدخل أماكن مخصصة للرجال.. لكن لم أطع ذلك.. وشعر أبي أنني لست الفتاة التي يمكن أن يحبسها في الحريم مع الآخريات.. كان أولا يعاملني مثل كلبة منزل كثيرة المطالب يسمح لها أن تنزوي في ركن الديوان على السجادة طالما لا تضايقه.. وبمرور الوقت إعتاد وجودي.. صحيح أنه لم يقل ذلك لي صراحة لكنني لست موافقته.. حتى لو حاول إخفاء هذا بأن يغلظ لي القول أحيانا.

كنت أفضل في الشتاء أن أبقى في ركن بين دواليب الكتب.. عميق بين الحوائط.. وفي الصيف كنت أفضل ركنا في البلكونة التي تطل على الخليج.. أنا، أنا التي لاتستطيع أن تبقى جالسة في مكان حتى قالت جدتي أنني كما النحلة.. كنت أتحول إلى الهدوء التام مع أبي في هذه الغرفة.. ساعات طويلة.. جالسة.. وعلى ركبتي ديوان شعر أقرأه.. حالمة به.

رويدا .. بدأ أبي يطلعني على كتبه عندما استطعت فهم اللغة .. أحضر لي من غرفته ديوان شعر بالفرنسية كنت أقرأه في ركن البلكونة على الخليج.. كان أبي يشكل ذوقي .. حسب مزاجه .. وكنت ذكية لدرجة كافية كي أفهم هذا .. ولم أطلب شيئاً .. لكنه كان يعطيني الكثير ..

كان يقرأ كثيرا .. رغم أن جدي «فوزي بيك» الذي عرفته، وكما قيل لي كان أميا ويعاني من شدة جهله.. ربما لهذا السبب ترك إبنه فريد .. أبي أمانة في يد عدد من علماء الأزهر فعلموه القرآن وكل ما ينبغي أن يتعلمه المسلم المثقف . ثم أرسله ثلاث سنوات إلي مدرسة السلطان في استانبول حيث تعلم التركية. والفارسية .. وشغف بالشعر الفارسي فحفظ مئات من أبياته كان يلقي بعضها

من حين لآخر على من يرغب سماعها .

وأمروا أبى أن يسافر باريس ليدرس الحقوق .. كانوا يأملون أن يكون قريباً من الحاكم الذى كان يسمع آراء من درسوا فى الخارج خاصة من المهندسين والقانونيين وليس من دارسى الأدب العربى .. ولكن يبدو أن دراسة الحقوق لم تكن على هواه .. فأتقن الفرنسية وزار دوائر الأدب وكتب شعرا بها نشرته جريدة باريسية ، للأسف صودرت على يد رجال نابليون الثالث بسبب مقالات سياسية.

قضى فريد أربع سنوات فى باريس ، وحين مرض أباه فى مصر استدعاه وقبل أن يموت فوزى بيك كانت لديه فرصة كى يوصى الخديو إسماعيل على إبنه .. فأعطاه وظيفة فى مكتب المترجمين .وكان فريد يفضل ترجمة قصائد الشعراء الفرنسيين الذين تعرف عليهم فى باريس والتى كانت أعمالهم تصله بانتظام.. ويلقيها على أصدقائه فى أمسيات يوم الجمعة فى منزله.

ما أجمل تلك الأمسيات ، كانت تقام فى القاعة الكبرى التى تطل على الخليج .. وكان من الطبيعى أن تحظر علىّ .. وكان هذا الحظر يكلفنى كثيرا من الجهد كى أقنع أبى بأن أراقب مايحدث سرا من خلف ستارة فى غرفة مكتبه .

كان الضيوف من الأدباء والموسيقيين والمطربين والصحفيين والفلاسفة ومؤلفى السير، كنت أرى محمود سامى البارودى وحافظ إبراهيم وأستمع لمناقشات حامية محورها أفكار جمال الدين الأفغانى وأبو نضارة والشيخ محمد عبده ، وكنت أحاول من خلف الستارة القطنية ذات اللون الأحمر الداكن كلون الرمان، أن ألقى نظرة على الوجوه .. وحين أفعل تسحرنى .. ويسكرنى معها عمق الكلمات .. وعندئذ يرانى والدى فيأمرنى بالإختفاء .. وأعود للحريم معبأة بأفكار جديدة .. أفكار لو استطعت لكنت قد نسفت بها الحريم! .

الحريم الذى قضيت فيه كل وقتى رغم كل ذلك .. كان الحريم مثل بناء مكعب، ملون لاتقع به حجرتين على نفس الارتفاع .. كان مثل المتاهة .. دهاليزه سلالم وحجرات صغيرة للتخزين وحجرات صغيرة للخدم وحمامين للبخار ومسجد وغرف للنوم والجلوس ، كانت له قاعة تشبه نقطة الارتكاز تمتد بعرض الدور الأول، بلكوناتها لها جانب على الفناء الداخلى وجانب آخر على حديقة الحريم ، ولأن الحديقة بحرية كنت أرى دائماً فى البلكونة أباريق الماء البارد.. وكان هذا المكان أنيقا دائما.. أرضية رخامية وردية اللون وسقف خشبى ودواوين وسجاجيد وشلت

للجلوس بالإضافة إلى بلكونة الفناء .. كان الضوء خافتا خلال ساعات الظهيرة وضلفات المشربية مغلقة دائما.. أما فى المساء فيشعل الخدم اثنتين من الشموع فقط.

لم أحب هذه القاعة، جدتى كانت تقيم فيها مع زوجات أبنائها ، تستقبل زوارها .. أحاديثهم كانت مملة للغاية .. وكنت أثناء هذه الأحاديث مأمورة بالصمت ممنوعة من أن أمسك شيئاً .. وكان هذا عذابا لى عندما كنت أحضر من غرفة أبى كان لابد من المرور من خلال ممرات مظلمة تربط بين سكن جدتى وجولستان ولكى أصل إلى نرجس التى أعيش معها كان لابد من المرور بالقاعة.. وعندما يكون بها ناس كنت أفضل طريقا آخر أطول.

وكانت جدتى تحكم الحريم .. والمنزل كله من خلال نوافذ غرفة نومها أو البلكونة الجانبية للقاعة.. تحفظ كل شيء بعيونها .. ولأن ركبتيها متورمتان فهى لاتتحرك بسرعة لكنها رغم هذا كانت فى كل صباح تتحرك إلى غرفة ابنها لتتأكد من أنهم نظفوها ورتبوها بعناية وبقية النهار تجلس فى القاعة أو البلكونة.. وكان صوتها العالى المعبأ بالطغيان يرعب الخدم إلى درجة الارتعاش.

فى كل يوم كانت تجمع أركان حربها : جولستان زوجة إبنها الأولى، يدها اليمنى ، نعمات.. الوصيفة .. الاثنين الأغوات اللذان كانا عليهما إبلاغ ٣٠ من الخدم – جميعهم من السود – بأوامرها اليومية ، جولستان كانت مسئولة عن الحساب اليومى .. تقرر ماسيتم ذبحه .. بقرة أو خروف .. والمخزون الذى يطلب من التجار أو يتم إرساله من العزبة .. كاز يخططان معا ورقة طعام العشاء لأبى .. الذى كان نادرا ما يأكل فى البيت .. وكثيرا ما كانت جولستان نفسها تطبخ فى الحريم ما لذ وطاب من المأكولات أو الحلويات: لقمة القاضى البقلاوة أو أصابع الست .. وفى بعض الأحيان كان الحريم يحصل على وجباته من مطبخ الرجال .. خاصة فى الأمسيات التى يقام بها عشاء كبير أو بعدها بيوم.

كانت جدتى جوليسار وجولستان زوجة أبى الأولى متفاهمتان تماماً .. إنهما شركسيتان وتنتميان قبل زواجهما لحريم سيد المنزل .. الوالى الكبير محمد على أعطى جدى جوليسار ، وجولستان كانت هدية لأبى من الخديوى إسماعيل بعد عودته من باريس.

فى الأعياد كانت كلتاهما تلبسان حجابا كاملا، حبرة وملاءات طويلة سوداء

تلف جسدهما .. ثم يذهبن فى عربة مغلقة إلى حريم الخديو ليزرن صديقاتهما هناك، كن يقضين اليوم كله .. وكانت هذه الزيارات بالنسبة لهن شرف كبير.. يتحدثن أياما بطولها عنها ويصفنها بكل تفاصيلها، ما رأين وما سمعن.

الشىء الوحيد الذى كان يعكر صفو العلاقة بينهما هو أن جولستان كانت عاقر .. لا أمل لديها بعد عشر سنوات من الزواج من الإنجاب .. رغم ذلك كان فريد .. أبى يبدو غير مهموما بهذا ، وإن كان ليس من المستعبد أن يتزوج مرة أخرى .. ولأنهما أرادا أن يتجنبا خطر قدوم سيدة دساسة منافسة قررا اختيار جارية له.

هكذا ظهرت إندشا أمى فى حريم فريد بيك.

٣ - الجوارى

وقع رستم أغا فى حيرة بالغة، عندما حضر إليه الأغا كوتشوك بتكليف من جولستار، وطلب منه لحريم فريد بيك جاريتين صغيرتين عذراوين.. واحدة شركسية وأخرى أثيوبية .

ولولا أنه يقدر فريد بيك لكان قد رفض الطلب، فقبل قليل فى أغسطس ١٨٣٧ منع الخديو تجارة الرقيق، والتزمت الشرطة بتطبيق القانون، وفى يوم سابق فتش ضابط ومجموعة من الجنود منزل رستم أغا .. لكنه نجا من العقاب لأنه كان قد أبعد عددا من الجوارى فى بيته إلى مكان أمين، كانت هناك فقط إندشا ونرجس وثلاثة من حريم المفتش الذى مات، وقد شهد الخمسة إنهن أقارب لرقية زوجة رستم أغا، وقال العبيد أنهم فى البيت يخدمون رستم أغا برغبتهم، ومع ذلك قرأ الضابط عليهم قرار إسماعيل.. وأنهن لهم حق المطالبة بالحرية .. بعدها طلب عبد سوداني حريته فمنحه رستم إياها، وقال له: «أذهب، ومعك الله، ياحمار».

اشتكى رستم الطيب مُر الشكوى من هذا القانون الجديد. كان رستم غنيا بما يكفى لأن يبقى وضعه مستقراً ، رغم هذا القانون ، ولكنه، وهو العبد السابق الذى تحول إلى تاجر رقيق لم يكن له عالم آخر غير هذا، كان يرى فى إلغاء الرقيق حكما بالإعدام على كل عناصر المجتمع المتحضر .. لماذا؟.. لأن الأجانب يجبرون المصريين على قوانينهم الجديدة .. كان يقول: مادخل الأجانب بنا؟ فمنذ اليوم الذى سقط فيه المفتش .. وهم يتحكموا كما لو كانوا أسياد هذا البلد، وكانوا يملون على الخديوى قراراتهم.. هل العبيد اشتكوا، إن الجوارى يضمن حياتهن بطولها.. طعام وملابس وزواج من شخصيات مرموقة وإذا استحققن الحرية فإنهن يحصلن عليها، والعبيد السود الذين يخدمون في بيوت الأثرياء.. يعيشون فى هذه البيوت الفخيمة حياة أفضل من تلك التى كان يعيشها أقاربهم فى أحراش السودان والحبشة.. كان الخدم عند الأوربيين أحرارا! .. إن الحرية جميلة .. ولكنها حرية تؤدى إلى التسول الحرية من أجل لاشيء.. إنهم يلعنون قسوة تجار الرقيق!.. هل كان رجل مثل رستم ظالم وهو يعامل العبيد مثل أبناءه؟.. هل كان من الضرورى إلغاء أحد فروع التجارة المزدهرة لأن هناك من على رأسه ريشة....

إن الأغنياء يمنحون الآلاف من البشر الملبس والطعام .

هذا ما كان يولول به رستم ورقية تؤيده أمام إندشا ونرجس والبنات الأخريات.. وكان رأيهن أنه على حق ، بل إن أمى وخالتى حين رويتا لى أحداث هذه الفترة كانتا تظنان أن رستم وزوجته على حق.. ولم تكن العبودية لها جذور عميقة إلا فى أرواح العبيد أنفسهم.

لقد حاول رستم أن يلبى رغبة جوليسار دون أن يخاطر بنفسه .. كان يمكن أن يحصل على الجارية الأثيوبية الصغيرة من السوق ولكنه يخشى السجن .. وكان لديه فى البيت من الجوارى البيض إندشا ونرجس ومازالتا صغيرات وعذراوات .. وقد وقع اختياره الأول على الفتاة الشركسية الأكثر نضجا .. نرجس..

عندما علمت الفتاتان بقراره راحتا فى بكاء شديد .. ففى هذه الشهور الطويلة التى قضاياها فى بيت رستم إقتربا أكثر من بعضهما .. لا شىء بالنسبة لهما أفظع من الفراق .. وتدخلت رقية وبدأت هى الأخرى تبكى لأنها لاتستطيع أن ترى الفتاتين تعساء وهن يقعن فى قلبها.. وعنفت زوجها .. قالت له أنت بلا قلب .. وغد .. وكان ينوى الرفض .. لكنه اعتبر أن منزل فريد بيك حظا رائعا لأى منهما لأنه منزل ثرى ذو سمعة طيبة .. كما أن رستم فهم ماتخطط له جولستان ولم يشك لحظة بأن الجارية التى سيهديها فريد بك ولدا ولو لم يتزوجها فسوف يعاملها كزوجة وكان هذا دليلا مقنعا.. ثم بدأت الأختان فى إعطاء الفرصة للأخرى للظهور أولا.

وجدت رقية الحل .. أن تعرض الاثنتين معا على جوليسار .. ومن ناحيته عرض رستم بيع اندشا ونرجس بسعر مغرى جدا ، خاصة أنه من غير المتوقع أن تطالب أسرة المفتش بهما.. بعد انهيارها أو يطالبوا حتى برد قيمة الجوارى التى عادت إليه.

لم يكن منزل فريد بيك بعيداً عن منزل رستم.

هكذا مشيت الجاريتان مع رقية فى الحوارى القديمة .. الوجوه محجبة بالأبيض وملفوفات من الرأس حتى القدم بالحبرات السوداء.. ولم يتصور أحد من المارة أنهما اثنتان من الجوارى وتاجرة أرادت بيعهن. وكان ذلك هو الطريق الوحيد الذى مشيت فيه أمى على رجلها .. ولم يبق فى ذاكرتها منه سوى الكوبرى

على الخليج ونافورة قديمة فى سور أحد المساجد ، ورائحة وصوت مزعج لمعصرة زيت مررن بها .. كانت مرعوبة حين أغلقت البوابة الكبيرة لمنزل فريد بك ورائهن.. قادهن أولا العجوز عبدالله ثم الأغا كوتشوك، ودخلن عبر دهاليز ملتوية إلى غرفة جوليسار ، التى كانت فى المطبخ .. فوصلت ثم لحقت بهم جولستان.. ترافقها الوصيفة نعمات.

نبهت رقية أمى ونرجس إلى أن هذا ليس بيتا يحكمه الأغوات .. وإنما سيدتان تديران كل شىء .. وبالتالى فإن أمامهما اختبارا صعبا ولن تترك جوليسار أو جولستان فرصة وجود أى نقص فى البضاعة .. سوف يظهر القدح أكثر من المدح.. كانت هذه هى قوانين السوق.. وغير مسموح لأحد أن يصطدم بها .. وربما يطول الاختيار .. شهرا .. أو أكثر .. ومن يعرف فريد بيك حتى يتم الارتياح إليهما.. ووعدتهما رقية بأن تبقى معهما ليلا ونهارا حتى يتم البيع.

ومضت رقية تنصحهما : يجب أن يكون لكما مزاج معتدل ، متواضعتين، متحفظتين، مطيعتين دون ذل.. حتى لو كانت الأوامر غريبة.. حتى يعلن المشترى استعداده لشراء الإثنتين معا.

خلعت إندشا ونرجس الحبرة والحجاب ، وقدمتا نفسيهما فى ملابس فخيمة .. تافتاه بنية غامقة على بلوزات وتنورات من حرير أزرق . أحزمة فضية اللون من اللامية، مناديل راقية على الرأس، مجوهرات ، وصنادل جلدية بلون أحمر ، كانتا ساحرتين فاتنتين .. نرجس بوجهها البيضاوى وأنفها المنحرف قليلا والعيون الواسعة، الغامقة المملوءة بالحيوية والشفاه المملوءة للقوقازيات، وأمى الأصغر والسمينة بعض الشىء ذات الوجه المستدير والأنف القعير المستقيم والفم الصغير ونغازات الوجوه، كان جمالاً شقراوياً وبشرة بيضاء كالحليب وشعراً ناعماً كالحرير، عيوناً زرقاء وابتسامة.. كانت عندما تبتسم تفضح براءتها الطفولية لجوهرها.

لم تنطق جوليسار وجولستان بحرف يبدى إعجاباً بجمال الفتاتين. فقط تم الاكتفاء بالدردشة والسؤال عن الأعمار والموطن وقدراتهما وما يحبانه.. فأعطت كل فتاة إجابتها بعيون خفيضة .. خاصة أن رستم قال لهما : لا تقولا شيئا عن إقامتكما القصيرة فى قصر المفتش فى البداية .

تفهمت جوليسار وجولستان العلاقة بين إندشا ونرجس .. فهما جاريتان

سابقتان .. جولستان أيضاً كانت لها أخت فى قصر الخديو .. وقد غادرت السيدتان الغرفة للتشاور .. وعندما دخلت جوليسار مرة أخرى قالت لرقية إنها تريد الفتاتين على سبيل التجربة، وأرسلوا الوصيفة إلى الأغا رستم لتحضر حاجات السيدات الثلاث، لأن رقية ستبقى معهن بعض الوقت.

كان طعام الغداء فرصة مناسبة كى تظهر إندشا ونرجس إمكانيتهما .. كانت كل واحدة منهن تقف وتأخذ الطبق من الخادمة .. ثم تقدم أولا إلى جوليسار وبعدها جولستان .. ثم إلى رقية، كانتا تجتهدان فى الوصول إلى السلوك الصحيح أمام عيون ناقدة .. تتحركان بثبات .. لاتعطيان ظهورهما لأى من السيدات. لاتسقط منهما الأشياء .. حتى حين ملأت نرجس أكواب عصير البرتقال حتى الحواف وقدمت الصينية لم تسقط منها رشفة .. وحين أعدت إندشا القهوة فى الكنكة النحاس، كانت تهوى على الجمرات بالمروحة .. ثم قدمتها فى فناجين صغيرة من البورسلان الرقيق، ساخنة محلاة بالسكر لا هى ثقيلة ولا هى خفيفة وهى ترتجف خشية ان ينكسر إحداها .

وعند عيد ميلادى الثامن وفيما بعد كسرت أنا هذه الفناجين اليابانية التى كانت تحتفظ بها جدتى بكميات كبيرة، بالرغم من أنها كانت غير ذى قيمة، كسرت واحدا فى البداية .. فأمرت جدتى وصيفتها بأن تضربنى على ظهرى.

وفور أن أفلت من يد معذبتى، أهجم على الصينية التى وضعوها على الأرض، وقبل أن يستطيع أحد أن يمنعنى، أدوس على الأحد عشر فنجانا الباقية وأكسرها.. كنت أحدث ضجيجا هائلا، كنت لا أعرف هذا الشيطان الذى همس فى أذنى يومها وأوهمنى بأننى أصبحت كبيرة لأقدم القهوة بنفسى. فأخذت علقة جديدة وتم حبسى تحت سلالم التراس .. ولم يسمح لى أسبوعين كاملين بالظهور أمام جدتى .. ومرضت أمى من الخجل .. وكانت نرجس وجولستان تقدمان لى بعض الحلوى فى السر .. ولم يكن أبى يهتم بهذا فهو شأن حريم داخلى.

وكانت العيون تحصى حركات إندشا ونرجس .. بل والسكنات .. وبعد ذلك خضن اختبارا آخر فى أنواع الطعام الصعبة .. وكانت أمى وخالتى تخرجان من الاختبار خروج الشعر من العجين ، ولكن الاختبار لم يقف عند هذا الحد.

فى مساء يوم وصولهما إلى بيت فريد بك، وحين جلسن فى الحمام فتحت جوليسار عليهما الحمام فجأة دون كلفة، وتحدثت بضع كلمات بلا معنى، كان من

الواضح أنها تعاين البضاعة، وفى يوم آخر أصرت على أن تقص بنفسها اظافرهما حتى تتأكد من أنه ليس من السهل كسرهما ، وقامت أيضاً بشد شعرهما حتى تتيقن من أنهما لا تضعان شعرا مستعارا.

وذات صباح وفى المطبخ وعلى سبيل المزاح وضعت جولستان قرص كراميلة سميكا فى فمها، فإذا كانت أسنان أمى مزيفة، التصقت به وسقط الطاقم من فمها، وكن يتشممن أنفاسهما، وكانت تأمرهما بالبقاء ساعات أمام مواقد الطبخ حتى تتأكد من أن رائحة عرقهما ليست كريهة .. وحين كانتا تنامان كانت هناك عيون تراقبهما للتأكد من مراقبة الجوارب والأحذية والملابس الداخلية .

وفى يوم آخر تصورت أمى أنها لن تباع .. إذ تم استدعاؤها بشكل عاجل إلى جوليسار .. فتركت المطبخ .. وأسرعت تصعد الدرج .. فوصلت إليها منقطعة النفس تحت تأثير وزنها الزائد .. عندئذ عرفت أن جوليسار لم تكن تريد شيئاً ، فقط وضعت يدها على صدرها وسمعت دقات قلبها كما لو أنها طبيب للتأكد من عدد أنفاسها ، فى اليوم التالى وحين طلبت جوليسار أمى مرة أخرى لم تعبأ أمى .. وصعدت السلالم على راحتها .. واطمأنت السيدة العجوز ولم تجد عليها شيئا لتبعدها من الحريم.

ولم ينته الاختبار ، ففى مرحلة أخرى وضعت أمامهما أكوام الغسيل النظيفة.. وكان الويل كله لو أن هناك كسرة فى يشمك جولستان أو منديل جوليسار .. وكأن الوضع سيصبح سيئاً لو أن الكسرة كانت فى ملابس سيد المنزل خاصة، الجبة والقفطان أو الوشاح.. ومع الأسف فإن إندشا ونرجس لم تكن لديهما خبرة فى كى ملابس السهرة بنطلون أسود من القماش وسترة بياقات من الحرير التى يخرج بها فريد بك .. وكانت تلك فرصة لتقريظ رقية التى وصفت بأنها معلمة مهملة .. وكانت فرصة للتقليل من شأن البنات.

قالت لى نرجس: إنها كانت تعانى من شدة الخجل بسبب عدم معرفتها ولكنها لاحظت أن جوليسار وجولستان لم يكن يعلمان أكثر منهما بقليل..

فيما بعد أدركت أمى أن عاصفة الاستياء تلك كانت مجرد تمثيلية .. إذ لم يكن كى ملابس فريد بك من اختصاص الحريم كان كل مايهمها هو فقط إلقاء اللوم علينا فى النهاية. وفيما بعد قالت جوليسار وجولستان لأمى وخالتى إنهما كانتا ماهرتين جدا فى هذا الاختبار المعقد عندما كنا نجمع الملابس ونرتبها ونعطرها

فى الدواليب والصناديق.

وبصفة عامة كانت أندشا ونرجس تجيدان أيضا الحياكة والتطرين، صحيح أنهما لم يستطيعا إتقان الخياطة، لكن جوليسار وجولستان ليستا «أسطوات» فى هذا الفن، ولذلك لم يكن عندهن تطلعات أكثر من ذلك، كانت أندشا تأمل بأنها إذا أصبحت قارئة أو موسيقية ستتفوقان ولكن مع الأسف يبدو أن أحدا لايهتم بذلك. ولم يستمر هذا طويلا حتى علمت أن جوليسار لاتستطيع القراءة والكتابة وأن جولستان هى الأخرى ليست أفضل منها فى هذا.

كان يعلق عود على أحد حوائط الصالون، وفى يوم وعندما كان الصالون خاليا، أخذت إندشا العود الذى كان يغطيه التراب، وأحد أوتاره مقطوعا.. ودار فى عقلها هى ورقية أنه إذا ماكشفت أمى عن قدرتها اللغوية وموهبتها الموسيقية، فهى تغامر وسوف يقلل ذلك من شأن جولستان.

لم تغامر أمى بإظهار مواهبها الموسيقية، ولا بقدراتها اللغوية.. لأن هذا حسب ماقالته، رقية سوف يقلل من شأن جوليسار وجولستان.. وحين غنت ذات مرة بطريقة عادية فى صالون أمام جمع من النساء لم تلفت الانتباه.. لكنها حين أظهرت مواهبها الدفينة وحين غنت ذات مرة بطريقة عادية شعبية فى صالون أمام جمع من النساء لم تلفت الانتباه .. لكنها حين أظهرت مواهبها الدفينة أمام فريد بك وأثار هذا غيرة وحسد جوليسار وجولستان كان السيف قد سبق العزل .. ولم تفلح حيلهما فى إخراج الفتاتين من الحريم .. لأن أبى كان قد وقع فعلا فى حب أمى .. إندشا.

لم أعرف أبداً بكم بيعت أمى للمفتش .. هى شخصيا لا تعرف .. ولكن جدتى لم تخف سعر البيع الثانى .. ألف ومائتا جنيه لأندشا ونرجس .. كانت صفقة كبيرة تفخر أنها فاصلت فيها بمهارة ، ذلك أن جارية صغيرة وعذراء مثل أمى الجميلة كان يمكن أن تباع فى السوق بألف جنيه .. ويقطع ذهبية .. النصف عند الاستلام .. والنصف بعد عام .. هكذا إذن هى ربحت .. وكتب العقد .. وأقرت فيه بحق رقية فى العام الأول بأن تزور جاريتيها مرة كل شهر لتتأكد من حسن معاملتهما .

كنت حين أفكر فى هذا وأتخيل أن أمى بيعت كالحيوان فى سوق الماشية أبكى وكنت أكره جدتى وجولستان لهذا السبب .. خاصة جدتى .. التى أعتبرها

مسئولة عن كل هذا ، رغم أنها لم تكن ترى فيما تفعل أى شيء غير عادى ، وأخيرا فهمت أنها كانت تتصرف طبقا لتقاليد عصرها، فهى الأخرى كانت جارية وفخورة بذلك.

أما المذنبون فيمكن البحث عنهم فى مكان آخر.. المذنبون!!..

هل كان يوجد حقا مذنبون؟!..

هل لىّ أن أحكم على ناس مثل الأغا رستم؟.

هل من حقى أن ألوم على أبى؟!!، أو على الرجال جميعا أسياد الحريم.

وقد كان رأيهم جميعا أنهم عهدوا فيهن الوفاء واحترامهن للقانون الذى كان مقبولا من الجميع.

وكان على أن أغير مشاعرى تلك ، فهذا أسهل من كرههم إلى حد ميلاد مشاعر داخلى برغبتى فى قتلهم .. قتل جدتى وقتل رستم وقتل رقية .. بل وأبى وكل سيد للحريم.

٤ - السيد

لم تر إندشا ونرجس سيدهما إلا بعد أربعين يوما من شرائهما، خلال ذلك كانتا تسكنان فى أبعد جزء من الحريم ، وكان محظورا عليهما الخروج حين يأتى فريد بك إلى غرفة أمه لشرب القهوة صباحا، نرجس رأت أبى فى اليوم نفسه لوصولهما .. رأته فى الخيال. لم أصدقها.. وهذا كان يغضبها.. حينئذ ابتسمت نرجس دون أن تتحدث الوصيفة قالت لها إنه جميل مثل النبى يوسف عليه السلام، ولكنها تحت ضغط الفضول دفعت رشوة كى تلقى نظرة عليه من شباك صغير لحجرة الخزين يطل على حديقة الرجال .. حين كان أبى يتمشى بصحبة صديق له .

لقد أعجبها .

كان والدى فعلا رجلاً جميلاً ، طويل القامة، معتدل الهيئة ، متأنقاً دائماً ، له لحية كستنائية، أنف كالنسر، له بشرة بنية، ونظرة شجاعة مليئة بالحيوية ، وذراع ممشوقة رشيقة .. وقد كانت تلك فى رأيى - حين كنت فى الخامسة عشرة - مواصفات الرجل الوسيم.

ذات يوم رأيت فى أحد كتب أبى صورة قديمة ، سيدة صغيرة بفستان منقوش فضفاض، اختفى نصف شعرها المضفور تحت قبعة كانت موضة فى باريس فى ذلك الوقت.. بعيون جادة حزينة ، وعلى ظهر الصورة إهداء مكتوب بخط يد ظريف: لفريد وللذكرى والتاريخ - سان كلود فى ١ مايو ١٨٦٦ - الاسم مارجريت.

ربما كانت تلك هى الحب الأول لأبى ، وكنت حين أرى الصورة أتخيل قصة حب كاملة بينهما .. وكنت أرى أن التشابه الذى بين مارجريت وبين أمى هو الذى أوقع أبى فى حب إندشا من أول نظرة.

لقد قابل فريد إندشا أول مرة فى صباح يوم حين كان يشرب القهوة عند أمه فى الحريم ، لم يكن يعلم أنها موجودة ، رغم أن جدتى اشترتها له.

كان تناول القهوة طقساً صباحياً معروفاً، تجلس جدتى فى مكانها الثابت المعتاد على الكنبة .. أمام الشباك .. كما لو كانت على كرسى عرش .. تختفى

أرجلها خلف ثنايا ردائها .. لها جسم غليظ ووجه مملوء حتى أن العمة الضخمة من الصوف الأبيض تظهرها أكبر وأضخم.. جولستان تجلس بجانبها فى مكان منخفض على شمالها .. وأبى على يمينها .. ثم تدخل الوصيفة نعمات مع جارية أثيوبية .. وتضع الأخيرة صينية فضية عليها الفناجين والكنكة فوق منضدة من الأبنوس المطعم بالصدف، تملأ الوصيفة الفناجين وتقدم لأبى أولا، ثم لجدتى، ثم لجولستان، وبينما يرتشف أبى فنجانه كان يتكلم فى أمور مختلفة بعد أن يلقى للوصيفة بعض قطع فضية هى والجارية .

أحيانا كان يسمح لأمى ونرجس وحتى أنا بمرافقة الوصيفة وتقديم القهوة، وبعد خدمتهم جميعا كنا نجلس بجانب جولستان على الأرض.

فى اليوم التالى ، لعرض أمى على أبى، قامت هى بعمل الجارية ، كانت ترتعش، فسقطت قطرات من القهوة على المفرش المطرز، كانت جميلة الصورة بخدودها المحمرتين خجلا، أراد أبى أن يعرف من هى.. فأجابت جولستان مندهشة: من الواضح أنها أعجمية، وكانت إندشا تغلق عينيها خجلا من نظرات أبى.

فى مساء هذا اليوم لم تفرش أمى مرتبتها كى تنام بجانب نرجس، لقد أعدوا لها غرفة خاصة فخمة فى جناح آخر بالحريم .. وأعطوها خادمة خاصة .. حبشية .. مشطت لها شعرها وعطرتها .. وفى الصباح التالى رأوها تضع فى إصبعها خاتما من الذبرجد مربع الشكل غالى الثمن لم يفارقها طيلة حياتها.

لم يحدث احتفال .. وظلت الحياة المنزلية كما هى .. وبعد حوالى نصف عام صارت نرجس هى الأخرى زوجة لأبى .. بعد أن حملت أمى .. وأجهضت .. وخرج الطفل ميتا.

إننى أذكر هذا الآن ، ولا أتذكر أبدا مشاعر غيرة دبت بين الاثنتين .. فقد كان الحب بينهما عميقا، حتى أن الحالة الجديدة التى عليهن لم تنل من الحب الذى ربطهما.

الفصل الثانى

الطفل المتمرد

١ - عين الحسود

ولدت فى ظهيرة يوم شم النسيم، شمس ساطعة وزهور جميلة «طبل وزمر ..» وعندما رأيت ضوء العالم صرخت بصوت عال وبفظاعة لم يعتادوها بهذا الشكل من الأطفال ، قالت جدتى : كانت تعبر عن شخصيتها المتمردة .

لم تستطع أمى أن ترضعنى، بحثوا عن مرضعة، وحتى وجدوها اكتفوا بالبقرة والماعز .. إننى لا أذكر البقرة بالمرة .. ولكننى أعرف الماعز فقد بقيت فى أحد أركان الحديقة سنوات طويلة، وحين استطعت المشى كنت أزورها ، أذهب إليها . أخفى يدى الصغيرة فى شعر صوفها الكثيف، وأعطيها العلف الذى أحصل عليه من الجناينى وكانت من الطقوس اليومية الأولية فى طفولتى المبكرة.

مرضعتى أمينة كانت فلاحة من قرية أبى .. ربما كانت نحيفة هزيلة حين جاءت إلى بيتنا .. لكنها الآن ممتلئة صغيرة ومدورة الشكل والوجه لم يرفض لها طلب .. كانت تعبئ بطنها بجميع أنواع الحلوى .. وربما كان هذا هو السبب الذى جعلنى أكره الحلوى حتى اليوم .. رغم أنها كانت تأخذ كل شئ لنفسها ولم تعطنى منه شيئا، وعندما حذروها من أكل الحلويات باستمرار، اشتكت «للداية» التى تكشف عليها أسبوعيا والتى حذرتنا من محاولة أن يبعدها أحد عن هذه الشهوات.

كانت أصابع وذراع ورقبة أمينة مغطاة بالذهب، كانت تحب الذهب ، وكانت تحصل من أسرتى على قطعة زينة جديدة فى كل مناسبة مهمة فى حياتى .. عندما ابتسمت لأول مرة ، عندما ظهرت سنتى الأولى، عندما مشيت خطوتى الأولى عند عيد ميلادى الأول، عند الفطام، عندما قلت كلمتى الأولى .. وربما كانت هى تختلق بعض هذه المناسبات لتحصل على ذهب جديد .

عندما بدأت أمشى صفت جدتى خمس قطع ذهبية فى قاعة الحريم، على الأرض .. كان علىّ أن أنهى وحدى السير متخطية القطع الذهبية الخمس حيث كانت جدتى فى نهايتها تقف فى انتظارى فاتحة ذراعيها .. وإذا ما نجحت فإن هذا يعتبر فألا حسنا يعبر فى رأيهن عن ثروتى القادمة .. وكان معنى هذا أن

تحصل أمينة على القطع الذهبية الخمس .. وقد كانت ترى أن هذا حقها لأنها تدربنى على ذلك يوميا. لكننى فى بعض المرات كنت أغير اتجاهى فجأة .. وأسقط على الأرض .. فتهلع أمى .. وتسرع نرجس لترفعنى من على الأرض .. وتصرخ جدتى وهى تجمع الذهب : « هذه طفلة عنيدة لن ينصلح حالها أبدا » .. وتحزن أمينة على ضياع القطع الثمينة، وأعتقد أن مرضعتى لم تغفر لى هذه الخسارة.

فيما بعد كانت نرجس تقول لى ضاحكة: كنت عنيدة ، تتجهين للباب المفتوح، وكأنك ترغبين فى الهروب » .

إن أمينة كانت تحب التنزه فى شوارع القاهرة، كانت تركب الحنطور ، وتأخذنى .. وتأخذ معى ابنتها – أختى فى الرضاعة – فاطمة .. هذه الطفلة التى كانت سمنتها تزيد من قلق أمى علىّ لأننى هزيلة .. وقد ماتت فاطمة وهى لم تزل فى الثامنة من عمرها .. فصارت ذكية إبنة جارية جولستان السودانية صديقتى ألعب معها مع أنها أكبر منى.. لكنها ماتت منذ عشر سنوات.. وكانت واحدة من أفضل صديقاتى.

هناك قرية بها أراضى أبى والتى نشأت فيها مرضعتى، كان منزلنا هناك عبارة عن مبنى قصير الارتفاع مربع، يستند على سوره الخلفى أكواخ الفلاحين وواجهته الأمامية تقع على الحقول، كان صيفا ولم يحضر أبى معنا، ومكثت أمى المريضة بعد ولادتى معظم الوقت داخل المنزل راقدة على ديوان.. وكانت نرجس تجلس بجانبها طوال الوقت.. وكما في المدينة كانت أيضا كل من الجدة وجولستان فى المنزل الريفى حاكمتين لامنازع لهما.

أذكر أيضا طفلا آخر، حسن ابن نرجس .. الثانى .. الأول مات لحظة ولادته .. وحسن نفسه مات فى سن التاسعة .. وقد ولدت بعده طفلاً ثالثاً ثم بنتين .. ثم ولدا آخر .. كلهم ماتوا فى سن الطفولة .. وقد كنت أعامل حسن وهو رضيع مثل عروس لعبة دبت فيها الحياة .

فى قريتنا كانت مرضعتى تصحبنى لأتمشى .. تضعنى على بغل خاص رمادى .. يجره حارس من لجامه .. ويحفزه آخرون من الخلف .. كنا نتجول بين الحقول .. وكنت أعتدل فوق السرج، وأرفض أن يمسك بى أحد .. فإذا لم يترك الحارس اللجام .. أبدأ فى الصراخ .

وكان من المتوقع أن يكون مصير أمينة مثل مصير أية مرضعة فى بيتنا .. تبقى حتى نهاية عمرها فى منزلنا عاطلة ومدللة من الجميع .. لكن وضع أمينة كان مختلفا .. لقد أصبحت متكبرة .. تتشاجر مع الخدم دون سبب .. تلومهم لأنهم لا يمنحونها الاحترام الواجب .. يتسلل صوتها الرنان عبر جميع الحوائط في المنزل الساكن .. حاولت الوصيفة نعمات والاثنان الأغوات إسكاتها .. عبثا .. كانت تصر على الصراخ .. نرجس وجدتى وجولستان أمروها بإغلاق فمها .. فلم تفعل .. وكان أبى يفشل فى إسكاتها ثم ينسحب متبرما إلى غرفته .. وكان من الطبيعي أن تنتهى مشاجرة بينها وبين جدتى بخروجها من البيت .. وصلت شتائمها وهى تصطحب ابنتها إلى أسماعنا من الحارة .. أمر أبى بإعادتها إلى القرية .. جاء زوجها يلتمس العفو .. فرفض أبى ومنحه بعض المال .. ذلك أنه منذ صارت زوجته مرضعتى عاش فى القاهرة .. وافتتح محل بقالة .. وخسر .. ثم ظل يتسول بقية حياته من أبى .. وبعد ذلك منى أنا .

إننى أعترف بأن كل لقاء لى مع أمينة كان مؤلما ، كانت فى كل مرة تذكرنى بخدماتها العديدة والعريضة والمخلصة وتشكو الجحود ، وقد كانت جدتى بسبب انطباعها السيىء عن أمينة تناديني متبرمة : «أنت يا إبنة أمينة ، شربت لبنها ، ورضعت شخصيتها السيئة» .

جدتى هذه كانت تؤمن بخرافات عديدة ، كذلك نرجس وجولستان .. ربما كان فكر أمى أقل لأنها متعلمة .. وكان إيمانهن هذا بالخرافات يدفعهن دائما لرقيتى من النظرة الشريرة وعين الحسود التى يتوهمنها .. وكنت أرى فى بيتنا نساء ورجالاً احترفوا إقناع جدتى بخدماتهم من أجل طرد عين الحسود .

خوفا من العفاريت والجن لم تكن جدتى تتركنى أنام وحيدة أبدا .. كانت دائما فاطمة تشاركنى غرفتى .. هى وأمها أمينة .. ومن بعدهما حلت زكية شريكة لى فى الغرفة .. وكنت فى كل صباح أرى شيخة اسمها زهيدة تأتى إلى بيتنا وتضع يدها على رأسى وتقرأ سورة الفلق بسم الله الرحمن الرحيم «قل اعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسق اذا وقب. ومن شر النفاثات فى العقد. ومن شر حاسد اذا حسد» ثم تنثر سبع حبات من الملح حول رأسى .. وتلتقطهم من الأرض مرة أخرى .. ثم تضع نصفهم فى ماء والباقى فى النار .. وفى الليل كانوا يبخرون غرفتى عدة مرات لطرد الجن.. وينثرون الملح فى النار .. فتتصاعد سحب

الدخان التى اتخيلها أنا رجالا أقزاما وحيوانات غريبة تطير فى الهواء.

وكانت الأمور تتعقد حين يروننى مصابة بأى وعكة .. فى رأيهم أن أى ألم سببه الحسد ينادون أمينة .. ويستجوبونها ويستجوبوننى.. هل رآها أحد .. كيف نظر لها .. هل قال شيئا غريباً أو بغضب أو قلة أدب .. وحين يضعون أيديهم على عين الحسود يأتون بعروسة الورق ويمنحونها اسم صاحب العين ويوخزون العروس فى عينها .. ثم يلقون بها فى المبخرة بينما الشيخة زهيدة تدور فى دائرة وهى تتلو رقيتها .. وإذا ما فشلوا فى تحديد اسم معين تقوم المرضعة بذكر جميع أسماء المشتبه فيهم وعند كل اسم تقوم الشيخة بوخز رأس العروسة بالإبرة مرتين وأحيانا يأتون بقطعة من «الشبة» .. يضعونها فى نار المبخرة وحسب الشكل الذى يأخذه سحاب الدخان يقررون ما إذا كان الأمر خاصا برجل أو بامرأة .. ثم تصطاد الشيخة زهيدة قطعة الشبة من النار وتشكها بالإبرة عدة مرات ثم تلقى بها فى الخليج الذى يطل عليه بيتنا كل هذا كان يقام فى حضورى وغالبا ما كانوا يسمحونُ لى بالمشاركة فى هذه الطقوس.

إننى لا أعرف كيف تخلصت من تأثيرات هذه الخرافات .. ربما لأن هذه العملية تكررت كثيرا أمامى وفقدت سحرها .. ربما لأن أمى كانت ترفض ذلك .. ربما لأن أبى هو الآخر كان يرفض ذلك ووبخ جولستان يوما على هذا .. وربما لأننى قرأت كثيرا .. وربما لأن جدتى بعد أن ماتت وكنت فتاة صغيرة اختفى معها شيوخ السحر وكوديات الزار .

من يدرى، لو أنها على قيد الحياة الآن، لكانت قد أقنعتنى بأن كل سوء الحظ الذى أعانى منه سببه هو أننى لم أتخذ الاحتياطات اللازمة ضد عين الحسود .

وهناك لحظات أتوهم فيها بأن الجدة ربما كانت على حق.

٢ - باسم الله

جدتى هى أول من فكرت فى تعليمى ، أحضرت الأستاذ حفنى سليمان، شيخ نحيل عجوز له ذقن بيضاء دائما يرتدى قفطاناً أبيض اعتاد أن يرتل القرآن فى بيتنا ، كان صوته الجليل يتسلل من السلاملك إلى أسماعنا كل صباح، وكانت الآيات الكريمة من الفاتحة وسورة الفتح، وكانت له ابنة ترتل القرآن هى الأخرى عند جدتى .. وكان أبوه يرتل القرآن لجدى ويعلّم أبى .

الأستاذ حفنى هذا لديه مدرسة صغيرة بالقرب من بيتنا، «كُتاب» ، يدرس فيه أطفال الحى القراءة والكتابة، يحفظهم القرآن .. كان عليه أن يفعل هذا معى ، لكنه كان يأتى لى بعد الظهر بدلا من أن أذهب إليه .. حيث أتلقى دروسى مع زكية فى غرفة صغيرة بجانب مدخل البيت، وفى البداية كان يجلس معنا الأغا العجوز كوتشوك فى ركن ويسبِّح بالمسبحة بين أصابعه، لكن أبى طلب أن يجهزوا لى «تختة» من الخشب الجميل اللامع .. له رائحة شبه رائحة شمع العسل .. وأمام المكتب كرسى المدرس.. لكننا لم نستخدمهما أبدا .. وكنا نجلس نفترش سجادا فارسيا أصيلا : المدرس والتلميذات يجدونها أكثر راحة فى الجلوس مربعين..

كان لدى سبورة .. ولدى زكية أخرى يكتب عليها الأستاذ حرفا وعلينا رسمه.. يمسح الأستاذ حفنى محاولتنا الفاشلة من عليها بخرقة مبللة .. صابرا .. وكنت أخفى «الخرقة» .. فيأخذ منديل يده الكبير ويبلله بلسانه ويمسح به السبورة .. وكان هذا يسعدنا فنقلده .

لقد كان يوما مهمًا حين سمح لنا لأول مرة بقراءة الفاتحة .. تجمع كل من فى البيت .. أبى وأمى ونرجس وجوليسار وجولستان فى مسجد المنزل.. وأقيمت الصلاة .. ثم تلوت الآيات السبع دون أن أتلعثم ، وكذلك زكية .. وهنأتنى جدتى .. وأهدت الشيخ حفنى جبة فخمة من الصوف وكيلتين من القمح ، وذهبنا إلى القاعة حيث دللونا بمزيد من قطع الحلوى. بعدها أخرج حفنى لجدتى السبورة التى كتبت عليها «بسم الله الرحمن الرحيم» .. هنأوه عدة مرات فحصل على هدية أخرى ..

قفطان من الحرير .. ارتداه على الفور .. وهنأونى أيضا .. لكننى لم أكن سعيدة .. صحيح أننى كتبت هذا .. لكنه هو الذى كان يحرك يدى وأنا أكتب .

هذا الإحساس حرض طموحى .. وبعد قليل فعلتها وحدى تماما وكتبت «بسم الله الرحمن الرحيم».. ولكنى لن أرضى .. توسلت إليه أن يعطينى الحبر والريشة .. ثم رضخ أخيرا .. وأعطانى محبرة وريشة أوزة .. بعد دقائق قليلة كان الحبر على الاصابع وعلى الوجه وعلى ملابسنا انا وزكية فشتمونا ووبخوا الشيخ .

فى صباح يوم آخر دخلت غرفة أبى مع جدتى، اكتشفت على مكتبه عدة محابر مختلفة بالريشة من معدن او زجاج كانت المحاولة كبيرة كانت جدتى مشغولة مع الخدم فى غرفة النوم.. أمسكت الريشة .. اكتشفت كومة من الورق .. بها أسطر وهوامش عريضة يمينا وشمالا.. شغفتنى هذه المساحات البيضاء .. فنبشت عليها بالريشة باسمى وبالكلمات التى أعرفها، وملأتها بزخارف عديدة .. ثم فعلت ذلك فى ورقة ثانية وثالثة .. وبالطبع لم يخل الأمر من حبر هنا وحبر هناك .. فى كل مكان على يدى وفى وجهى.. على ملابسى وعلى الورق وعلى المكتب، وفاجأتنى جدتى .. صرخت .. أرادت أن تهجم على لتضربنى .. عدوت أمامها كالجن .. هربت منها .. فهى سمينة ثقيلة .. أما أنا فعلى العكس كنت أعدو كالشيطان.. ومن على بعد سمعتها تشتم .. وتتوعدنى بعقاب أبى حين يعرف بما فعلته .

فى الركن السرى العالى، الذى اختبأت فيه اليوم كله، ولاتستطيع أن تمسكنى فيه كانت زكية تأتينى .. هى وحدها التى تعرف أين أنا، كنا نختبئ فيه معا .. كانت معها قطعة من الكعك سرقتها من المطبخ .. ولم أكن استجيب للأصوات التى تنادى على وكان يحزننى ألاّ ارد على أمى أو نرجس .. وحين يحل الظلام تأتى زكية ناصحة إياى أن أستسلم .. أبى وصل المنزل .. إنه الآن يعرف كل شئ .. إذ لم يتحدثوا معه سوى فيما فعلت وعن سلوكى المشين.. بقيت فى الركن جالسة معاندة، وعادت زكية مع نرجس التى نجحت فى الإمساك بى.. وحملتنى إليهم .. كنت أتملص من يدها كالشيطان .. وكانت أمى تبكى .. وجدتى مشحونة بالغضب .. رفضت أن تنظفنى نرجس وتخلع عنى ملابسى .. وقالت لها : «أعطيها لأبيها كما هى .. بوساختها» .. لم تتركنى نرجس لحظة واحدة وأطاعت أوامرها.. ،لاحظت كيف تتوسل أمى لها .. ولاحظت غمزات عينيها .. ووضعتنى نرجس أمام

مكتب أبى .. «إحنا معانا العصفورة» .. لكن جولستان قالت : «دى شيطانة .. عصفورة إيه» خفضت رأسى وعضضت على اسنانى بعناد .. حرك أبى اللمبة كى يسلط الضوء على .. فحصنى دون كلمة .. كان شعرى منكوشا والحبر يلطخنى.. وتراب المخبأ يغطينى .. حينئذ اندلع يقهقه .. فضحكت نرجس .. وطالبت جولستان بعقاب صارم .. لكن أبى رفض .. وظل يضحك .

ربما كانت هذه هى المرة الأولى التى نظر فيها أبى إلىّ ببعض الاهتمام ، ربما كانت ولادتى قد أصابته بخيبة الأمل .. لم أكن ولدا .. وربما لم يهتم من قبل بالأطفال .. وربما كان يحملنى بعض ذنب مرض أمى .. لكننا فى هذا المساء تعرفنا على بعضنا لأول مرة .. أنا وهو .. لقد جردتنى ضحكاته من أسلحتى، كنت أتفحص مندهشة ومازلت مرتابة بعض الشيء، هل يسخر منى ولكنه بدأ الحديث بنبرة صوت ليست غاضبة أو حادة.

قال لى : «تعالى هنا .. أقرب .. أقرب » .. ثم نظر إلى يدى وقال : حتى أنت أسرك هوس الكتابة، ولكن يا ابنتى عندما ترغبين فى الكتابة على الورق لاتسمحى لنفسك بأن يكون ذلك على حساب زملائك من الكتاب.. الغلبان خليل، انظرى ماذا فعلت بقصائده، أبياته اختفت تحت أبياتك!، لقد قضيت عليها رسميا! وهم لا يستحقون منك ذلك، وهذا لايعجب الكاتب بالتأكيد، أن يلطخ أحد تحفته الفنية هكذا! وسوف أقول له الحقيقة ليكون ذلك أسوأ لك!.

وأكمل باسما : من الآن وعندما ترغبين فى الكتابة تعالى هنا، انظرى إلى هذه الأقلام الرصاص الجميلة ، هذه مسموح لك بها ، ثم أعطانى يد ريشة من العاج ، بها عدسة زجاجية صغيرة إذا ما نظر أحد داخلها يرى صورة قصر فخم بكل الألوان المتلألئة ، ولقد احتفظت بهذه الريشة سنوات عديدة ، كان مكتوباً عليها : باريس . المعرض الدولى سنة ١٨٦٧ ، وكانت ثقيلة وغير عملية .. ورغم ذلك سعدت بها، ووضعتها فى يدى وحتى لايأخذها منى أبى مرة أخرى، سمح لى بالاحتفاظ بها بعد فك الجزء المعدنى.

أسرعت عائدة الى القاعة بهديتى لأريها أمى .. إننى منتصرة .. وهى مسرورة بالنهاية السعيدة للقصة.. ونرجس لم تتوقف عن الضحك .. بينما كانت أمى تغير لى ملابسى .. فى حين كانت جدتى تشعر بالإهانة وتلعن لين أبى وتتوعده بالخسران لأنه انصاع لأفعالى وعصيانى، وتنبأت له بالندم على ذلك، لأنه أفسح

الطريق لرغباتي وعصياني.

في هذا الوقت تقريبا مرضت جدا ، وزعمت مرضعتي أمينة أن هذا المرض سببه حزني على فراقها .. لكنني في الواقع كنت مصابة بالتيفود .. وطاردني لفترة ليست قصيرة خطر الموت .. واستدعى أبي طبيبا أوربيا وسيما ليعالجني كان شابا صغير السن ومع ذلك له سمعة واسم.. رغم معارضة جدتي .. كان اسمه الدكتور كومانوس .

في اليوم الأول وحين ظهرت أعراض الحمى عليّ استدعت جدتي الشيخة زهيرة التي قضت ساعات طويلة بجانب سريري تقرأ التعاويذ ، وفي ليلة من هذه الليالي الصعبة استيقظت فجأة فزعة بعد أن شعرت بشئ دافئ لزج يتساقط على وجهي .. دم حمامة .. ذبحوها .. وحين فتحت عيني كانت مخالبها وأجنحتها لم تزل ترتعش فوق رأسي وتضرب بالأجنحة.. رغم ذلك ساءت حالتي .. فأحضروا كودية شخّصت حالتي على أنها بسبب جنية .. الجنية وقعت في حب أبي .. وتغار من أمي .. فقرروا عمل زار ، أعدوه بسرعة وسرا .. زار بدون طبول وزعيق وصراخ، لم أر منه شيئا .. كنت فقط في حالة من الحمى تجعلني أرى أشكالاً متحركة ودقات إيقاع وأنفاساً مبهورة وعجلاً يذبح .. وخرافا وماعزاً تتلوى .

كانت الكودية تأخذ اللحم المذبوح معها كما قالوا لتلقى به للكلاب ، بعدها وضعوا لي حجاباً تحت وسادتي، ظل في مكانه حتى موت جدتي .. إنه تميمة من فرو الخراف والماعز التي ضحوا بها للجنية التي غارت من أمي وأرادت قتلي .

الدكتور كومانوس لم يجد عونا من البيت ، أمر بوضعي في ماء مثلج ولم يجد امرأة واحدة مستعدة لتنفيذ تعليماته وحتى نرجس رفضته .. أمي اعتبرته مهووسا .. يود قتلي وألقت بنفسها تحت أرجل أبي تتوسل له ألا يفعل .. لكن أبي غطسني بنفسه في الحمام .. وعلى كل حال تراجعت الحمى وشفيت.. وعرفت منه أخيرا .. كيف استطاع التخلص من خوفه عليّ!.

يا لها من أيام أتذكرها أعطتني الحياة تدريجيا .. فحتى الآن أرى أمامي الغرفة الفسيحة المضيئة وورق الحائط المطبوع بالورد، وسجادة قيمة من الصوف الأزرق على الأرضية.. كانت مؤثثة على النظام الفرنسي: سرير طراز لويس كانز، واسع حتى أني أختفي فيه، دولاب بمرآة وألاحظ من خلالها من يأتي ومن يعدو، منضدة مدورة بأرجل ظريفة انسيابية وكنبة تسع اثنين مفروشة بالحرير وردي

اللون. أمر أبى بتجهيز هذه الغرفة لضيوفه وكانت فى الجزء الخاص بالرجال فى المنزل، حيث يفتح الباب مباشرة على الممر، ولذلك استطاع الدكتور كومانوس قضاء زياراته دون أن يضطر الأغا أولا لإخلاء الطريق من كل السيدات.

نرجس كانت خلال مرضى تنام على حصيرة بجانب سريرى ، وتعتنى بى كما لو كنت ابنتها، وفى النهار تأتينى زيارات عديدة، خاصة من زكية التى كانت معى طوال الوقت تقريبا.

وكانت أجمل ساعات فترة النقاهة، هى التى قضاها والداى عندى. فأمى كانت تأخذ مكانها على الكنبة نصف جالسة ، ونصف راقدة تتحدث قليلاً وابتسامتها مليئة بالحب.. وكان أبى يأتينى كل يوم .. بهدية جديدة عروسة أو لعبة.. يجلس على كرسى ويتحدث طويلا مع أمى.. وأظن أن جولستان كانت تغار من أمى ونرجس اللتين قربهما مرضى أكثر .. لكنى لا أذكر علامات لهذه الغيرة ، فقد كانت تدللنى وتحضر لى ما لذ وطاب من صنع يديها وفور أن تعود شهيتى للطعام.. وكذلك جدتى.

ويبقى مشهد فى ذاكرتى، أرى فيه الجدة وجولستان معا مع أمى فى الغرفة واستنتج منه سوء فهم واضح وغير محدد.. إنه عداء أكيد.

ولم أحب زيارة هاتين السيدتين، كنت متأكدة أنهما يغاران منى أكثر من غيرتهما من أمى.

أحضر أبى لى أساطير تشارلز بيرو .. على الرغم من معرفتى بمعظم هذه القصص التى سمعتها من قبل كان يقرأ لى الحروف الأبجدية الكبيرة تحت الصور .. حفظت جملا عديدة .. وكان حين يخرج أقرأها مع أمى .. ثم أتقمص دور المعلم وألقنها لزكية وآمرها أن تقرأ «الـ ـ أسد»، «القبعة الـ ـ حمراء». وكان ذلك يفرحنا جدا عندما ننطق هذه المقاطع الجديدة رائعة اللحن بصوت عال.. وكنا نقذف بها فى وجوه الجميع من الزوار: نرجس تتسلى بذلك، أما جولستان والجدة فيحركان الأكتاف فقط ويعتبراننا اثنتين من المجانين.. ولم يكن الأستاذ حفنى يفهم شيئا من هذه الكلمات الفرنسية .

كم أحببت هذه الأساطير واعترف بجميلها لأنى تعلمت منها الحروف الأبجدية الفرنسية.

أبى أيضا أهدانى فى مرضى سلحفاة وببغاء وحماراً صغيراً.. أحببتهم بشغف .. السلحفاة لم تعش طويلا .. لكنى أذكر كيف كانت تزحف ببطء على السجادة وعلى ملاءة السرير. لم أخف منها مطلقا.. جدتى نسجت حكايات أسطورية حول السلحفاة وتقسم بكل الأولياء خاصة أحبائها منهم: السيد البدوى، فاطمة النبوية.. كانت تؤمن بأننى حين تزداد الحمى علىّ تخرج السلحفاة رأسها من درعها ثم تدخله .. حتى أخذت مرضى عندها، حكايات عواجيز الفرح!.

حين وجدوها - السلحفاة - متجمدة كالحجر ذات يوم .. وقالوا لى ماتت بكيت من شدة الحزن. كان ذلك هو لقائى الأول مع الموت .. ولم أجد إجابة عن أسئلة عديدة .. لكننى نسيت كل شئ حين أحضر لى أبى الببغاء .. أسميته صادقاً .. أطعمته باللوز .. وسقيته ماء الورد .. وعلمته كيف يمكن أن يقول للناس يوم سعيد .. ولم يقل شيئا آخر .. فمللت منه . وأهديته لإحدى الخادمات .

عندما تمكنت من مغادرة غرفتى وجدت فى الحديقة جحشا جميلا رماديا عليه سرج جديد .. وعدتنى جدتى أن نخرج به إلى مساجد القاهرة حين أشفى لتوزيع الصدقة ولكنى لا أعرف إذا كنا قد وفينا النذر أم لا.. ففى القاهرة مساجد كثيرة .. كانت جدتى تمر عليها وهى راكبة حماراً وأنا بجانبها على الجحش .. وحولنا نساء على حمير أخرى .. وبجانبنا السياس بعصيهم ينظمون خط سير الحمير .

لقد زرنا مساجد كثيرة على مدى عام، ومنها العديد الذى لم أزره منذ ذلك التاريخ، وكانت جدتى تعرف أن لكل ولى من أولياء الله كرامة معينة .. هذا يشفى أمراض العيون .. وهذا يساعد فى إنجاب طفل .. وآخر يعيد الزوج الخائن لزوجته .. أنا لم أهتم بهذا .. كنت فقط أنتبه إلى ما يحدث فى المدينة .. إلى الأسواق التى تحيط بالمساجد . إلى التجار والطبيخ الذى يباع والفطائر المحشوة وأطباق الأرز والبهلوانات والقرداتية والمغنين والراقصات .. كانت وقائع الموالد تسحرنى .. ولم أذكر الأغانى التى سمعتها فى هذا الوقت، ولم تكن للبنات فى مثل سنى كنت أمتلك حاسة سمع جيدة وذاكرة قوية.

رسمت الثوب الذهبى والسيف والهروب من القصر، ولم أفهم مطلقا: لماذا لم تأكل المغنية سكر اللوز؟ وتوسلت للجميع أن يوضحوا لى ذلك ولم يجبنى أحد

حبيبى الجميل يرتدى ثوبا ذهبيا

يسكن فى افخم القصور

الأم هناك
حبسته الأم هناك
لأنها لا ترغب فى أن يحبنى
لكنه هرب عند الفجر
فى ثيابه الذهبية وسيفه فى يده
جاءنى بلا خوف
قبل جبهتى
وأعطانى سكر اللوز
مر على لقائى به أربعون يوماً
مازلت أحتفظ بسكر اللوز
وبأثر قبلته على جبهتى.

مازلت أذكر هذه الغازية السمينة الجميلة التى كانت تغنى فقد قابلتها عدة مرات فى رحلاتنا المختلفة.. أذكر مكياچها الثقيل ولم أزل أرى حتى اليوم عيونها المحاطة باللون الأسود وشفتيها نواتى اللون الأحمر الدامى ويديها الغارقتين فى الحناء وهى تدق «الصاجات» النحاسية .. كنت أود أن ألقى لها بكل العملات التى أعطوها لى كى نوزعها على الفقراء .. لكنهم منعونى .

كما كان يدهشنى أكثر من الغازية «صندوق العجائب» الذى أندفع إليه وقرش فى يدى فأكبس عيونى فى العيون السحرية..

يا لها من مناظر بديعة !.

يا لها من قصص حب رقيقة سمعتها فى هذه الموالد .. لم أزل أذكر عزيزة معشوقة يونس .. هذان الحبيبان عاشا فى الماضى .. كنت أرى عزيزة التى أخفت نفسها فى الجبل .. لا أعرف أين.. لكنها هربت من أبيها الذى أراد أن يزوجها من شخص آخر .. وهى تحب يونس الجميل.

لقد أثارت فىَّ هذه القصة الكثير .. واشتعلت فى رأسى أسئلة عديدة .. وكانت نرجس تحكيها لى كل مساء .. وتروى لى دائما واقعة جديدة .

٣ - مودموازيل

كنت متأثرة باللغة الفرنسية .. فقرر أبى أن يحضر لى مدرسة فى المنزل.

جاءت المودموازيل «هورتان» ذات مساء وعندما وصلت العربة التى أقلتها من المحطة ووقفنا جميعاً فى البلكونات خلف المشربيات نلقى النظرة الأولى على «الفرنسية» . الأغا أحضرها من الاسكندرية . لم يساورها أى شك فى الصفات الجسمانية للأغا الذى جاءت معه فى رحلة طويلة إلى القاهرة . حين نزلت من العربة شكرته بابتسامه ناعمة .. ثم سألت أمى عن هذا العجوز الساحر .. واحمر وجهها حين أخبرتها أمى أنه طواشى!

دوت الضحكات الصبيانية السخيفة والضرب كفاً على كف فى الحريم حين رويت هذه القصة . وتحدثن كثيرا وظهرت حدوتة هذه الفرنسية التى كانت تحلم بالزواج من مبروك.

لم تكن جميلة .. وقد أراح هذا جدتى وجوستان .. وربما أراح أمى ونرجس أيضاً .. ليس بها شىء يمكن أن يثير إعجاب أبى .. لا الأنف الطويل غير المتناسق ولا العيون قصيرة النظر ولا الشعر المنقوش ولا الملابس الفقيرة .. حتى أنا وكنت صغيرة لم تعجبنى. لم أكن أتصور فرنسية هكذا. لقد خيبت ظنى لذلك كنت غاضبة عليها .

وأسسوا لىّ ولها سكنا صغيرا . كنت معها .. فوق العربخانة أعلى القاعة ومنخفضة عن التراس وغير معروف فى أى الادوار. موقع مريح .. له مدخل مباشر على الحديقة والتراس وكانت حجرتها بجانب حجرتى وفى المساء الأول هربت منها.. لن أذهب لها .. على جثتى .. وبعدها بيوم أعلنت جموحى مرة أخرى .. لن أفتح فمى أمامها .. ادعيت أننى لم أفهم حرفا منها. حين عرف أبى .. أمر بأن تدرس ذكية وحدها مع المودموازيل ويتركوننى فى حالى .

غرت من ذكية السودانية الصغيرة. رأيت أمى تتحدث مع هورتان بالفرنسية على الغداء. غضبت من نفسى فتنازلت فى اليوم التالى عن موقفى المتشدد ووقفت وحيدة فى غرفة نرجس، حزينة وأنفى على الشباك مضغوطة. وضعت هى يدها على كتفى وسألتنى المودموازيل بصوت خفيض حزين : «ألا تحبينى شوية

صغيرة؟». لاحظت الدموع على خديها .. فلانت مقاومتي .. ورغم ذلك رفضت الاعتراف بالهزيمة ولجأت الى حيلة، وحتى تكون الأمور في يدى على الأقل سألتها : «هل تستطيعين القراءة؟». فأجابت وهي مندهشة : «إنني أقرأ الفرنسية» .. فقلت لها بلهجة آمرة : «إذن اقرئي لي ذات القبعة الحمراء» .. حين أطاعتني مدحتها .. وقلت لها ، أنت تقرئين جيدا .. وأحضرت لعبى لها .. وسألتها عن أوصافها بالفرنسية فأجابت .

كان هذا هو الدرس الأول الذى خلق صداقتنا .. وفق قاعدة أساسها: أنا آمر .. والمدموازيل تطيع.

لقد حاولت أمي في خجل ان تحرك هورتان كي يكون لها موقف حازم مني .. ان أمي نفسها لم تستطع هذا .. وكانت نرجس تضحك كثيرا على هذه المدرسة التى تطيع تلميذتها .. وفقدت المدرسة وجاهتها .. لكنها كانت تلجأ لي حين تسوء الخدمات .. كانت تطلب حمايتي .. تسألني أنا عما ينقصها ولا تذهب لأمي. كنت أتحدث مع الوصيفة والأغوات والجدة وكنت أهدد الجميع بالشكوى لأبى فأحصل على ما أريد لها .. فتشكرني بإفراط .

تعلقت بي، وتعلقت بها .. وتعلمت معها الفرنسية .. خاصة أن زكية كانت تنافسني وتسبقني بمراحل. كانت تتعلم بدأب. تشارك في كل الدروس . كانت الجارية الصغيرة جديرة بالاحترام . ولأن زمان في مصر، وعلى ما أعتقد في أوروبا أيضا، لم يكن هناك امكانية للبنات للدراسة في الجامعات ولكن ابنة الجارية استغلت الفرصة حتى صارت من أوائل المصريات اللاتى صرن مدرسات درجة أولى .

هورتان .. كان اسم المدموازيل ولها اسم ارستقراطى ولقب النبلاء وكان هذا أيضا سبباً لتقدير والدى لها .

في يوم أطلعتني على ألبوم صور ، رأيت قصرا ، وحدائق ، ونهراً وديراً للراهبات .. ومدرسة داخلية تعلمت بها مدموازيل هورتان ثماني سنوات من شبابها. ورأيت صور والديها وذكرت اسم عاصمة اسكندنافية عاش فيها والدها في عصر نابليون الثالث ..أبوها كان مهندساً .. عجوزاً أصلع له لحية بيضاء وأمها سيدة حزينة على صدرها صليب كبير .. لقد أنجبا هورتان في سن كبيرة.. وتوفي أبوها منذ زمن .. ثم صار أخوها كبير الأسرة .. إنه يعيش الآن في

باريس .. فى حين تعيش هى وأمها فى قصر العائلة فى مقاطعة ليموزين.

كانت عائلة متدينة ، كانوا يتعاملون فقط تقريبا مع القساوسة وآخرين متدينين ويقومون بأعمال للمنفعة العامة ، عاشوا بدون لذات دنيوية. وحين بلغت هورتان العشرين من عمرها عاشت قصة حب فاجعة .. قابلته فى صيف .. قضى أسابيع مع أخيها .. تغزل فيها .. وقبل أن يرحل طلب زواجها .. رأته هورتان شابا صغيرا .. فارسا .. جذابا .. وقعت فى حبه حتى أذنها .. أسكرتها السعادة شهورا طويلة .. لكن الزواج لم يتم أبداً .. فقد كان أخوها يدمن القمار .. استدان .. باع المزرعة والقصر .. والبيت الآخر فى باريس .. وخربت الأسرة .. بينما طلب الحبيب الضابط نقله إلى الجزائر .. واعتزلت أمها فى دير .. حتى ماتت .. وفكرت هورتان أن تتحول إلى راهبة .. أن تمنح الله قلبا طاهراً حراً وأن تحرق خطابات وصور حبيبها .. لكنها لم تستطع . فوقفت وحيدة فقيرة عليها أن تبحث عن لقمة عيشها .. وكانت ضد أن تخدم أسرة فرنسية .. فسافرت للخارج .. وأشار عليها صديق قديم لوالدها أن تذهب إلى القنصلية التركية فى باريس .. وعبر هذا الطريق جاءت إلى منزلنا على الخليج فى القاهرة.

هل كنت فى الماضى قاسية ؟ أم الذنب يقع على أنانيتى أو عدم خبرتى الطفولية لأنى لم أشفق على فاجعة حب مدموازيل هورتان ...؟

لم أفهم مشاعرها .. لم أعرف كيف يمكن أن تتحول الشابة المملوءة بالحيوية إلى عجوز فى سن مبكرة .. وكان لابد أن أمر فيما بعد بتجربة من نفس نوع تجربة هورتان كى أعرف ما الذى عانت منه.

لقد ماتت فى القاهرة ذات صيف . لا أعلم نوع الألم الذى عذبها أمامى هكذا. أحضرت لها القسيس بنفسى بناء على رغبتها .. جلست على سريرها والدموع تنهمر منى .. كانت تهدىء من روعى وتقول إنها سعيدة لأنها سوف تصل للسماء قريبا.

إننى مقتنعة تماماً أنها احتفظت بحبها صادقا فى قلبها حتى موتها . لم تتحدث معى مطلقا فى هذا . لكنى كنت أدخل عليها فجأة دون أن أطرق الباب فأراها تسرع بإغلاق دولاب صغير .. أعرف أنها تحتفظ داخله بخطابات وصور وذكريات الفارس الذى أحبته .. حطام سفينة حبها ..

ولقد علمتنى الكثير . الكثير الذى يجب أن أشكرها عليه . علمتنى لغتها ..

علمتنى الرسم . علمتنى الموسيقى . علمتنى التطريز . علمتنى الاتيكيت . كل شىء يجب أن تتعلمه فتاة صغيرة مؤدبة . لكنها لم تستطع أن تخفف من حدة عنادى .. فقد كنت أنا التى آمرها . إلا أنها وسعت مداركى . جاءت من عالم آخر . فيه نساء من نوع مختلف .. علمتنى دون أن أعى ذلك كيف يمكن أن أغير قدر النساء.. وحين كان على أن أتحمل مصيبتى بنفسى جعلنى ما تعلمته منها أرى أهدافه بوضوح . لم أكن ضعيفة . ولم أرد أن أسلم نفسى من البداية .. كما فعلت.

كان والدى منذ مرضى يعاملنى بتسامح عظيم بالرغم مما هو معروف عنه من شدة وحزم .. كان إذا زاره أحد يسمح لى أن أجلس وأضع كتابا على ركبتى فى ركن من البلكونة . أسمع أحاديثهم السياسية الحادة وكلماتهم عن السلطان عبدالحميد والملكة فيكتوريا والقيصر الالمانى .. كنت أتصور أن تلك الشخصيات التى يقرأون عنها فى الجرائد مثل شخصيات أساطير الكتب التى أقرؤها . وفى يوم سمعت من أحد ضيوف أبى قصيدة أعجبنى عذب لحنها .. قلت له بعد أن غادر الضيوف بيتنا إننى أريد أن أكتب قصيدة مثلها .. ضحك .. قال لى : كم عمرك الآن ؟ قلت له : ثمانية أعوام ونصف عام .. وعندى ثلاث أسنان جديدة .. فضحك مرة أخرى وقال: سوف أبحث لك عن مدرس للغة العربية .

جاء المدرس . اسمه الشيخ ناصف . طالب فى الأزهر . لم يكن صغيرا . كانت لديه زوجة وأولاد . يضع نظارة ذات اطار معدنى. لا يبتسم أبدا. لم أجرؤ على العزف له كما كنت أفعل مع الأستاذ حفنى . بل إنه ضربنى ذات مرة بالمسطرة على أصابعى. لم أحبه . لكنى تعلمت منه . كان يدرس لى النحو والحساب .. بينما الأغا كوتشوك يغفو فى ركن الحجرة .

علمنى كلمة البحر . أيقظت فىَّ اللهفة .. وحين ناقشته عرفت أن هناك شيئاً اسمه الجغرافيا .. كانت أسماء المدن الرائعة تثير فىَّ الفضول .. باريس ، روما ، لندن .. حتى الاسكندرية التى لم أرها .. أثارتنى .. انها مدينة على البحر .. تبحر منها السفن إلى البلاد البعيدة .

اننى حتى الآن لم أسافر إلا إلى طنطا . كنت مع أبى وجدتى وأمى وخالاتى نزور شيخ العرب السيد البدوى. سافرنا فى القطار .. لم أكن أرغب فى أن أغادره .. أريد أن أكمل إلى الاسكندرية .. بوابة العالم .. ونزلت بعد أن وعدنى

أبى بزيارة صيفية للاسكندرية.

ومر شهران ، ولم يبدأ الشيخ ناصف دروس الجغرافيا كما طلبت من أبى . استفسر منه أبى عن السبب فقال له انها أوامر جدتى . لقد أمرته أن يعلمنى فقط دروس الحساب لكى يفيدنى فى ادارة شئون المنزل، واللغة العربية لكى أفهم القرآن . وكان الشيخ ناصف يؤيد هذا تماما . وقال له أبى : لكن يا شيخ ناصف الجغرافيا تعرفنا على خلق الله .. والله نفسه يتحدث عن الجغرافيا .. ألم يقل القرآن إن الله رب المشرق والمغرب ؟.. ويجب أن نتعلم رمزة هذه المعانى والألفاظ. أطاع الشيخ أوامر أبى كارها واشترى لى أنا وزكية أطلسا عربيا قديما متخلفا تركنا نبحث فيه أنا وهى عن مدن مصر .

وكانت المدموازيل هورتان ملجئى .. ذهبت لها لتعلمنى الجغرافيا من كتب الرحلات التى أحضرها أبى من باريس.

الشيخ ناصف كان له نصيب آخر . إذا ما انتهى الدرس .. وعند العصر كنا نطلب منه إلقاء قصيدة .. كان دائما مستعدا لهذا . إنه يحفظ المئات من القصائد عن ظهر قلب.. ويستطيع أن يشرح بمهارة كاملة كل الأبيات الصعبة من الشعر العربى القديم والتى تتغنى ببطولات المحاربين وأقدار الأمراء المطرودين ، وكان يتلوها بصوت ذى لحن جميل، وكنت أنصت بعيون لامعة. فى هذه اللحظات كنت أعجب كثيرا جدا بالشيخ ناصف .

ذات يوم قلت له: أنا أيضاً أعرف قصيدة ، وألقيت عليه قصيدة عائشة التيمورية التى تتحدث عن امرأة بالحجاب .. ولكنها مثقفة . سألنى الشيخ بوجه عابس: من أين عرفت هذا؟ .. فقلت له: من أحد ضيوف أبى .. كنت أردد دون أن أعى ما أقول.. ولكن الشيخ ناصف كان يرى أننى ينقصنى الحياء . وكان يرى أن هذه هى نتيجة امتلاء رأسى بالعلم . وأقسم يومها ألا يعلم ابنته القراءة .. وقال لى : سوف أقول لجدتك عن هذه المصائب التى تتعلمينها .. قلت له : إن مدموازيل هورتان تعلمنى الفرنسية وسوف أذهب إلى باريس . لم يرد على وكان يغلى من الغضب.. كان يظن، كما أقنعته، أن تلك هى خطط أبى لى فلم يجرؤ على أن يتفوه بشىء .

فى الخريف التالى دخلت المدرسة السنية .. ولم أر الشيخ مرة أخرى .

٤ – شغف الكتب

وكان دخولى المدرسة حدثا احتاج نقاشا عدة شهور .. جدتى رفضت.. رأت أن العلم الكثير للفتاة ضد الأخلاق .. أمى، بتدعيم مدموازيل هورتان، اقترحت مدرسة للراهبات .. واختارتا «المير دى ديو» .. كانت فى حى الاسماعيلية الجديد .. بعيده إلى حد ما عن بيتنا الذى يطل على الخليج .

كان أبى يؤيد تعليمى تماما. خاصة أن صديقه الشيخ محمد عبده – الذى سيصبح مفتيا لمصر فيما بعد – كان يشجع تربية الفتيات المسلمات فى المدارس . كان يعارض باسم العدالة كل من يعامل المرأة على أنها مخلوق أقل . وكان يرى أن هذا هو أساس تجديد الأمة. ولكى يكون قدوة أرسل بناته إلى المدرسة السنية الشهيرة .. فأقنع أبى الذى كانت قراراته فى المنزل لا تناقش .. ودخلت أنا وزكية المدرسة. كنت سعيدة بهذا التحول فى حياتى.

كانت المدرسة قريبة من منزلنا ، وكنت فى العاشرة ، أصحو مبكرا، تصحبنى هورتان مع أحد الأغوات. كان العجوز كوتشوك وبعد أن مات أصبح العجوز مبروك وهو فى عمر كوتشوك نفسه .. وفى اليوم الأول قفزت من البوابة للخارج وكأنى أهرب من أسواره العالية.. ومن جدتى العجوز التى صارت ضعيفة جداً ومشاكسة جداً .

إن للمدرسة نظاما صارما . وكنا نحترم مديرتها الانجليزيه تماماً .. ولم أشك أبداً من هذا النظام .. وكان أبى يندهش .. كيف أكون فى البيت وحشاً غير قابل للترويض وفى المدرسة تلميذة نموذجية درست فيها لمدة خمس سنوات . كنا نقضى اليوم كله فيها .

كنا ندرس بعدة لغات .. التركية ، والفرنسية ، والانجليزية، والعربية. كانت الانجليزية جديدة علىّ ولذلك تعلمتها بسرعة . وكانت المربيات فى الموسيقى والرسم والغناء إيطاليات .. وكانت هناك سويديه مفتولة العضلات تلقننا حصص الرياضة البدنية .. وأخرى سويسرية تدرس لنا التدبير المنزلى .. وكنا نحن التلميذات نتبادل الجاتوهات التى صنعناها بأنفسنا. كما كنا نتنافس فى توجيه الدعوات التى كنا نرجو من مدرساتنا تلبيتها .

كان هناك بيانو.. كان يسمح لنا بالعزف عليه فى الاستراحة .. وكانوا يمدحوننى لدقة عزفى، وكان الفضل يرجع لدروس أمى فى البداية.. زميلاتى أحببننى لهذا .. وأحببننى أكثر حين ألقيت الشعر .. بل إنه بسبب قصيدة غير معروفة للبارودى ألقيتها فى الفناء صرت مشهورة أكثر .. ودفعنى هذا لأن أنقل من كتب أبى فى كل يوم قصائد عربية ، وفرنسية أو تركية مختلفة؛ ألقيها فى اليوم التالى بين زميلاتى.

ونشأت دائرة أدب شبه رسمية أسستها تلميذات الصفوف العليا. كنا من وقت لآخر نجتمع فى المكتبة التى تمتلىء بالجرائد الأوروبية نقرأ الصحف الانجليزية ونعلق بجدية .. ونقرأ التعليقات الأدبية ونناقش المسائل السياسية والاجتماعية .. وكنت ألخص بعض كتب أبى لزميلاتى .. وأحيانا كنت آخذها سرا إلى المدرسة أضعها فى ورق أزرق مثل كتب المدرسة وكانت أعمال «چون ستيوارت ميل» عن اضطهاد المرأة لها نجاح عظيم عندنا، ولأنها ساهمت فى اشتعال الحركة النسائية .

فى اليوم المدرسى الأول كان لى مكان فى الفصل بجانب فتاة أكبر منى فى السن، وأقل تحرراً.. اسمها بهيجة .. كنا مختلفتين فى كل شىء . كنت نشيطة وهى هادئة . كنت أتكلم كثيرا وهى صامتة.. ورغم ذلك صرنا صديقتين .. تتبعنى كظلى رغم ان مناقشات المكتبة لم تكن تهمها.. حتى حين كنت أعزف على البيانو تكون هى بجانبى تعزف على العود. كنا نؤلف حفلات موسيقية.. كانت تطيعنى بثقة عمياء.

لقد كانت بهيجة تعيسة.. أمها ماتت .. أبوها تاجر خشب ثرى .. من حى شبرا .. أرسلها للقسم الداخلى فى المدرسة السنية ليتخلص منها .. كان يود الزواج فى الشتاء التالى. لم تغفر لوالدها ذلك.. قالت لى بهيجة هذا سرا وكانت عيناها تدمع وقد عرفت منها كم تكره زوجة أبيها .. كانت تبتكر الحجج كى لا تذهب إلى البيت رغم أنها كانت تفتقد الحديقة الكبيرة الجميلة .. وأخاها ماهر الذى يكبرها بعامين والتحق بالاكاديمية العسكرية. كانت مرتبطة به، وكانت تحتاجنى لحمايتها وقيادتها.

فى الاجازات كنت أدعوها لبيتنا . كانت تعجب أبى . فتاة جادة رقيقة .. ولم يعترض أبوها على هذه الزيارات . وكان يدعونى فى المقابل إلى بيته فأذهب معها كارهة .. فقد كرهت أنا أيضاً زوجة أبيها ..

هناك قابلت أخاها ماهر لأول مرة . كانت المناسبة دعوة بهيجة لمدرساتها وزميلاتها . فى نهاية العام الدراسى الأول ذهبت أعاونها .. أسرعت إلى المطبخ لأحضر شيئاً .. فكدت أصطدم بالشاب الصغير .. تقهقرت مفزوعة. وعاد هو خطوات للخلف .. مكثنا ثوانٍ صامتين .. كان وسيما جداً .. كان مفهومه لنا أنه من غير المسموح ان نتحدث معاً .. مشيت من أمامه .. وحكيت ما حدث لبهيجة .. فقالت: هذا هو أخى ماهر .. لم تقل أكثر .. تسللت مرتين للمطبخ بحجج مختلفة .. لكنى لم أقابل ماهر .. وانتهى الاحتفال .. وتسكعت قليلاً .. ثم عدت إلى بيتنا بصحبة زكية ومدموازيل هورتان .

حين تحركت عربتنا رأيته مرة أخرى .. زيه الرسمى الأسود جعله أكثر جمالا .. ألقى علىّ نظرة .. أقنعت نفسى أنه أراد أن يرانى مرة أخرى . أعطانى هذا إحساسا بالفخر .

بهيجة كانت تثنى على أخيها كثيرا . تحكى لى كيف يعاملها بكرم واهتمام خاصة بعد موت أمها. حدثتنى عن ذكائه .. قلبه الناعم .. ثم أضافت : «ماهر كلمنى عنك أخيراً ، إنه يرى انك جميلة جداً ، لقد قال لى انك على الاقل فى الخامسة عشرة» صعد الدم إلى وجنتىّ .. نهضت مسرعة أدارى ارتباكى .. ثم أمسكت يدى بهيجة ونحن نتمشى فى الحديقة .

مر الوقت . لم يعد مسموحا لى الخروج بدون حجاب .. إننى الآن فى الرابعة عشرة .. حتى السلاملك عند أبى ، أو مكتبته لم يكن مسموحا لى بدخولها .. كان لابد أن يمر الأغا أولاً قبلى ليتأكد أنه لا يوجد رجال . كانت المكتبة تسحرنى .. كتبها والاحاديث التى تدور فيها .. لكنى لم أعد أدخل .. كنت أختفى خلف الباب .. وأحياناً أفتح ضلفة منه كى أسمع بوضوح .. أصوات الشيخ محمد عبده والذى قام بإعادة اصلاح جامعة الازهر فى عصره ثم أصبح مفتياً وقد حركت أفكاره العالم الاسلامى كله ، وأصوات الشعراء.. شوقى واسماعيل صبرى .. وشاب له ضحكة رنانة تعجبنى؛ إنه البرنس حيدر على.

ذات مرة وحين كنت فى السادسة عشرة اجتذبتنى مناقشة حامية .. كدت أتركها خشية أن يكتشفنى أحد .. لم أستطع .. سمعت كلاما عن اتاحة الفرصة لتعليم السيدات .. ومنحهن نفس حقوق الرجال وتحريرهن من الحجاب ، وتغيير قوانين الزواج، وألا يسمح بزواجهن دون إرادتهن أو يطردن دون سبب . كنت

أتمنى أن أرى وجه المتحدث الشاب .. فى اليوم التالى دخلت المكتبة فوجدت على مكتب أبى كتاب تحرير المرأة .. وعرفت أن صاحبه هو صاحب الصوت .. قاسم أمين .. الاسم الذى لا ينسى . لقد كتب بيده إهداء لوالدى .. افتخرت بهذا وكأن الاهداء لى .. فى اليوم التالى حكيت لزميلاتى عنه .. فلم يعرفن شيئاً عن الكتاب .. لكن كثيرات منا اشترينه .. وحفظته بعضهن عن ظهر قلب .. وصار ترسانة لأفكارنا .

فى هذا الوقت كنت أقرأ كل شيء .. ألتهم الروايات الانجليزية .. والفرنسية .. وأطلق لخيالى العنان .. وأتمنى أن أكون احدى هذه البطلات .. انهن يتنزهن برغبتهن مع الشباب .. ويرقصن الفالس فى صالونات متسعة مضيئة .

فى هذا العمر الذى احتجت فيه أمى فقدتها.. اندشا الرقيقة الحبيبة. لم تغادر غرفتها منذ فترة طويلة . كانت تتمنى أن أكون بجانبها .. وبالرغم من تأكيدها على سعادتها. لم أكن أحسدها عليها ولم أكن أتمناها لى بأى ثمن . وبعد شهر من موت أمى . ماتت أيضاً جولستان زوجة أبى الأولى . وجدوها ذات صباح متصلبة باردة فى سريرها.. وكما لو كان ملك الموت يحوم حول منزلنا فى هذا العام .. وفى الشتاء التالى ماتت جدتى .. كنت قد تصالحت معها قبل موتها بقليل .. وفوجئت بها تأتمننى على والدى وأنا لم أصل حتى الخامسة عشرة من عمرى. كانت تطلب منى أن أهتم بطعامه وشرابه وملبسه .. هذه الأشياء التى لم تعهد بها لأحد.

وصرت صاحبة وظيفة جديدة .. بعد أن ماتت الثلاث .. وبعد أن نقلنا إلى بيت جديد ..

صار الحى مليئا بالناس .. مزدحما .. مزعجا بعد أن ردموا القناة .. وكان أبى الذى صار عضوا فى البرلمان مهتما بأن يقيم قرب قصر القبة .. مقر الخديو عباس حلمى .. فانتقلنا إلى حى القبة الجديد والذى يقع بالقرب من الفلاحين.. بعد أن حصل أبى على قطعة أرض كبيرة بني عليها منزلا حديثا .. به حديقة من قسمين .. قسم للرجال وآخر للنساء . ويبقى الحرملك منفصلا عن السلاملك وأخذنا من المنزل القديم الأثاث، وتقريبا كل عاداتنا، الى المنزل الجديد . وبالرغم من أنه كان مريحا ، إلا أننى لم أنس مطلقا منزلنا القديم والذى ارتبطت بذكريات طفولتى فيه .

من كل نساء أبى لم تبق سوى الخالة .. نرجس .. كانت سيدة سليمة البنية .. مرحة .. حيوية .. لا أخاف منها مطلقا .. نتشاجر كثيراً .. ثم نتصالح .. دون أنْ نفقد مودتنا . أما هورتان فلم يكن فى حياتها سوى ربها وأنا .. إذا لم تكن فى فى المطبخ أو فى غرفتها تصلى .. فهى معى تهتم بى .. وهكذا لم يكن هناك أحد .. بعد موت جدتى .. يلجم نزعتى الاستقلالية .

قبل موت جدتى تزوجت بهيجة .. للدقة زوجوها من تاجر ثرى سكندرى .. وفى يوم عقد قرانها كنت هناك معها فى غرفتها مع عشرات النساء .. كن يحدثن ضجيجا عاليا حتى أننا لم نعرف أن الشهود جاءوا لأخذ موافقة بهيجة .. .. الشهود صفقوا عدة مرات بالأيادى .. وعندما فتح الباب كان أغلب النساء غير محجبات . التى رأتهم أولا صرخت .. غطت وجهها بكفها واندفعت بعيداً .. أما الباقيات فألقين بأنفسهن فيما يشبه المهزلة .. وضعن خرقات على الرأس .. وبعضهن اختبأ .. خلف الأثاث .. بينما اكتفيت أنا بأن أبقى بجانب السرير الذى كنت بجانبه .. لحظتها .. رأيت ماهر فى ملابسه العسكرية .. احمررت خجلا وغضبا .. لأنه فاجأنى هكذا فى وضع مضحك . وجعلنى هذا بقية المساء متعكرة المزاج .

فى هذه الأجواء سمعت هموم بهيجة . حدثتنى عن أنها وافقت على الزواج دون رضاها . لم تر الزوج القادم . أخوها وصفه لها .. متحفظ وغامض .. وهى تصورت أنه عجوز وسمين وأصلع وقبيح .. وقذر . كانت متيقنة أن أباها زوجها من أول رجل طرق الباب كى يتخلص منها .

قلت لها : لماذا وافقت ؟ قالت : أنت لا تعرفين أبى. قلت لها : لماذا لم تقولى لا للشاهدين .. لماذا لم يتحدث ماهر نيابة عنك ؟ ردت : لو فعل لكان أبى قد قتله .

كانت تجلس فى فستان الزفاف المصنوع من الحرير الأبيض على كرسى بمسند تشبه كومة من البؤس ، تجفف دموعها بمنديل . استسلمت لقدرها كما فعلت أمها ، وكما فعلت كل نساء مصر قبلها ، كنت أرغب فى شتمها.. لكنى كنت مشفقة عليها .. لم أستطع أن أساعدها فكيف ألومها .. لكنى أقسمت ألا أكون مثل بهيجة .

تذكرت مسرحية شاهدتها منذ سنوات من خلال لوچ حريمى عليه قضبان مع مدموازيل هورتان .. انها معالجة عربية لمسرحية روميو وچولييت .. ليلتها أقسمت

لو حدث لى مثل ما حدث لبهيجة سوف أقتل نفسى مثل چولييت .. لن أربط حياتى بسلسلة مع رجل لا أحبه ..ولم أكن أدرى أن قدرى يشبه قدر بهيجة .. وأننى على وشك الوقوع فى المصيدة .

الفصل الثالث

المصيدة

١ ـ مدحت

منذ ماتت جدتى اعتاد أبى أن يأخذ قهوته كل صباح فى مسكنه، كنت أنا التى أخدمه.. يستيقظ فى السابعة، يدخل الحمام.. يصلى.. يقرأ بعض القرآن.. وفى تمام الثامنة يدخل صالونا صغيرا أعد فيه الإفطار: صينية من الفضة عليها مربى وعسل وقشدة وجبنة.. كنت أسبقه إلى هناك كى أصب له القهوة.. وعندها يطلب منى أن آخذ مكانى أمامه وأفطر معه.

بعد ذلك كان يقرأ الصحف ومجلات عديدة اشترك فيها.. وإذا ما صادف مقالا أو قصيدة أعجبته كان يقرأها لى، أو يطلب منى قراءتها. وأراه حتى اليوم أمامى يستمع باهتمام شديد إلى الالياذة التى ترجمها البستانى للعربية، أو عندما يشرح خصائص أدب چاسكى.. وهكذا اتسعت معلوماتى فى الأدب والتاريخ. كنت أحبه.. نتبادل الأفكار.. يناقشنى.. فنقضى ساعة ممتعة معا.. كل يوم.. واقترب كل منا من الآخر أكثر.. وكانت هذه الساعة تنتهى فجأة حين ينظر أبى فى ساعته فيجد أنها اقتربت من التاسعة، موعد بداية عمله، وأحيانا يقطع منتصف الجملة ويستأذن .

ذات صباح، وبينما كنت أقوم بانشغالاتى العديدة، حضرت خادمة وطلبتنى إلى خالتى نرجس. أردت أن أنتهى مما فى يدى أولا.. فجاءتنى الوصيفة نعمات.. ألبستنى فستانا جديدا، وسرحت شعرى، وساعدتنى فى ارتداء الحذاء وصحبتنى إلى خالتى دون كلمة واحدة .

كانت نرجس بصحبة سيدة بدينة، أخذت تفرزنى طوال الوقت.. بلا كلمة.. كنت أجلس أمامها متصلبة صامتة.. لم أطلب توضيحا.. كنت قد اعتدت على مناورات الحريم.. وكنت قد أدركت أن هناك محاولة للزواج تتم على قدم وساق.

السيدة اسمها خديجة. أرملة.. تكسب قوت يومها من العمل كخاطبة، كانت تقومنى مثل تاجر خيل يقوم مهرة.. كانت من قبل تحسب ثروة أبى.. وثروة العريس.. وتعرف أنها ستأخذ حوالى ١٠٪ من هدية الخطبة.. ومن كل هدية أحصل عليها . وكانت تعرف أن هذا العمل سيجعل لها قدماً فى بيتنا.. وتحصل

على قطع ذهبية فى الأعياد . ربما أيضا حصلت منا على معاش حين تكبر فى السن.

فى الخارج قلت لخالتى: ما الذى يحدث..؟ هل تظنين أننى سأقبل بالزواج من أول رجل يأتى ؟.. قالت: «سوف توافقين.. كل البنات يفعلن ذلك» ، وأضافت : «هل لأنك ذهبت إلى المدرسة تعتقدين أنك تستطيعين التمرد على عاداتنا..؟ أنا مسئولة عنك.. وسوف تقبلين.. وإلا سأخبر والدك» . قلت لها : أنا الذى سأخبره بنفسى ، إنه لا يفكر فى زواجى.. أنا لست جارية.

تشاجرنا بحدة ، وتصالحنا كالمعتاد ، وقبلت كل منا الأخرى ، وضحكنا ، قالت لى: اسمعى، لقد عرفت كل شىء عن هذا الشاب، وسوف أعرف أكثر.. وأعدك بأن أحصل على صورة له، أنا لا أريد لك أن تكونى تعيسة.. ولكن لا تعاندينى، لا تظنى أن أباك سيوافقك لأن لديه أفكارا أوروبية.. أنا أعرفه أكثر منك، ثم إنه ربما يعجبك هذا الشاب .. سيكون لك بيت.. تأمرين فيه.. تلبسين ما تريدين.. تتنزهين متى أردت.. وإذا لم يعجبك سوف نرفضه.

كنت فى السادسة عشرة ولم تبذل مجهودا كبيرا لتغيير رأيى، كما أن خطط الزواج لا تتبخر دون أحلام جميلة ، لا يمكن لأى فتاة أن تقاومها . وبقيت على حذرى . عدم الثقة القديم ! وهى قالت لى : لا تخبرى أباك .

قرأت عدة كتب عن الزواج ، قرأت موليير فى كتابه «مدرسة الزوجات» والتهمته بشدة ، وجدت غباء «أنِس» يدعو للسخرية ، وأقسمت أن أتزوج رجلا يعجبنى.. ثم وضعت الكتاب عن عمد على المكتبة ولم يعلق أبى بكلمة واحدة .

فى اليوم التالى نادوا على مرة أخرى ، حضرت الخاطبة ومعها أربع سيدات أخريات ، ومن عتبة الباب شعرت بنظراتهن لى.. ابتسمت الخاطبة ابتسامة المنتصر الأكيد.. ولعبت أنا دور إحدى شخصيات موليير أنِس. اقتربت بخجل أقبل يد خالتى.. وكنت أنحنى أمام كل زائرة.. ثم جلست فى مقعدى كالعمود.. مشبكة الأيدى ، نظرى إلى الأرض ، لم أجرؤ على النظر إلى نرجس.. وإلا كنت قد ضحكت بصوت عال على هذه الكوميديا الصغيرة .

جاءت خادمة بالقهوة ، صينية عليها الفناجيل وكنكات القهوة .

قالت خالتى : قدمى القهوة يا رمزة..

أجبت فى طاعة : حاضر يا خالتى.

قدمت القهوة كما تفعل أى فتاة ماهرة فى مثل هذه الظروف، ثم جلست مرة اخرى.

قالت خالتى: يمكنك الآن أن تذهبى يارمزة.

أجبت بالطاعة نفسها: حاضر يا خالتى..

ثم انحنيت عدة مرات أمام النساء فمنحونى هذه المرة ابتسامة كريمة. خلف الباب اصطدمت بالوصيفة العجوز نعمات، أمسكت بها وحركتها فى رقص صامت، كانت تحبنى ولكنها لاتظهر ذلك، هددتنى بقبضة يدها، أسرعت هربا منها.. ثم عدت خلسة دون أن يرانى أحد.. لأتابع مايحدث.. وفاجأت نعمات وهى تحرق الملح فى موقد الحجر.. إنها طقوس معروفة هدفها أن تأتى النساء مرة أخرى.

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت نارا وملحا أخر.. وأنا أسخر منها.. بينما هى تحاول أن تبدو جادة.

بعد أيام عرضت نرجس على الدموازيل هورتان صورة العريس، وعرضتها علىّ أيضا.. لقد تم هذا سرا.. فهذا ممنوع.. كان جميلا.. له شارب على الموضة عمره حوالى ٣٥ سنة، تقول الخاطبة إنه من أسرة مرموقة، اسمه مدحت.. اسم نادر فى مصر.. ومع ذلك كررته عدة مرات.

إن مدحت صفوت درس عدة سنوات فى باريس، وعاد بدبلوم فى الهندسة، ويقال إنه مكلف ببناء كوبرى على النيل من الجيزة إلى القاهرة، وما لفت نظرى وشغفنى أنه ينوى القيام برحلات كثيرة.. ولهذا هو يبحث عن فتاة صغيرة مثقفة تستطيع أن ترافقه فى مصر وفى أوربا وربما فى أمريكا.

كنت أريد أن أعرف كل شيء عنه، هل سيؤثث لى بيتا مثل بيوت أوربا، هل يحب الموسيقى.. هل سيحضر لى بيانو.. هل عنده كتب.. هكذا وضعت نفسى فى المستقبل.

وفى صباح يوم جميل كان الحريم على قدم وساق، الكل يعمل.. المطابخ مزدحمة.. الوصيفة والخادمات يفرشن المائدة الكبيرة.. حركة مستمرة.. سألت: ما الذى يحدث؟.. فتلقيت إجابات متهربة، كلهن صمتن حين اقتربت منهن.. حتى هورتان كانت تعمل سرا.. ومن خلف مشربية راقبت وصول الضيوف، دون مجهود عرفت النساء اللاتى زرن بيتنا من قبل، نساء من كل حجم وشكل، إننى أعرف أنه

فى مثل هذه الأحوال تحضر كل نساء حريم العريس ليبدين رأيهن فى زوجة الابن القادمة.

لم يسمح لى بأن أشاركهن الطعام.. وفى حوالى العاشرة طلبونى.. عانقتنى خالتى نرجس وقدمتنى لهن، اهتمت بى هانم نحيفة.. قامت ووضعت بروشا من الماس على صدرى، ثم قبلتنى، والتف الجميع حولى يهنئوننى، وأغلقت المصيدة علىّ.

إن البروش مثل رباط قيدنى بأم مدحت.. كنت غاضبة.. ورغم ذلك سعيدة بالماس لأنه فخم، اشترونى إذن، ولم تفلح كل أساليب العناد، وبدأت عجلة الزواج فى الدوران، أحضرت مدموازيل هورتان ماكينة خياطة سنجر وبدأت عمليات التطريز.. مناديل يد، مفارش، ملايات سرير، بونبنيرة، وأشياء أخرى.

ذات يوم عادت هورتان منفعلة من زيارة خارجية مع نرجس، قابلت مدحت، وصفته لى، إنه كبير، له شعر كستنائى، وعيون زرقاء، تحدث معها، سألها عنّى، تمنى أن يرانى دون أن ينسى القول إن هذا مستحيل حتى يتم عقد القران.. طلب أن نشرب الشاى معا فى رعاية مدموازيل محترمة مثل هورتان، وقالت لى إنه سوف يزور أبى غدا.. سيكون معه رجال كثيرون، لكنه سيضع وردة حمراء فى الچاكتة كى أعرفه .

اختلست نظرة عليه من المشربية، صدق وصف مدموازيل هورتان، مع استثناءات قليلة، تصورت أن أبى بسبب تفكيره الأوربى وآرائه الليبرالية سيبحث معى أمر زواجى، لكنى عرفت أن نرجس كانت على حق، لم يحدثنى حول هذا الموضوع بكلمة واحدة، كل الذى فهمته من خالتى أنه طلب من مدحت أن نعيش بالقرب منه، وألا يتعجل الزواج.

أنا أيضا لم أكن متعجلة، كلما تأخر الوقت كلما كانت هناك احتفالات أكثر، وهدايا أكثر، وقد حصلت بالفعل على هدايا كثيرة، أسرة عريسى لم تهتم بالتكاليف.. وفى ذلك الوقت كانت هناك محلات جديدة تفتح أبوابها.. فستان أحمر من عند «بسكال».. چاكت رياضى من عند «دى روچ» شمسية صغيرة من الكتان الأبيض بحشو من البنفسج من «عمر أفندى».. كنت أعرف هذه المحلات من خلال رحلاتى النادرة إلى المدينة.. أمر عليها وأراها من العربة.. لم أدخلها.. وكذلك لم تفعل أى فتاة صغيرة فى المجتمع الراقى الماضى.

كانت بائعات هذه المحلات يأتين إلى بيتنا مع نماذج من البضائع.. وبمرور سنة كان هناك جيش كامل منهن يتتابع على منزلنا فى القبة.. إن تجهيزى كان فى حاجة لذلك.. كان والدى يشاورنى ويأخذ رأيى فيما أشترى.. وكان ذلك يحدث بالمصادفة البحتة بأن يقول أنا وجدت ذلك الكتالوج على مكتبى دون أن يتحدث عن الزواج.

فى هذه الأيام تسليت برؤية المنجدين.. عروس من منزل عريق مثلى لابد أن تذهب إلى بيت زوجها خمسون ملاية وعدد مناسب من الأغطية.. ودستة من المفروشات الحريرية المطرزة بالخيوط الذهبية وأخرى من القطن فى لون الباستيل.. كان مسموحا لى أن أختار ألوان المفارش والأقمشة والملاءات والملابس الداخلية.. ورغم ذلك تشاجرت كثيرا مع نرجس بسبب اختلاف أذواقنا.. وفى النهاية كانت تتراجع.

كلما اقترب يوم «كَتْب الكتاب» زاد النشاط فى الحريم.. وجرت العادة على أن العروسة ليس لها شأن بهذه الأشياء ، وإنما تتركها لقريباتها من الإناث، اشترين لى أحسن فساتين الزفاف من عند التاجر «موهاردى» وتاجاً لرأسى من زهر البرتقال على الموضة الفرنسية.

انقضى شهر محرم أثناء هذه التجهيزات وقبل ظهر أحد أيام مارس المشمسة كنت أجلس مع هورتان فى الشرفة نطرز مفرشا للسفرة، ونتحدث، ونحن نلقى نظرة من حين لآخر على الفناء.. لاحظنا أن جميع الخدم كما فى الأعياد.. يبدون فى أحسن ملبس.. بشال كشمير على الأكتاف.. اصطفوا على الجانبين بأمر من الأغا.. وفتح جناحا الباب الكبير.. وظهرت فى المقدمة عربة مزينة بالورود.. وعليها ثلاث سمكات.. طول الواحدة متر.. ومن كل أركان المنزل تسللت الزغاريد.. ورأيت يد نرجس تخرج وهى ترمى بقطع من الفضة فى الفناء.. ثم دخلت عربة أخرى مزينة أيضا، وعربة ثالثة.. حتى وصل العدد إلى عشر عربات.. تراصوا فى الفناء.

أسرعنا إلى نرجس..

من أين تأتى كل هذه الأسماك؟

قالت: إنها أول هدايا زفافك يا ابنتى..

أول.. كم عدد الذى سيأتى بعدها إذن.. هل علينا أن نأكل بقية عمرنا سمكا.. سألتها..

فقالت: العربات القادمة محملة بالفاكهة.. ثم انبعثت من المنزل رائحة الثوم المقلى وزيت القلى.. كان لدينا سمك يكفى الحى كله.. أرسلنا منه إلى كل الجيران.. بل وإلى أقارب جدتى فى قصر الخديو واستمتعت الخادمات فكن يحصلن على صينية مليئة بالحلويات بالإضافة إلى القطع الذهبية.. ولأننى أول ابنة تتزوج فى الأسرة فقد اعتبروا أن أشواك السمك جالبة للحظ والتفاؤل.. ولهذا احتفظ بها عدد كبير من نساء الأسرة التى عندها بنات فى عمر الزواج .

بعدها وصلت عربات هدايا الفاكهة، فى السلات المزينة بالورود، كان هناك برتقال من يافا، وفراولة من الجزيرة، والكريز الذى لم نأكله من قبل، وسرت ضحكات عالية بينما بقع الكريز تغطى ملابسنا ورائحة السمك المقلى تملأ أنوفنا.

وصل أبى، ألقى علينا نظرة قصيرة ثم مضى.. كان مهموما.. الأغا مبروك طلب نرجس.. بعد لحظات ركبت عربة مع الوصيفة وغادرتا إلى مكان غير معلوم، تعجبت، بدون نرجس لن يكون للسمك والكريز طعم.. طارت البهجة، ومضينا نلف فى المنزل بدون هدف.. ولم أجد أبى فى مكانه.. ولم يعد على العشاء.

فى اليوم التالى قدمت لأبى القهوة.. ورغم فضولى المشتعل لم أقو على سؤاله.. بعدها خرج.. وحين تناولنا الغداء جرى هذا فى صمت حزين.. وحين دخلت غرفة نرجس وجدت الوصيفة تحضر لها ملابس الحداد التى ارتدتها يوم وفاة جدتى، قلت لنعمات: أخبرينى.. هل مات أحد؟

وبدلا من أن تجيبنى أخذتنى بين ذراعيها وتنهدت.. «ياربى.. نعمات.. أخبرينى من مات.. أين نرجس.. أين أبى».

أخيرا، عرفت.. مدحت هو الذى مات، كانت صدمة فظيعة لى، لم أحبه حبا حقيقيا .. لأنى لم أعرفه.. لكن موته صدم خططى للمستقبل.. كل شىء انقلب رأسا على عقب.. هربت الدموع من عينى.. قالت: لماذا مات مدحت صغيرا؟ عرفت أن مغصا فاجأه، لم تشفه الأعشاب.. ساءت حالته بسرعة.. الأطباء قالوا إنه التهاب الأعور.. حاولوا إجراء العملية.. ولم تنجح المحاولة.

بعد ثلاثة أيام طلب أبى المدموازيل هورتان ليخبرها بموت خطيبى، وأن على أن أخزن هدايا زفافى فى صناديق.. صرت أرملة تقريبا ولن أتزوج قبل عام على الأقل.. ليس مهما.. أنا لست متعجلة.. ولكن أن أكون أرملة دون أن أتزوج.. على جثتى، عاودنى شعور التمرد مرة أخرى رغم حزنى على مدحت.

لقد ورطت نفسى فى هذا المشروع.. أوهمت نفسى أنى سأكون سعيدة.. خالفت مبادئى واعتزازى بكرامتى.. وقيل لى إن زوج القضاء والقدر قد يكون أفضل من آخر أختاره أنا.. ومع ذلك كان هناك شىء داخلى.. ضد هذه الأفكار.. ولهذا كنت سعيدة.. سعادة مُرة.. ولم أشعر بأى تأنيب بسبب مشاعرى تلك.. ولم أفاجأ بهذه السعادة البرية المتوحشة الكريهة.

بعد أسبوع رأيت نرجس عائدة من بيت مدحت فى فستان حداد رمادى.. تغطى وجهها بيشمك أسود.. ضايقنى إشفاقها علىّ وعلى الزوج الراحل بمميزاته.. ووسط هذا سمعت قصة موته كاملة.

إن أمه ألبسته بنفسها ثوب الزفاف.. بل وأعدت وجبات طعام كاملة كما لو كان الاحتفال سيقام فعلا [خراف مشوية ، ديوك رومى ، حمام] .. وكتمت نرجس ضحكة حين قالت إن فطائر اللوز التى أكلت جزءاً منها حتى لايشك أحد فى حزنها كانت لذيذة.. ثم تذكرت فجأة أننى موجودة..أما الأقارب الذين وصلوا من الاسكندرية والفيوم فقد رفعوا الكلفة وملأوا شنطهم من هذه الاطباق كنت أرى فحش هذه الوجبات الفظيعة للذواقة على شرف جثة .

وعندما صوّرت لى نرجس الميت وهو مغطى بالورود ومحاط بالشموع المتلألئة ومحروس من أصدقائه وكيف كانت تقوم الأم من وقت لآخر بتعطيره بماء الكولونيا..

انفجرت فيها غاضبة وقلت لها : «توقفى ! توقفى ! فقد تم عقد قران مدحت بالموت، وهذا لا يحزننى ، أنا لست غيورة من الموت ! » .

ثم فتحت دولاب ملابسى ورميت نرجس بمجوهرات الخطوبة التى حصلت عليها تحت أرجلها وصرخت :

«خذيها واعطيها للزوجة الجديدة لمدحت، أنا لا أحتاجها مرة أخرى ! أنا حرة حرة ، حرة!».

ألقيت بنفسى على السرير.. كنت غارقة فى دموعى.. وحولى نرجس ومدموازيل هورتان والوصيفة وجميع النساء الأخريات.. واللاتى ابتعدن بسرعة عند سماع هذه الجلبة التى أحدثتها.. ثم نظرن إلىّ مفزوعات وأشفقن علىّ، قالت إحداهن : «المسكينة.. من كان يظن أنها تحب عريسها إلى هذا الحد».. عندئذ نهضت واندفعت ناحيتهن وطردتهن جميعا من غرفتى.. وأغلقت الباب بالترباس.

في هذا المساء رسمت خططا مجنونة، أردت أن أهرب للخارج.. إلى أى مكان.. أكسب فيه قوت يومى.. بشرط الحرية.. وبعيدا جدا عن الحريم وقوانينهن الإجبارية.. بعيدا عن هذا المسرح القذر كله.. لكن هذه اللحظة لم تأت بعد.. اللحظة التى سأهرب فيها من المنزل.

فى اليوم التالى قدمت القهوة لأبى كالمعتاد.. لم أقل له شيئا.. لم يدر بينى وبينه حديث عن مدحت صفوت.. خطيبى.. كما لم يدر أبدا هذا الحديث من قبل.. حتى نسيته تماما.

٢ - ماهر

كل شتاء يسافر أبى عدة أسابيع . مكتبته تصبح تحت أمرى .. كان لدى وقت فراغ كبير .. أمسيات كاملة قضيتها هنا .. لا أسمح لأحد أن يبقى معى سوى مدموازيل هورتان .. وبشرط ألا تشغلنى . المسكينة كانت مريضة ولم تشك أبداً .. لم ترفض لى طلبا .. كانت رقيقة متسامحة كلما طغيت .. كنت أحبها فعلا.

عاد أبى بعد رحلة طويلة لأسوان ، كان يرافق الخديو عباس فى تدشين سد أسوان . ثم سافر معه إلى الخرطوم .. جاء محملا بعديد من النوادر التى دونها فى مفكرته .. مع مجموعة كبيرة من الصور .. كان يهوى التصوير .. كنا نفطر معا حين حكى لى عن رحلته .. شاهدت الصور .. رأيت فيها - وبالمصادفة - ماهر - شقيق بهيجة .. لقد أصبح ضابطا .. أحمررت دون أن أعرف السبب ولم يلاحظ والدى شيئا وأكمل تقريره.

إننى لم أره منذ زفاف أخته .. لم أكن أفكر فيه اطلاقا .. الآن يظهر أمامى فجأة .. إن القدر يعيده إلى حياتى فجأة .. وبالمصادفة وصلت بهيجة بعد ظهيرة اليوم نفسه لزيارتى.

لم تكن هى زيارتها الأولى .. أحيانا كانت تأتى من الإسكندرية وتقضى عندنا عدة أيام .. كان أبى يحبها لأنها هادئة ومؤدبة .. وكانت نرجس ومدموازيل هورتان تحبانها أيضا . وحين كانت تأتى تدب الحياة فى البيت .. نقيم حفلات موسيقى .. بهيجة على العود .. وأنا على البيانو .. ومدموازيل هورتان على الكمان .. وكان ابى يستمتع أيضا بذلك .

إننى سعيدة بوجودها أيضا لأننى اتحرك بحرية أكبر .. إنها متزوجة .. كان يمكن لى أن أخرج معها بالعربة إلى الجزيرة وإلى شبرا .. بل وإلى المسرح .. لكنها فجأة طلبت شيئا سخرت أنا منه .. أن نذهب إلى استعرض عسكرى .

قالت : «أخى ماهر سيكون هناك .. هذا ما كتبه لى فى خطابه» .

دق قلبى بعنف .

«إنه الآن فى الحرس الخاص للخديو . هل ستحضرين معنا لتشاهديه فى الاستعراض» ؟

ثم سألتنى : هل تذكرينه ؟

وعندما لم أجبها .. قالت : قابلتِه مرة فى منزلنا قبل اعوام .. كما كان موجودا فى حفل زفافى .

كيف لا أذكره .. اننى اراه دائما بزيه العسكرى الأسود الرائع .. بقوامه الرشيق وشاربه الصغير الغامق ونظرته الشجاعة .

قالت بهيجة : تعرفين . فى رحلة السودان قابل البيه والدك عدة مرات . لقد كتب لى هذا أيضا . إنه يرى انك تشبهين والدك . ويسألنى فى خطابه هل لم تزل لديك العيون الزرقاء نفسها ؟

أحمررت خجلا . ولكى أخفى ارتباكى سألتها : «ألم يزل يذكر لون عيونى .. لقد رآنى للحظة .. ومنذ زمن» .

قالت : «كما ترين .. فهو لم ينسكِ . حسناً، إذا لم تأتى معى .. سأذهب وحدى.. إن سكن ابنة خالتى نفيسة يطل على ميدان عابدين .. سنكون فى شرفتها كما لو كنا فى لوج مسرح».

فى تمام الساعة الثامنة صباحا كنا نتجه بالعربة إلى المدينة .. أنا وبهيجة ومدموازيل هورتان والأغا .. قضينا وقتا فى البلكونة الفسيحة جدا المزينة بالشربيات من جميع الاتجاهات .. رأينا كل شىء .. دون أن يرانا أحد . كنا نرفع الشيش لأعلى كى نرى بشكل أوضح .. الزحام .. البوليس الذى يحجز الناس .. أصحاب المقاهى الذين يؤجرون المقاعد لمن يريد أن يرى الاستعراض .. امتلأت الشابيك والتراسات تدريجيا بالمتفرجين.

وبجانب المنصة المقامة أمام القصر عزفت فرقة موسيقى الجيش . وكانت الوحدات تظهر واحدة تلو الأخرى .. وكانت نفيسة .. وهى ابنة أحد الضباط .. تشرح لنا الفرق بين هذه الوحدات ووحدات الحرس الملكى .. كانت تعرف الأزياء المختلفة بالتفصيل وبالضبط .. كنت مستاءة لأننى لم أر ماهر بعد .

قالت بهيجة : «إنه فى حرس الفرسان» .

وكانت وحدات هذا الحرس فى نهاية الميدان فى مقابلة سلاح المشاة وراكبى الجمال من سلاح الحدود .. اجتهدنا حتى نرى بين الضباط واحدا يشبه ماهر . ست نفيسة أعطتنا منظارا مكبرا يستخدم فى الأوبرا لنرى بوضوح .

فى حوالى الحادية عشرة بدأت المنصة فى الامتلاء بضيوف الشرف ،

واصطفت المجموعات المختلفة بكل ألوان الزى الرسمى الممكن على طول الطريق .

حاولنا أن نعرف : «هل هذا هو الحرس الملكى» ؟

أجابت نفيسة : لا .. الذين ترونهم الآن .. كلهم ضباط لا تشارك وحداتهم فى الاستعراض . وانتظموا طبقا للرتبة وليس لنوع السلاح . أما الحرس الملكى فهم يرتدون بنطلونا أزرق وشريطا أبيض ووشاحا ذهبيا» .

تفحصت هذه الفرقة بالمنظار ثم اعطيته لبهيجة والتى لم تستطع أيضا من خلاله رؤية اخيها .

ثم عزفت الفرقة الموسيقية نشيد الخديو ، ودوت طلقات المدافع ، وتعالت نداءات الأوامر . وتلألأت الاسلحة اللامعة فى الشمس ، واقتربت فرقة الفرسان من فناء القصر . الفرس الأبيض الجميل ، سترات بيضاء ، رماح مرفوعة لأعلى بأعلام مرفوفة : الحرس !

ووصل الفرسان أمام شرفتنا .

قالت نفيسة : «هاهو ذاك .. الخديو ؟».

اعتقد أننى لم أر الخديو .. رأيت ضابطا كان يقود فصيلة ويمسك بسرج حصانه وهو يغطى صدره بوشاح ذهبى .. له قوام ممشوق. ويد مفتولة .. وأخرى ترفع السيف اللامع فى الشمس مثل النار .. وبين بياض الياقة والطربوش الأحمر القانى رأيت وجه ماهر الذى ازداد اسمرارا من شدة تعرضه للشمس .

من حولى انطلقت النداءات المثيرة :

«قالت احداهن : هاهو ذاك» ؟

«من ، الخديو» ؟

أجبت : «بل ، ماهر» .

«ما أجمل أخاك يابهيجة ستكون محظوظة من تتزوجه» .

ناولتنى بهيجة المنظار وقالت : «انظرى إنه خلف الخديو مباشرة» .

شعرت بوخزة حين وجدته امامى فجأة يملأ عدسة المنظار .. لمحت الوجه الذى لم أنس تقاطيعه : عظام الوجه العالية، الشفاه المليئة، والأنف المقوس والشارب الناعم، والحواجب الثقيلة، والنظرة المشعة التى سلبتنى منذ زمن .

وبسرعة مر علينا .. ولا أذكر لمن أعطيت المنظار .. لم أهتم بالخديو .. قالت نفيسة : «إن الحراس سيشتركون فى الاستعراض وهى تنتظرهم . وفى الحقيقة

أنهم مروا علينا مرتين وعلى القمة كانت فصيلة الفرسان . كانوا يحيون الخديو الواقف على المنصة بالسيوف المنخفضة أو الرماح المرفوعة . وفي المرتين كان قلبي وعيني يرى فقط الضابط الجميل الذي بدا ملتحما كالشخص الخرافي ونصفه الأسفل على شكل حصان .

انتهى الاستعراض بمرور فصائل المجموعات وحتى اختفت الأخيرة من المشاة.. غادرنا الشرفة ولكننا لم نغادر المنزل .. فقد دعتنا نفيسة إلى الغداء . دار الحديث حول ماهر .. الذي رأته أسرته في رتبة اللواء ، وحول حياة الجيش المليئة بالمغامرات والانتصارات .

ولدت الست نفيسة في الخرطوم . كان والدها يعمل في معسكر هناك .. قبل ثورة المهدي .. كانت السنوات في السودان هي التي شكلت طفولتها وشبابها . واشتركت ايضا المدموازيل هورتان في الحديث بحيوية .. ذلك أن بعض رجال اسرتها كانوا من كبار الضباط في الجيش .. والذين كانوا يقصون عليها ايضا بطولات الجيش . وهي ترى أن هناك مجالين فقط يمكن أن يصل فيهما الرجل بنجاح : الخارجية والجيش .

لقد أدار هذا الكلام رأسي . أخذت معي إلى المنزل خيال الملازم الفارس على حصانه الأبيض الراقص . فكرت فيه اليوم كله .. حلمت به الليلة بطولها .. وأنا لست مع الذين يخفون حقيقة مشاعرهم : إنني غارقة في الحب .

من يعلم ، ربما لو لم أر ماهر مرة أخرى كنت قد نسيته هو الآخر . لكنه القدر، الذي يدير الأمور أفضل من أي خطبة خبيرة . وقد حدث أن قابلته بعد ثلاثة أيام في مصادفة جميلة . وعن طريق أخته وعن طريق أبي .

منذ فترة وأبي يهتم بالآثار المصرية .. كان يتبادل الرسائل مع مسيو ماسبيرو، مدير متحف الانتيكات .. وجدت على مكتبه كتبا فرنسية ومجلات عن تاريخ الفراعنة . وكان ذلك يمدنا بمادة للحديث عند إفطارنا معا .

بعد رحلة مع الخديو إلى الصعيد .. زار الأقصر ولم يكتف بإحضاركومة من الصور فقط، بل أحضر العديد من التماثيل والجعارين أيضا . وكان يتمني وكما ارتسمت الصورة في خياله أن يبعث الحياة في إحدى هذه المومياوات .. إذا وجد إحداها .. وبعد يومين من انتهاء الاستعراض العسكري، تحدث بشغف حين عاد من زيارة للمتحف .. الذي شيده مسيو ماسبيرو في مبنى جديد متكامل في قصر النيل منذ فترة قصيرة .

قال لى : «لابد أن تزورى هذا المتحف يارمزة . فتاة صغيرة مثقفة مثلك يجب أن ترى هذه الأشياء رائعة الجمال ..

إن اجدادنا كانت لهم حضارة عظيمة» .

قلت له : «لقد رأيت هذا المعرض من قبل فى الجيزة .. عندما ذهبت فى رحلة مع المدرسة إلى هناك» .

فقال : «إن هذا المعرض لم يقم أبداً فى الجيزة من قبل . متى ترغبين فى الذهاب إلى هناك؟».

فى الحقيقة لم أكن متحمسة .. ولم تكن أى فتاة مصرية من جيلى يمكن أن تتحمس لمثل هذه الزيارة . بل إنه حين كنا نذهب فى رحلات المدرسة إلى مثل هذه الأماكن كنا نتحمس لاننا سنجد فرصة لنزهة جميلة .. فى الجيزة احتفظت فى ذاكرتى فقط بقصر شرقى جميل بحديقة غناء.. وكانت زيارة إلى بولاق على ضفة النيل لها مفعول السحر .. حيث كان متحف الانتيكات .. كنت طفلة فى ذلك الوقت عندما أخذونى معهم.. إننى أذكر كيف رافقت جدتى وجولستان مع جمع كبير من الخادمات .. ولازلت أذكر تمثالين لأبى الهول لونهما أبيض ، وكانا يقعان فى مواجهة بعضهما تحت الأشجار مثل قطتين .. وتمثالا ثالثا أكبر لأبى الهول من الحجر الأحمر .. كنت ابحلق فيه طويلا بفم مفتوح .

لم تكن جدتى تهتم بالطبع بالآثار . كنت مريضة بحمى (إكزيما) .. جعلونى ألمس الجعارين التى يعتقد أنها تشفى من جميع الأمراض.

تهربت من اقتراح أبى وتعللت بأعمال المنزل الكثيرة .

قلت لأبى : «لا داعى للعجلة .. إن المتحف لن يطير» .

بعد ساعة واحدة ، كنت أبحث عنه فى قلق كى أطلب منه إذنا بالذهاب إلى المتحف فى الحال.

جاءت بهيجة لتودعنى .. لم نفترق عن بعضنا منذ فترة طويلة . كان من الضرورى أن أقضى الصيف فى الاسكندرية، وبسبب ظروف عمل أبى الجديدة كرئيس مجلس شورى النواب فى البلاط .

تحدثنا أنا وبهيجة عن هذا وذاك .. وعندما رافقتها للخارج .. ذكرت على هامش الكلام أنها ترغب فى زيارة المتحف غداً .

«يعنى الولع بالآثار قد خلب لبك» كانت ملاحظتى عليها .

قالت بهيجة : «كنت لا أرغب فى أن أقول لك شيئاً عن ذلك مطلقاً، لأنى أعلم بأنك ستسخرى منى»..

قلت لها : «على العكس تماماً .. أنا لا أسخر منك .. بل أقدر ماتفعلين لثقافتك» .

قالت بهيجة بعد أن هزت اكتافها : «مازلت تسخرين منى .. أنا غير مهتمة بالآثار .. ولكنها حماتى التى وعدتها بمشاهدة احدى المومياوات .. يبدو أن ذلك علاج سحرى ضد العقم . فهم يلوموننى لأنى لم انجب منذ أربع سنوات من الزواج».

سألتها: «وهل انت تؤمنين بهذا؟ انت بالذات؟».

قالت فجأة : «عندما أنفذ وعدى لها بذلك ، سيرافقنى ماهر!».

عندما ذكر اسم ماهر ارتفعت درجة حرارتى .. وجدتها فرصة لمقابلة ماهر.

قلت لها : «إن أبى يعرف مدير المتحف .. انتظرى .. سوف اطلب منه توصيه شخصية ويمكننى الذهاب معكم .. هذه فرصة جميلة كى نرى رمسيس فى بيته الجديد».

حاولت أن أكون ساخرة .. لكن قلبى كان يدق بعنف لدرجة الانفجار .

قلت لنفسى : «يامنافقة .. هل ستذهبين لترين رمسيس؟».

قال أبى : «يبدو أنك تغيرين رأيك بسرعة . صباح اليوم لم تكونى متعجلة بهذه الطريقة .. عموماً أنا غداً مشغول .. يمكن أن نذهب بعد غدا .. وهذا يعطينى فرصة كى أكتب لمسيو ماسبيرو».

كان لابد أن أشرح له وعدى لبهيجة ، وأنه يستحيل تأجيل الزيارة .

وأخيراً كتب رسالة للمدير وصلته فى مساء اليوم نفسه.

لم تغمض لى عين فى هذه الليلة . ورغم أن الزيارة فى العاشرة إلا أننى استيقظت فى وقت مبكر .. فتشت دواليب ملابسى ابحث عن شىء مناسب ارتديه .. وفى الثامنة كنت جاهزة تماماً .. أعددت لوالدى الافطار .. بينما كان يرمقنى بنظرة فاحصة من أعلى لأسفل .

سألنى أبى : «إيه ده انت عاوزه مسيو ماسبيرو يتجنن».

كنت ارتدى فى الجزء العلوى حريرا أبيض بأذرع منفوخة وحزاما لاميه فضيا يحيط خصرى وتحته جونلة واسعة من قماش صوف اسكتلندى تحتها چيبونة مبطنة بالتفتاه .. ثم حذاء من جلد ناعم ..

لكننى اضطررت مع الأسف أن أخفى كل هذا تحت حبرة سوداء طويلة كثيرة الكسرات . وكان اليشمك من الكتان الأبيض الناعم بكلفة من قماش الجونلة نفسها . بينما ترك حجاب وجهى ، عيونى حرة . هذه العيون .. وجدها الجميع جميلة ولم ينس ماهر لونها بعد.

مدموازيل هورتان وأنا أخذنا مكانا فى الحنطور المغلق .. بينما جلس الأغا مبروك بجانب سائق الحنطور . ولم أضايقه هذه المرة حتى لا يطلب من الحنطور العودة للبيت .. تركت الستائر مغلقة ولم ألجأ إلى رفعها حتى أتلصص كما كنت دائماً أفعل لأضايق العواجيز.

وصلنا مبكرا جداً ولم ننتظر رغم ذلك مسيو ماسبيرو كثيراً ..

انتابتنى فزعة ساخنة . لذلك كنت التصق بالتوابيت وأبى الهول فى صالة الأعمدة وبهذه المناورة جعلت مسيو ماسبيرو يطيل الشرح . وأخيراً ظهرت بهيجة ترافقها خالتها وأخوها فى الزى الرسمى .. حين اقتربوا تخيلت أن قلبى سيهرب من جسدى . ارتعشت واحمررت خلف حجابى .

أنا لم أتذكر ولا أعلم .. لماذا انكرت انتظارى لبهيجة .. سلمت عليهم وكما لو كنا نتقابل مصادفة وقدمت لى خالتها وأخاها . وتبعنا جميعاً ماسبيرو فى المتحف الخالى من البشر . ظل ماهر خلفنا عدة خطوات .. شعرت بنظرته .. وتقابلت اعيننا عدة مرات .. خاصة وأننى كنت تدربت أمام المرآة عدة مرات على طريقة تجعل الحبرة ترتفع عن وجهى بالمصادفة .. أو أن تظهر جونلتى الأسكتلندية وحتى الحذاء .. ومع ذلك .. أمام ماهر .. لم أستطع أن أفعل هذا .. سلوك المداعبة .

افزعنا نداء من بهيجة .. حين سبقتنا فى الخروج واكتشفت تمثالا من الحجر الأخضر فى احدى الفترينات .. إلهة برأس فرس النهر .. إنها إلهة الخصوبة وكما شرح لنا المشرف . وكان على بهيجة أن تدور سبعة مرات حول الإلهة .. كانت مدموازيل هورتان مهتمة جداً بما يقول .. ولم يهتم أحد بى أنا وماهر .. كنا ننظر لبعضنا دون كلام .. ولكن أعيننا اطالت الحديث .. فرأيت فى نظرة ماهر إعلان الحب الملتهب .. حتى أنى اغمضت عينى .. ومع ذلك كانت اجابتى ليست عن سوء فهم .

مضت الجولة .. مدموازيل هورتان مع ماسبيرو .. وبهيجة مع خالتها

والخرافات .. وأنا مع ماهر .. كنت أقف أمام أثر اجوف .. كان يختفى فيه الكهنة .. وكما يقال .. لكى تعلن الآلهة عن تكهناتها .. عندئذ سمعت اسمى .. ارتعدت .. توهمت مرة أخرى . هذا ما همس به شخص ما .. إنه ماهر الذى اقترب مبتسماً. كنا قلبا وروحا .. حتى أننا لم نحتج للكلام .. وكل هذا فرض علينا محادثة ثنائية صامتة.

عندما امتدح مسيو ماسبيرو جمال نفرتيتى فى ثوبها الأبيض العتيق.

قالت لى عيون ماهر :« أنت أجمل منها!».

وقالت له عيونى : «أنت أجمل من الأمير .. زوجها».

وحين عرضوا علينا البودرة الزرقاء التى كانت السيدات يجملون بها عيونهن .. قرأت فى عيون ماهر: عيونك لاتحتاج لمثل هذه المواد الصناعية!

لمعت عيونى من السعادة .. كى أعجبه .. كان ذلك تعبيرا عن رحابة قلبى .

عندما اكتشفت بهيجة المومياوات .. أكدت لها خالتها بأنها ستنجب أكيد .

ابتسم ماهر لى .. أخفضت رأسى واحمررت خجلا .

كم كنت اتمنى فى نهاية اللقاء أن أسمح له بتقبيل يدى.. أريد أن أقول له على الأقل إلى اللقاء.. وكما هو مسموح به عند الأوربيين، وبدلا من ذلك كان عليه اتباع تقاليدنا ويفعل كما لو كنت غير موجودة. فقد استطعنا فقط تبادل ابتسامات مسروقة.

قالت بهيجة : إلى اللقاء قريباً فى الاسكندرية.

«فى الاسكندرية .. ياعزيزتى».

لحظتها خطر ببالى أن ماهر .. ضابط الحرس الملكى للخديو .. سيكون هناك بالتأكيد.

الفصل الرابع

حب فى الإسكندرية

١ ـ ڤيللات باكوس

وعدنى أبى بقضاء الصيف فى الإسكندرية.. حاصرته طويلا بهذا الطلب حتى رضخ، وكلفنى بالكتابة لبهيجة كى أطلب منها البحث عن ڤيللا لنا. كتبت لها: يجب أن تكون قريبة جدا منك.. حتى نرى بعضنا كل يوم. وصدقت آمالى الشجاعة.. واستأجرنا بالفعل ڤيللا فى باكوس للصيف كله.. لم يكن يفصلها عن بيت بهيجة سوى حاجز من العشب وفيما بعد عرفت أن ماهر سوف يسكن بها بعض الوقت.

الحب: بصفة خاصة هو مايعد به من وعود كاذبة، فى الأسابيع القليلة التى سبقت سفرنا عشت فى عالم الأحلام.. عالم تظهر فيه الصور نفسها: ميدان عابدين الكبير.. الحصان المبهر فى يوم الاستعراض.. أنا ألمس بيدى مقبض السيف.. أشعر بدفء يده.. أتحسس الحصان الذى وثق به حتى يمنحنى ثقته.

أبحث فى المكتبة عن روايات أستبدل ماهر ببطلها.. أطلب من أبى أن يحكى لى مرة أخرى ما الذى حدث فى رحلته إلى السودان.. كى أتخيل صورة ماهر هناك على جانبه وجانب الخديو .

إننا لم نزل نحتفظ بملكية منزلنا على الخليج.. ولازلت أطلق عليه هذه التسمية بالرغم من اختفاء القناة والخليج، كانت الأسرة تذهب إلى هناك أحيانا فى الأعياد. كنت أذهب إليه وحيدة بحجة الرسم فى هدوء.. ولكن هدفى كان هو البقاء بعيدة وسط أحلامى كى لايزعجنى أحد، فى نهاية حديقة الخضار كانت توجد بئر قديمة ويطلقون عليها البئر المتكلمة.. كانت تشدنى بالرغم من جميع التحذيرات.. كانت مغطاة بألواح خشب متعفنة.. كنت أبعدها على أحد الجوانب.. كنت أقترب من فتحة البئر وأنادى باسمه فيعود إلىّ.. وأسأل أسئلة فتأتينى أوهام أننى تلقيت إجابات عليها.. عبث أطفال.. أكيد!.. ولكن أليست هذه الحاجة الطفولية لخداع النفس علامة من علامات الحب؟. كنت أظن أننى سوف أسافر مع أبى إلى الإسكندرية فى نفس اليوم الذى يرافق فيه الخديو أو بعد ذلك بقليل.. كنت أحسبها بدون نرجس.. فالذى حدث أن نرجس عطلتنى أربعة عشر يوما كاملة أحتاجت إليها لتحزم الحقائب.. لم يحدث أبدا أن مر علىّ هذا الوقت بمثل ذلك البطء.. ولم يحدث أبدا من قبل أن أكون بالنسبة لنرجس المسكينة ـ ثقيلة الظل..

هذه الطفلة القوقازية المنشأ والمزروعة فى القاهرة تحولت إلى شيخة مصرية معتدلة.. خاصة بعد أن حكمت الحريم.. وهى التى تعيش منذ مايقرب من أربعين سنة.. إنها لم تسافر أبدا بالقطار.. وكانت الرحلة إلى الإسكندرية بالنسبة لها بمثابة حدث مهم يجب وقبل أن تقوم به، أن تزور الشيوخ وأضرحة أهل البيت وكل الأولياء من الرجال والسيدات المدفونين فى القاهرة.. والله وحده يعلم كم يصل عددهم فى القاهرة.. بل ولم تكتف بهذا.

لقد قلت لها أن بهيجة أخبرتنى أن الڤيللا خاصة بسمسار من مالطا. كل شيء بها ومؤثثة تأثيثا كاملا.. ونحن لسنا فى حاجة سوى لبعض ملاءات السرير وملابسنا وشرحت لها ذلك مرارا وتكرارا.. ورغم ذلك أخذت نرجس معها كمية هائلة من الفضيات والحلل ولوازم السفرة والمراتب.. وفوق هذا فإنها اقتنعت تماما بأحاديث جاراتها عن أنه لايوجد فى الاسكندرية أية مواد غذائية بخلاف السمك، وأمرت بشراء كل ماهو ممكن من الأرز والدقيق والفاصوليا وأرسلته مسبقا إلى الإسكندرية.. ثم أخيرا هل الدور علينا.

فى صباح يوم السفر نسيت أحزان كل الأيام الأربعة عشر.. عانقت الجميع.. نرجس ومودموازيل والوصيفة والخادمات.. كنت سعيدة جدا!. وبهذه الروح المعنوية العالية كانت الرحلة مثل العيد.. واستخفنى الفرح حتى أننى سحبت نرجس إلى عربة المطعم فىَ القطار.. وضحكت لأنها تظن أن فى كل الأطعمة لحم خنزير.. وترفض أن تلمس أى طبق لهذا السبب.. كنا نندهش كالأطفال بالطبيعة الريفية التى نمر عليها بسرعة.. وبينما نصمت كنت استمع لصوت عجلات القطار.. إنها تقول ماهر.. ماهر.. وتقول لىّ انها تقربنى منه فى كل ثانية.

أخذنا أبى من محطة سيدى جابر.. كان معه زوج بهيجة.. رجل سمين خفيف الدم.. بهيجة كانت تنتظرنا على سلالم بيتنا الجديد.. كان أبى يمدحها كثيرا.. إذ اهتمت به منذ وصل إلى هنا.. وفرحت لأننا منذ البداية صارت لنا علاقة جيدة قوية مع عائلة ماهر.

أعجبت بصفة خاصة بالحديقة، بالتلال والأحواض الصغيرة والكثيرة، والعشب الأخضر اللامع والأشجار الكثيفة ذات العناقيد والأغصان المزهرة، كان المنزل تكسوه الخضرة بالكامل ويقع فى قمة مستديرة وتكسوه الأغصان المتسلقة التى تشبه الستائر بين البواكى.

كان لغرفتي ڤراندا واسعة.

قالت بهيجة: أنا حجزتها لك لأنها تقع فى مواجهة غرفتى تماما.. أزاحت الأغصان على الجانب من أمام الشباك.. ثم أشارت إلى ڤيللا تبعد نحو عشرين أو ثلاثين مترا.. قالت: «يمكن أن نشير لبعضنا.. يمكن أيضا أن نتكلم.. يمكن أن نرى أنفسنا بسهولة!».

كنت أريد أن أوجه لها سؤالا يحرق لسانى: هل ماهر يسكن هنا؟.. لكننى بالطبع لم أفعل.

أعطتنى بهيجة الإجابة بنفسها.. أشارت هى إلى غرفة بجانب غرفتها والصالون الصغير.. «هذه غرفة ماهر».

وحتى لا أظهر سعادتى.. نحيت نظرى.. وكنت مضطربة حتى أنى لم أنطق بكلمة واحدة.. كنت أريدها أن تقول أشياء كثيرة.. أن تقول أنه سأل عنى.. أنه يحبنى.. أنه يريد أن يتزوجنى.. كنت أود سماع كل حاجة عنده.. لكنها غيّرت الموضوع وجذبتنى كى أرى بقية المكان.

مشينا بطول الحاجز العشبى الذى يفصل بين قطعتى الأرض.. تأكدت أنها ليست عالية وكثيفة.. وفى النهاية تماما.. وفى ناحية مزروعة بالخضراوات.. كان هناك ممر ببوابة منخفضة من الشبك ومغلق فقط بقفل ستائر بسيط. وليس أسهل من القفز إلى هناك! وكنت أفضل المحاولة فى الحال وحتى أعاين المنطقة التى يسكن فيها ماهر جيدا.. ولم أفعل ذلك.. ولكنى تخيلت ذلك الضابط الشجاع الذى قفز على العوائق ثم وصل أمامى.. وكان مجرد أن تتوهم بنت صغيرة من جيلى هذه الفكرة.. جريمة.. حتى النزهة القصيرة فى الحديقة وبوجه مكشوف بدون حجاب تقابل بالتوبيخ.. عدت للمنزل مسرعة.

مساء ذهبت للڤراندا أمام غرفتى.. حملقت فى الظلام إلى المنزل المقابل.. أن أرى خياله.. وأخيرا رأيته خارجا.. يمشى عدة خطوات تحت البواكى. لم أر وجهه.. فقط صورة خيال الظل الذى يحركه جسده مرة فى اتجاه ومرة فى اتجاه آخر، قلت لنفسى إنه يفكر فىّ، يشعر بقربى جدا منه، إنه يحاول أن يبحث عنى بعيونه.. ومع ذلك لم أجرؤ على إظهار نفسى له.. ثم اتجه للداخل مرة أخرى وجذب الشيش لأسفل.

حين استيقظت فى اليوم التالى خرجت إلى الڤراندا.. كانت الڤراندا الأخرى

خالية.. دخلت.. بعد الظهر خرجت بهيجة ونادت علىّ.. قالت بضع كلمات لم أفهمها.. وفى اليوم التالى صحوت للمرة الثانية فى الفجر.. واستحققت المدح مرتين: مرة لمشاهدة الحديقة وهى تستيقظ تدريجيا.. وهذا وحده يزيد من قيمة الصحيان مبكرا، ومرة لرؤية ماهر.. وها هو أخيرا أراه أمامى.. يبتسم سعيدا حين رآنى.. ينحنى بشكل احتفالى مرحبا.. يضع يده على صدره.. ثم على جبهته وشفايفه.. فعلت الشيء نفسه.. كنت أرد عليه بذات التحية المليئة بالمعانى والتى تقول: أنت فى قلبى وعقلى وعلى لسانى.

ضحكنا بدون صوت ثم حيانى مرة أخرى وأنهى الموقف بقبلة من يده.

كانت هذه القبلة مفاجئة لى.. ولكننى لم أرفضها.. ولم أهرب إلى المنزل.. بل وجعلت ماهر يفهم بأن قبلته لم تسيىء إلىّ.. انتظرنا بعض اللحظات.. نظرنا لبعضنا.. أرى ماهر محاطا بأزهار البوربون التى تتساقط عليها قطرات الندى.. كان قلبى يغنى.

كان صوت شيش الشباك عند جذبه.. يجعلنى أدخل الغرفة مسرعة.. ولكن بعد أن تزودت بسعادة تكفينى اليوم كله.

عدة أسابيع مرت بنفس الطريقة.. نتبادل التحية على بعد.. فى ضوء الفجر الخافت أو مساء فى الظلام.. وكنت أزور بهيجة كثيرا.. ولكن دون أن أراه.. لم تعلم بهيجة بحبنا.. ولم أكن أريد أن أتحدث معها فى هذا الحب.. كنت أخشى أن تخاف وأن تضع العوائق أمام علاقتنا كى لاترتكب ذنبا يحاسبها أحد عليه.

وهكذا مضت حياتنا فى الإسكندرية التى تشبه أوربا خاصة فى الصيف.. كان أبى يقضى النهار تقريبا خارج المنزل.. كنت أراه على الإفطار فى الصباح فقط وقبل خروجه.. يروى كل حكايات البلاط، وبعض الطرائف التافهة.. حتى أنا كنت أسمعها وأحكى له.. ففى بداية الصيف.. ومازلت أتذكر ذلك بالضبط.. يحدثنى عن أم الخديو التى عادت توا من استانبول وقد اشترت من هناك أحدث الموضات التى تنقلها عنها النساء خلال حفلات الاستقبال الفخمة.. التى تقام كثيرا فى قصرها فى سيدى بشر.. وكانت حديث الناس، كنت أتعجب لأنها ليست مثل أختها الأميرة نازلى.. التى كانت تنظم ندوات أدبية وسياسية وصالونات يحضرها الرجال والنساء بدون حجاب.. كان الخديو يعتبر مثقفا وتقدميا ولماذا لم تصبح هى الأخرى قدوة يحتذى بها؟.

عندما قلت هذا.. لاحظت رد فعل أبى.. اشتبك فى الحوار.. وبرر سلوك الخديو.. إلا أنه اعترف وبالرغم من رأيه.. بضرورة عدم الاصطدام بالرأى العام بسلوك ضد التقاليد وإلا كان هلاكه.. وكان هذا نقطة تحسب لصالحى.

وحين يذهب أبى أبدأ فى ترتيب البيت، وأزور غالبا صديقاتى الفرنسيات خاصة بعد أن تعرفت أنا ومودموازيل هورتان أثناء دعوة من دعوات الشاى الكثيرة التى تقيمها الجارات فى هذه المنطقة.. على عائلة فرنسية تعيش فى الاسكندرية وتسكن فيللا بالقرب منا.

لقد اتضح أن مدام «هنريت» تنتمى لنفس منطقة الليموزين التى كانت تعيش بها مدموازيل هورتان.. وقد أدى هذا إلى حالة طويلة من اجترار للذكريات فيما بينهما. عندئذ تهتم بى بنتاها.. إيزابيل وكاميلا.. إيزابيل أكبر منى بعض الشىء.. كاميلا أصغر.. كنت حتى الآن عازفة الكمان الأولى فى دائرة صديقاتى.. ولكن مع هاتين الفتاتين وقعت تحت نفوذهن عن طيب خاطر.. على الرغم من أنهن كنا متحفظتين.. قربتنا الموسيقى أكثر.. ويرجع الفضل لهن فى أن أعرف أن معلوماتى الموسيقية ناقصة.. فلم أكن أعرف شيئا سوى أعمال «شوبان» الذى أحبته أمى بشدة أو ڤاجنر وبيتهوفن.. اطلعتنى ايزابيل الجادة على أعمال باخ. وعرفتنى كاميلا الصامتة على أعمال ديبوسيه، وتفهمنا بعض جيدا لدرجة لايمكن أن نفترق عن بعضنا.

كان أبى سعيدا بهذه الصداقة، يسمح لى أن أخرج للتسوق مع كاميلا وايزابيل.. ولكن حتى لا أضايقه كنت أرتدى الحجاب الأبيض الخفيف.. لكنه كان يضايقنى.. لأننى لا أتحرك بحرية ولا أظهر وجهى مثل صديقاتى.

لقد كانتا تستحمان مع أمهما فى شاطىء جليم وفى الصباح الباكر عندما يكون مخصصا للسيدات.. وبينما كنت أبقى فى كوخ على الشاطىء مع مدموازيل هورتان.. كنت أحسدهن حين يرتعن فى المياه المالحة.. وبعد أيام طلبت من أبى تصريحا ليسمح لى بالاستحمام فى البحر.. فى هذا الوقت كانت حمامات البحر فى مصر هى الموضة.. وحتى سيدات البلاط كن مع هذه الموضة.. إننى أسمع الكثير عن هذه المياه وفوائدها الآن.. الأطباء يقولون أن اليود يشفى من السل.. بل ينصحون بماء البحر لإنقاص الوزن ويدعون الناس لغرغرة الأسنان بها.. ويقولون أن زوجة الخديو كانت تستحم بانتظام على شاطىء خاص فى سيدى بشر.

عندما طلبت من أبى أن أستحم.. دعمتنى نرجس.. قالت: إننى هادئة ولست فى حالتى الحيوية.. وافق أبى.

لكنه لم يسمح لى للأسف بأن أستحم فى البحر المفتوح مع صديقاتى الفرنسيات.. حاولت إقناعه بأن ملابس البحر محتشمة.. تغطى الأزرع حتى الكوع.. والساحة حتى الركبة.. قلت له أن أى رجل لا يستطيع أن يرى السيدات لأن المنطقة تحرس تماما وممنوع على الرجال الاقتراب من البلاج.. لكنه رفض.. وقال: لو احتجت حماما بماء البحر اذهبى إلى حمام السيدات فى سان استيفانو، وكان لابد أن أرضى بذلك، لم يعجبنى المكان.. إنه مزدحم بالنساء من كل لون، جاءوا فى المقام الأول يتباهين بالمجوهرات وإظهار زينتهن أو للدردشة أو مقابلة صديقاتهن.. أو لعرض بناتهن على الخاطبات.. أو لأمهات عندها أبناء.. أما نرجس التى رافقتنى.. أعجبها المكان.. كان اجتماع حريم بالكامل وعلى هواها.. بل أكثر إثارة بسبب المجتمع الكبير دائم التغيير والذى أصبحت فضائحه مادة للحديث تصلح لليوم كله.. ووجد أرضاً خصبة مترفة.

كان هذا الحمام عبارة عن خليج أعزل مغلق يتكون من أكواخ صغيرة.. يستطيع المرء أن يبلبط فى ماء عكر مع غرباء.. وتحت نظرات مليئة بعلامات استفهام من السيدات الفضوليات.

حاولت أن أعزل نفسى، أصحو فى وقت مبكر، أحصل على قبلة ماهر وعيونى قد امتلأت بالنظر إليه فأشعر بملاطفة الماء الناعم مثل العناق اللطيف.. لكن هذا الحل صار صعبا الآن.. لا يريد أحد أن يرافقنى مبكرا.. حتى إيزابيل وكاميلا رفضتا أن تصطحبانى مرة جديدة.. إن المكان لايسعدهما لأنه ضيق.. وطلبا منى أن أرافقهما للبحر الأوسع والأفق الأرحب وكنت أفعل.. ولكنى أطيع والدى ولا أنزل الماء.. فقط استمتع بالريح ورائحة البحر المالحة.. ولعب الأمواج.. حيث أفكر فى ماهر دون أن يضايقنى أحد.

لم أطلع أى من صديقاتى الجديدات على سر من أسرارى وحتى اليوم الذى أبحن فيه أسرارهن ، لفت نظرى من قبل ، أنه فى بعض الأيام وقبل الظهر وعندما نصل من البلاج تأخذ هى أو الأخرى القطار إلى المدينة . ولم استطع أن أذهب معهن . لأن والدى كان قد أعتاد الحضور للمنزل فى هذا الوقت لتناول الغداء . ومرة عندما كان يأكل من الخارج تبعت كاميلا. ذهبت هى لمكتب البريد ودخلت إلى

الشباك حيث يتم توزيع الرسائل البريدية المخزنة واستلمت خطابين . فتحت أحدهما فى الحال وأخرجت صورة مدت بها يدها إلىّ بلا تردد ، بينما كانت تمر بعينيها مرورا سريعا على الخطاب .

«إن إسمه رايموند» هكذا قالت : «هو حبيبى» .

فتحت فمى وعيونى : «خطيبك ؟»،

لا أوه ، رسميا نحن لسنا مخطوبين بعد ، تعارفنا فى العام الماضى فى (ڤيجى) ، إنه موظف فى مستعمرة بالسنغال » .

– «هل يعلم أبواك بذلك ؟» .

– «لا .. وإن كانا شاهدانا معا من قبل ، رايموند وأنا ، عندما كنا فى حديقة الاستشفاء نتنزه على النهر سويا . لم يعرفا بعد أننا نحب بعضنا البعض. ولم يطلب يدى فربما يرفض لأنه مـــازال موظفا صغيرا وليست عنده أموال .. رغم ذلك سأتزوجه» .

قالت هذا كله بصوت هادىء .

قلت لها : «وحتى لو رفض أبواك الموافقة؟»

– سأنتظر حتى أصبح بالغة .. ولهم أن يفعلوا ويقولوا ما يشاؤون ، سأتزوج رايموند» .

– «إن إيزابيل أيضا لها حبيب ، وتخفى أيضا عن والديها تبادلها الخطابات معه . وهى أيضا قررت أنه تتزوجه إذا أضطرت وحتى ضد إرادة والديها . بل إنها تتمادى أكثر من أختها» قالت: «أنا أحب والدى، خاصة أمى ، ولكن إذا أرادا إرغامى على أن اختار بينهما وبين (إنتيين) ـ وهذا هو إسم حبيبها ـ سوف أهرب من المنزل» .

– إيزابيل الهادئة لم تتحدث من قبل معى هكذا بالتفصيل .

سألتها: «أنت تحبينه بشدة ؟»،

نظرت إلىّ صامتة ، ومع ذلك كانت ذقنها الصغير ذو الزوايا وعيناها الجسورة الخضراء تفهمانى أنها ستفعل ما قررته» .

لقد جعلنى ذلك أفكر . فحتى الآن كنت أعتبر «كاميلا» و«إيزابيل» فتاتين صغيرتين مؤدبتين، سلوكهما لا غبار عليه ، بالإضافة لأنى عرفت أنهما كاثوليكيتان يؤديان الطقوس الدينية . لكنى أردت معرفة المزيد عن علاقتهما :

«ليس أكثر من مجرد قبلة اليد» . وعلمت أن كلا الرجلين لم يبعدا أكثر من ذلك .

هنا اعترفت لهما : «أنا أيضا غارقة في الحب» .

وحكيت لهما قصة ماهر .

بعد عدة أيام ، وبعد زيارة للأختين ، جاءتا معي للمنزل ، وتقدمت أمهما ومدموازيل «هورتان» مني .. وعندما انتحيتا ذات مرة في جانب من البيت ، وقف ماهر أمامنا فجأة ، وبقيت في مكاني في الحال متصلبة .. ضغطت على يد إيزابيل : «هذا هو !» .

بالرغم من حجابي تعرف ماهر عليّ . وبعد تردد قصير تنحى بأدب جانبا ، لنتقدم نحن .. تقابلت نظراتنا . إن الحب الذي رأيته في عينه جعلني أطير فرحا .

بعد ذلك بأيام كنا مدعوات نحن الثلاثة على العشاء عند بهيجة . كانت وحدها في المنزل ، لأن زوجها في رحلة . كنا نحب بهيجة . لم نحك لها شيئا عن أمور قلوبنا . فهي خرجت من رعاية والدها توا لتعيش في رعاية زوجها . كانت زوجة وفية ، سيدة منزل ممتازة ، وكم كانت تتمنى أن تصبح أماً طيبة . لم تطمع في أكثر من هذا في الحياة ولم نرغب أن نشغلها بمشاكلنا .

كاميلا وإيزابيل جاءتا لإحضاري . أعطتني إيزابيل بإبتسامة مليئة بالأسرار ظرف خطاب . قلبته من الناحيتين .. فلم أجد شيئا لا عنواناً ولا راسلاً ، ونظرت إلى صديقتيّ بحيرة .

قالت إيزابيل : «افتحيه» . «ربما كان خطابا غراميا من أمير اساطيرك» .

ظننت أنهما يسخران مني ، ولكنها كانت الحقيقة .. رسالة من ماهر وقد دبرتا ذلك كله، أن يقابل واحدة من صديقاتي ، التي تنتظر القطار في طريق العودة من مكتب البريد في محطة الرمل . حيث اعطاها الخطاب لي.

لقد طلب فيه تحديد ميعاد مكان اللقاء . كان يعلم أننا مدعوون عند أخته في هذا المساء وعرفني بأنه سينتظرني بعد العشاء تحت الشجرة الكبيرة بجانب حوض الخضر . كنت أعرف هذه الشجرة ، شجرة صفصاف حزينة في نهاية الحديقة تماما وبالقرب من البوابة التي تربط بين قطعتي الأرض معا .

رد فعلي الأول كان السعادة ، سعادة غامرة ، دفعت الدم في خدودي ، وبدوت أمام نفسي كبطلة متوجة لمغامرة عظيمة ، مغامرة حقيقية فريدة في كل الأوقات لم يعشها قبلي أحد .

وحينئذ انتابنى الفزع .. ماذا يدور فى خلدى ، أنا، الفتاة الصغيرة المؤدبة المحتشمة المسلمة ؟ أريد أن أتقابل مع رجل فى منتصف الليل ؟ أخدع والدى ؟ أكسر المبادىء المقدسة للدين والأخلاق وأخاطر باللعنة والفضيحة ؟ لا ، لن أذهب مطلقا لشجرة الصفصاف !.

ولكن هكذا قلت لنفسى ربما أعرض سعادتى فى الحياة للموت .. فالتعرف على الحبيب أكثر والتعرف على نواياه .. جديرا بالمخاطرة ؟ أيجب فى الحال وفى بداية علاقتنا أن أضايق ماهر وأنسب له نوايا غير شريفة ؟.

كاميلا وإيزابيل كانتا تنتظران صامتتين، أعترفت لهما بكل شىء بالميعاد ، وبورطتى وطلبت نصيحتهما :

– «فى مثل هذه الأمور يجب أن يتولى المرء مسئوليته» هكذا قالت إيزابيل .

«وإذا ما ذهبت» قالت كاميلا «كونى حذرة» لا تسمحي له بالحرية ولا حتى بقبلة» .

فى الطريق إلى «بهيجة» دخلنا من الطريق بين أحواض الخضر – لم يعد أحد يغلقه من زمن بعيد وأشرت لصديقاتى بالمكان الذى سوف ينتظرنى فيه ماهر . شجرة الصفصاف بأغصانها الكثيفة والممتدة إلى الأرض تقريبا . وقفت فى واد منخفض لايمكن رؤيته من نوافذ الڤيللتين . ولاحظت إيزابيل بأن المكان كما لو كان قد خلق لميعاد غرامى .

أكدت لهما : «سوف لا أذهب إلى هناك».

قالت كاميلا : «وهذا أيضا أفضل».

عند بهيجة عزفنا الموسيقى . وعندما وصل الدور علىّ بدأت عزف مقطوعة «باركاروك» لشوبان ، إحدى القطْع المحببة إلىّ والتى كنت أمتاز فيها دائما . أصبح الآن من الصعب التركيز فى الموسيقى ما كانت أفكارى بالكامل فى مكان آخر وفجأة لاحظت ، أننى أسأت العزف فقد نسيت النوتة ، ونسيت حتى اللحن . رأسى الفارغة كانت تدور . احضروا لىّ النوتة الموسيقية . كنت غير قادرة على قراءتها . ولم يحدث هذا لى من قبل ، ويجب ألا يحدث مرة أخرى . نهضت والدموع فى عينى وجلست فى كرسى له مسند وبدأت أبكى .

حاول الجميع تهدئتى . كاميلا أقترحت عليهم «من الأفضل أن يتركونى وحدى» . كنت حانقة على نفسى ، لم أعرف ماذا أفعل وشعرت بأنى أتعس مخلوق على وجه الأرض .

حضرت «بهيجة» لتأخذني للطعام . فرشوا السفرة في الخارج خلف المنزل في ضوء القمر . في ظروف أخرى كان يمكن أن أرى هذا العشاء فاخراً . ولكنه أصبح عذابا لي . وكان الحديث البهيج لصديقاتي يمر على أذني من بعيد ، دون أن استقبل كلمة منه . كنت تعيسة لدرجة الموت ، وتخيلت «ماهر» قريبا جدا ينتظرني تحت شجرة الصفصاف ، يسترق السمع لأصواتنا ، وربما يحاول سماع صوتي ومشتاق إليّ .. وتخيلت خيبة الأمل التي أعددتها له ، وقد أخذت في عيوني حجم الكارثة : «لن يحبني ولن يلقى عليّ قبلة اليد في الصباح الباكر» .

««عند نموذج جوبلن» تحدثت مدموازيل كمدرسة ، خبيرة في التطريز ، «يأخذ المرء خيطين من النسيج والغرزة الأولى من تحت ..» .

علمت أن «بهيجة» ترغب في تطريز مفرش كرسي كهدية عيد ميلاد لزوجها .

«تفضلي معي لتشاهدي الخيط الذي اشتريته ، أنا في حاجة لرأيك وبكل سرور» .

اتجهت الاثنتان للداخل وبقيت مع «كاميلا» و«إيزابيل» ، وشعرت بنداء ماهر الصامت في داخلي ، إنه يملؤني ولا يمكن مقاومته .

همهمت «بل سأذهب» . وبعد خطوات قليلة أعادتني «إيزابيل وقالت :

«سأذهب معك» «ستقول أختي للأخريات ، بأننا سنحضر منديلا من حجرتك».

بمجرد أن وصلنا ناحية المنزل ، أمسكت بيدي وجذبتني بسرعة إلى المنحدر لأسفل . وعندما اقتربنا من شجرة الصفصاف حل الظلام . تشابكت أصابعي مع يد «إيزابيل» ، همست في أذني : «سوف انتظرك عند البوابة» «ولا تبقي طويلا» . ثم نزعت نفسها واختفت .

«رمزه» هكذا جاء صوت ماهر هامسا .

تقدمت خطوة ووقفت في ظل الشجرة إن يدين متزلزلتين تتحسسان يدي . ظللنا وقتا طويلا صامتين . تعودت عيني على الظلام ، ماهر أهتم بمظهره ، قلبي دق بشدة حتى أنه آلمني . والحقيقة أن يدي كانت في يديه . وكان بالنسبة لي مثل احتفال نذرنا فيه بعضنا لبعض دائماً وأبداً .

لقد توقعت شيئا من «ماهر» ، ما هو ، لا أعرف ، على الأقل كلمتين . ولكنه صمت . أردت أن أتخلص منه .

«لا، أرجوك» هكذا همهم «ماهر» . «لحظة أخرى ، كنت خائفا ألا تحضرى ! أود أن أقول إننى أحبك وأرغب فى الزواج منك ! أرجو أن تعدينى بأنك ستقابلينى مرارا .. حتى أحدثك وأستطيع إقناعك» .

ترك يدى فقط بعد أن وعدته أن أقابله مرة أخرى فى المساء التالى عند بوابة الحديقة .

عدوت إلى «إيزابيل» وأسرعنا إلى حجرتى لاحضار منديل . وبمجرد عودتنا «لكاميلا» عادت «بهيجة» ومدموازيل «هورتان» . لم استطع التنفس وكانت عيونى تلمع ، تفحصتنى المدموازيل قلقة وأعتقدت أنى أعانى من حُمى وعلىّ أن أسرع للمنزل .

السهولة التى ذهبت بها للميعاد الغرامى ، دون إثارة أدنى شك ، شجعتنى ولذا قابلت «ماهر» فى المساء التالى عند بواية الحديقة .

هذه المرة كنت معه وحيدة ، فالحضور الهادىء لإيزابيل لم أكن أشعر به ، رغم أنى معها تحت الحماية . تجاذبنا أطراف الحديث عدة دقائق هامسين ، سألنى عدة مرات عما إذا كنت مستعدة للزواج منه . وافقت.. حينئذ ضمنى بحركة شديدة من ذراعيه وطبع قبلة على جبينى .

انتزعت نفسى وأسرعت . وألتهبت وجنتاى . وصلت غرفتى ومازلت أشعر بضغطة يديه على كتفى ونفسه الدافىء على وجهى . فقررت ألا أراه ثانية ، إنه قبل أن يطلب يدى يطبع على جبهتى قبلة .

٢ - خيمة البدو

تجنبت مقابلة ماهر ، رأيته كالمعتاد كل صباح من فراندتى . لم أكن أستطيع تجنب ذلك على أى حال .. إنه يفوق إحتمالى .. أشار فى اتجاه بوابة الحديقة أومأت برأسى . لم أرغب فى فقدانه ، حتى أنى لم أستطع مطلقا أن أتوقف على الابتسام له أو حتى التفكير فيه . وأكتشفت أن من بلكونة غرفة نوم أبى يمكن أن أرى مدخل بيت «بهيجة» . كنت عندما أنجح فى التسلل إلى هناك دون أن يرانى أحد ، استطيع أن أرى «ماهر» عند عودته للمنزل ، كنت أسمع لقلقة حوافر الحصان ، وأتخيل رؤية فارس عظيم بسيف أبيض ، كرباجه فى يده ، وأتصور أنه بهذا الوضع وصل إلىّ وكما لو كنت زوجته وانتظره على عتبة بيتنا .

حضرت «إيزابيل» مرة بعد الظهر لتأخذنى.

«تعالى معى ، أسرعى » ..

«عندنا مفاجأة لك ».

إبتسمت ابتسامة مليئة بالأسرار ، ولم يكن هناك شىء يمكن استخراجه منها لأعرف الموضوع .

بعد ذلك بقليل جذبتنى وبسرعة إلى سلالم تراس منزلهم .

«انتظرى .. إغلقى عينيك» .

ثم جذبتنى إلى الداربزين :

«الآن يمكنك أن تنظرى إلى هناك» .

على أرض الجيران كان يلعب بعض الشباب بالبنطلونات والقمصان البيضاء .. يلعبون التنس .. كتمت صرخة كادت تصدر منى : «واحد منهم كان هو «ماهر»! .

وبحذر، وحتى لا يرانى أحد ، أقتربت أكثر وراقبته . كان «ماهر» آخر تماما يجرى هناك خلف الكرة ، «ماهر» ، هناك بدونى وبعيدا عنى ، وفى هذه اللحظة لا يكلف نفسه عناء التفكير فىّ . هكذا كان «ماهر» ! . لم يفكر مثلى ليل ونهار فى بنا ! كنت أملأ حياته فقط أثناء بعض اللحظات السريعة من يعلم .. ربما بدأ فى

التخلص منى داخل نفسه . كم كان غباء منى فى هذا المساء عندما قبلنى ، أن أبعد هكذا وبسرعة ! أكيد أننى ضايقته بذلك وافقدته شجاعته . أصبح واضحا الآن كم أتعلق به كثيرا .. كانت فقط فكرة أن أفقده تجعلنى أشعر بالدوار كما لو كانت هُوة عميقة تفتح أمامى .

وفى الصباح التالى كنت أنا التى تعطيه الإشارة باليد ، لنتقابل فى المساء .

بجزع شديد كنت أنتظر حلول الظلام . كان اليوم كله حارا رطبا والريح ساكنة ، والجو يحبط. عندما تسللت للخارج وأردت المشى على العشب حتى حوض الخضر . وقفت فجأة أمام أبى الذى عادة ما يكون خارج المنزل فى ذلك الوقت .. من الرعب لم أستطع أن أحرك ساكنا . اعتقد هو أننى ذاهبة للحديقة لأستنشق بعض الهواء الرطب ، أخذنى فى ذراعه وأصطحبنى بطول الطريق ، سعيدا ، بالدردشة معى بعض الوقت .. مررنا عدة مرات على نفس المكان .. الذى ينتظرنى فيه «ماهر» . كنت مضطربة لدرجة أننى كنت أعطى لوالدى إجابات مقتضبة ولحسن حظى لم يلفت ذلك انتباهه .

اضطررت لخداعه ، قلت له أن عندى صداعا وأرغَب فى النوم .. وبمجرد أن وصلت غرفتى ، أسرعت إلى سلالم الخدم وعبرت المطبخ دون أن أقابل أحد عدوت إلى حوض الخضر . كان هذا خطرا . كان من الممكن أن يلاحظوا غيابى ويثبتوا علىّ الكذب بحثا عن الحقيقة ولكن ماذا تعنى هذه المخاطرة إذا ما قورنت بفقدان «ماهر» !.

لم أقابله عند بوابة الحديقة فالظلام كان حالكا . ناديت عليه بصوت منخفض .. لا إجابة . وفى خوف فتحت البوابة ودخلت حديقة الجيران . كنت أكاد أكون قد وصلت للڤيللا عندما لمحت «ماهر» . أسرعت نحوه ورميت نفسى بين ذراعيه لمس على شعرى بنعومة ، برقة، وغطى جبهتى وخدودى ورقبتى بالقبلات . وسمحت له بتقبيلى فى فمى .

إن صوت صخب أقدام هو الذى جعلنا ننتفض ولا نحرك ساكنا ، وبخفقات قلب مضطربة وقفنا فى الظل وهمسنا .

قال لى : «هل ستذهبين غدا مع صديقاتك إلى البلاج؟»

قلت : «ربما» .

قال : «اذهبى معهن وقابلينى عند خيام البدو» .

رأيت البدو من قبل ، الذين يرعون خرافهم وماعزهم بين الصخور البحرية .. وافقت وبأريحية كنت أجرؤ على عمل أى شىء «لماهر» .

كانت مدموازيل «هورتان» هى الأولى التى تحملت تدفق مشاعرى عليها . أسرعت نحوها وحضنتها بافراط لم يحدث من قبل .

«آه ، كم أحبك بشدة يا مدموازيل» .

قالت هى: ماذا حدث لك يارمزة؟ أنت غير طبيعية!.

قلت لها: أنا ببساطة سعيدة يامدموازيل!.

اليوم التالى ، يوم أحد ، ستذهب هى كالمعتاد إلى الكنيسة فى باكوس إلى القداس الباكر .. طلبت منها أن تأخذنى معها ، وفى الطريق أنزل عند صديقاتى .

أخذت مدموازيل «هورتان» مدام «هنريت» إلى الكنيسة وتركتنى فى رعاية «كاميلا» لكن ليس دون أن تأخذ وعدا ألا أنزل الماء ولا حتى الذهاب بالقرب من الماء . خدعتها بأن أظهرت لها كتابا ، أردت أن أقرأه على البلاچ .

لم أفكر بالطبع فى القراءة ، بمجرد ذهاب صديقاتى للماء .. اختفيت فى ملاية مغطاة ، محجبة ، وخلف أكواخ الحمام تسلقت الصخور إلى أعلى ، ومن على بعد شاهدت الخيمتين نحو الشرق .. هاهم البدو مع قطيعهم ، بدت الخيام مهجورة رأيت «ماهر» يقف هناك ويلوح لى.

فى هذا اليوم شعرت بإرتكابى أعظم جنون فى حياتى . مرت لحظة وأنا أشعر بالقرف ، فعندما تسللت للخيمة ، كنت أتوقع مكانا قذراً مليئا بالحشرات. لدهشتى كان نظيفاً جدا بالداخل . وحينئذ احتوانى ماهر بذراعيه وضغطت شفتيه على شفتى . وعندما رفعته عنى لأراه .. وجدته جميلا ، جميلا فى بدلته كما هو فى الزى الرسمى للحرس . كنت أتعجب للتفصيلة الفخمة لجاكيته الرمادى اللون ودبوس الكرافتة والياقوت الأحمر فى خاتمه والمقبض الفضى لعصاه، وزهرة القرنفل فى فتحة الزرار . الزهرة التى أخرجها وأعطاها لى ، وقفاز يده الجلد الذى لمسته ووجدته ناعما . كم كنت أود أن أربت على يديه العاريتين .

كان هو الذى قال لى : «ما أجملك يا رمزه !»» .

كنت ارتدى فستانا أبيض بحزام من التافتاه الزرقاء ، وصندلا أبيض ، الملاءة

منسابة على الأرض وحتى الحجاب الأبيض الذى غطى رأسى . وكان الاحساس بنظرته على وجهى غير المحجب بمثابة استسلام .. استسلام لوجودى كله . قلت له : «ماهر!. متى سنتزوج» .

– «فى أقرب فرصة يا حبيبتى» .

– «عليك أن تطلب يدى من والدى الآن يا ماهر» .

تردد : «بمجرد أن أقدم له طلب الزواج ، لن يسمح لنا أن نتقابل مرة أخرى ، رمزة.. هل فكرت فى ذلك؟» .

– «لا» لم أفكر فى ذلك . المخطوبون لا يسمح لهم برؤية بعضهم ! وربما يمنعنى والدى من زيارة «بهيجة» . تخيلت أن طقوس كتب الكتاب ستقام بعد عودتنا للقاهرة .

قلت له : «دعنا ننتظر اسبوعا وقبل رحيلنا اطلب يدي» .

تواعدنا «أين نتقابل مرة أخرى» . «فى الحديقة» . «أو فى إحدى الخيام التى يؤجرها البدو عن طيب خاطر».

حين عدت حكيت لصديقاتى كل شيء . لم تعلق إيزابيل . وكاميلا رأت أننى جريئة أكثر من اللازم : «الرجال يريدون دائما ما هو أكثر من استطاعة المرء ، لابد أن تعارضيه .. إن هذا احترام لنفسك .. خافى من النتائج المترتبة على ما فعلتيه .. لمصلحة حبك .. فتسعة من عشرة من الرجال الذين تتنازل لهن الفتيات قبل الزواج .. لا يتزوجنها .. يتركونها» .

ثم ذكرت لى بعض الأمثلة .. لكن هذا لم يؤثر فيّ .. تذكرت فجأة حكايات البنات اللاتى فقدن عذريتهن وعوقبن بلا رحمة من أسرهن . كنت أعلم كذلك أنه إذا زلت قدما فتاة ، ليس هناك وجود لأى رحمة . وبالرغم من حب والدى الشديد لى ، لم يكن ليتسامح كان سيلعننى ولا يحضر أحد لمساعدتى . ولأنى كنت أحب ، كنت أيضا عطشى للاستقلال . قررت أن أحمل قدرى فى يدى . ثم نجحت أن ألزم ماهر حدوده عند لقاءاتنا اليومية .

تركنى لمدة أسبوعين كان فى مرافقة الخديو عباس إلى الصيد فى ضيعته واتفقنا على أن يكتب لى على صندوق بريد «إيزابيل» ، كتب لى مرة واحدة فقط بعض العبارات المبتذلة التى خيبت أملى فيه . وفى كل يوم لم أكن أستطيع الذهاب فيه مع «إيزابيل» أو «كاميلا» للبوستة ، كنت انتظر عودتهما على نار وكان من الصعوبة إخفاء همومى المتزايدة .

وبدأت أفكار عكرة تعـذبنى . كنت أشك فى حب مـاهر وأتخـيل نفـسى فى المستقبل كزوجة ضابط فى الألوان القاتمة . حسدت صديقاتى اللاتى احتفظن بهدوء الروح بعيدا عن محبيهم ، واكتفين بتبادل الرسـائل المنتظمة . وجدت كل الأعذار الممكنة لماهر وقلت لنفسـى : كل شىء تمام ، وحتى أقنع نفسى بذلك ، أنه يستحق حبى أوصف لايزابيل وكاميلا مميـزاته ، كانتا الوحيدتين اللتين اسـتطعت التحدث معهما عنه . لكن لم أجرؤ مرة واحـدة فى سؤال بهيجة عنه . كنت وحيدة معزولة . بحثت عن الاماكن التى كنت أقابله فيها . ابحث عن وجهه ، صوته ، أنفاسه ، طعم قبلاته .

بقى أكثر مما كان مخططا ، وفى كل مرة كانت هيئة أحد المارة تذكرنى به. خفقت جوانحى ، ومن الفراندة كنت أسمع كل خطـوة فى الـشارع ، كل حركة حصان ، كل دوران عجل ، كنت اسمع جلب الأصوات يقترب منى ويبتعد مرة أخرى . وبات معلوما لى بوضـوح لم يـسبق من قبل كم أنا متعلقة بماهر جدا .

أخيرا وذات مساءٍ رأيت الضوء فى شباكه ، ثم دخل الفراندا ورفع ذراعه بوضوح من الناحية اليمنى المضيئة للباب المفتوح . ارسل لى قبلة باليد .. كانت تعنى النزول له .

لم يذهب الجميع عندنا للنوم بعد ، ومع ذلك نجحت فى سرقة نفسى من المنزل وعدوت إلى بوابة الحديقة .

كل التوبيخات التى على لسانى ، نسيتها . تركت ماهر يعانقنى بإشتياقى الكامل له . وكان هذا المساء غامرا بالمشاعر حتى أنى خفت على نفسى . وليس فقط منه ، بل كان يجب أن أحترس من نفسى . ثم سألت نفسى إلى أى مدى ومدة أستطيع أن احتفظ بقواى . ألححت عليه ألا يؤجل طلب الزواج ، وأكدت له رغبتى فى أن أصبح زوجة له بالرغم من كل المصاعب .

الفصل الخامس

الـــزواج

١ - حمام السيدات

اليوم هو الأحد ، وأنا أكره أيام الآحاد فى سان ستيفانو بشكل يفوق الوصف، كانت بهيجة تنام عندى لأن زوجها وأخاها فى رحلة ، ثم حضرت نرجس إلى الغرفة قبل الظهر ، وأقنعتنا بمرافقتها للبلاج .

المؤكد أن الطريق يتم تمهيده لشىء ما ، لا أستطيع فهمه !.

الزحام شديد ، ولكن نرجس تجد نفسها فى جوها الطبيعى ، تتلقى التحية من كل جانب .

تتوقف أثناء سيرها عند كل ما يمكن أن يباع أو ينظر إليه على قارعة الطريق: مجوهرات لا قيمة لها .. قماش رخيص .. قارئات كوتشينة .. عرافات . لم تذهب نرجس مطلقا للماء .

كانت تخاف البحر ، حتى فى الخليج الضيق بسان ستيفانو ، إلا أنها أصرت على استحمامى أنا وبهيجة .

عندما خرجنا من كوخ الحمام أنا وبهيجة بعد تغيير ملابسنا ، وجدنا نرجس مندمجة فى الحديث مع سيدة كبيرة فى السن ولها هيئة رسمية ، أشعرتنى نظراتها المتفحصة لى بأننى عارية تماما حتى من ثياب البحر .

وغمزة عين ووكزة كوع ، قالت بهيجة بعد أن ابتعدنا قليلا عنهما : «هذه هى أمينة التركية ، أشهر خاطبة فى الإسكندرية كلها . هل لاحظت كيف كانت تنظر إليك ؟!

ثم استطردت دون أن تعطينى فرصة للإجابة : لقد حضرت هنا بسببك .

سمعت من قبل عن هذه السيدة ، جارية سابقة لأسرة طومسون . كما كانت ماهرة فى فن تقريب الفتاة من الرجل .

الخاطر الأول الذى دار برأسى .. أن أمينة التركية مكلفة من أسرة ماهر لخطبتى . فوالد ماهر يعرفنى .

بشعر مهفهف وابتسامة مضيئة للخاطبة .. رجعت إلى كوخ الحمام .. ثم ذهبت مرة أخرى لبهيجة وداعبتها فى الماء هنا وهناك .

كنت سعيدة للغاية .

بعد لحظة جلسنا فى الرمل ورمينا أمينة التركية بنظرات مسروقة بين الحين والحين .. كانت تراقبنا .

قالت بهيجة : «هى تعمل حاليا على تزويج أخى» .. شعرت بالسعادة أكثر .. يعنى صدق ظنى .. إذن فهى افتتحت المحادثات على زواجى من ماهر وعلى طريق مستقيم .

قلت لها : «جيد جداً» .

قالت بهيجة : «حان الوقت ليفكر فى الزواج . لقد فكر منذ عامين فى ذلك» . ولكن الفتاة التى أراد أن يتزوجها هى ابنة رئيس المراسم ، فرفض أبى أن يقدم عرضا للزواج ، وقال لأخى : «هؤلاء الناس لا يناسبوننا ، بالرغم من أننا نملك أموالا تعادل ثلاث مرات ما يملكون ، فسوف تلفت نظرك دائما بأنها ابنة باشا وسوف تنظر لنا من أعلى ، وهذا ما لا أقبله» .

عضدت على شفتى . هل سأكافح ضد الأحكام المسبقة ؟ وهل سيعارض والد ماهر أيضا ارتباطنا ؟ وهل مباحثات أمينة التركية ليست من أجلى ؟

استفسرت مهمومة : «ترى من ستكون عروسة المستقبل لأخيك» ؟!

قالت بهيجة : «لم أتعرف عليها بعد ، ولكن أعلم أنها الابنة الوحيدة لتاجر أخشاب ثرى من هذه المنطقة» .

ـ وهل ماهر موافق على هذا ؟.

ـ وكيف لا يوافق ، فهى وريثة غنية جدا !.

انتابنى الغضب الرنان ، لو كنا وحدنا ، لكنت صفعت بهيجة . انتفضت فجأة راجعة لكوخ الحمام . نادت نرجس علىّ ، لكننى مررت عليها وعلى أمينة بسرعة ، كما لو كنت لا أسمع شيئا .

وبيدٍ مرتعشة غيرت ملابسى .. لقد خدعنى ماهر إذن ! أراد أن يتزوج أخرى! ولذلك لم أره منذ عدة أيام ، وادعى بأنه لا يمكن أن نتقابل مرة أخرى . حتى لا يضبط ويعرض نفسه للخطر ! ولكن لابد أن أقول له رأيى وأن يسمع وجهة نظرى!.

كان أحداً عصبياً .. فحتى أمام بهيجة التى لم تبعد عن جانبى اليوم كله كان سلوكى بغيضاً ، لكنها نظرت إلىّ دون فهم وتحملتنى بصبر الملائكة ، وهذا عذبنى

أكثر .

إلى جانب هذه المصيبة لم توجد كل من ايزابيل وكاميلا في المنزل ، فمن بإمكانه أن ينصحني الآن ؟ من يمكن ائتمانه على عذابي ؟!.

واتخذت قرارا غريبا .

تربصت في المساء انتظارا لعودة ماهر للمنزل حتى انبعث الضوء من نافذته ، فتركت بهيجة ومدموازيل هورتان وحدهما في الصالون ، وأسرعت من خلال الحديقتين ودخلت منزل الجيران .

كان كل شيء هادئا ، باستثناء بعض الأصوات التي وصلتني فقط من المطبخ.

صعدت السلالم متسللة إلى أعلى حيث لمحت شعاع ضوء متسرب من تحت الباب .. طرقت الباب .. ماهر فتح .. وجدته يحلق في وجهي .. كان حضوري بالتأكيد شيئا غير متوقع .. ويبدو أنني كنت غاضبة جدا .. حتى ظن أن هناك مصيبة حدثت .

قال بلون مبهوت : «ماذا حدث يارمزة» ؟.

دخلت وأغلقت الباب .. قلت لنفسي بالتأكيد هو مفزوع لأنني اكتشفت لعبته المزدوجة .

نظرت في عينيه مباشرة وسألته : «متى سيكون حفل الزفاف على ابنة تاجر الخشب» ؟.

عاد اللون إلى وجهه ثانية وقال : «لقد افزعتني يارمزة ، جعلتني أعتقد أن منزلكم شبت فيه النيران» .

صرخت فيه : «أجبني .. هل خدعتني بوعودك بالزواج ؟ لا تظن أبداً .. أنني سأخدمك كزوجة ثانية .. يبدو أنك لا تعرفني جيدا ياماهر ؟.

ضحك وأمسك يدي بحنان .

صرخت فيه : «لا تلمسني» !.

ـ رمزة .. من أخبرك بتلك التخاريف ؟ هل هي بهيجة ؟ ولكن كيف تصدقينها؟

ـ بهيجة قالت الحقيقة .. أنا اعلم جيدا أن الفرد في أسرتكم لديه هواجس طبقية .. ولذلك يتزوج فقط من عائلات التجار !.

يبدو أنني نجحت أخيرا في جرح مشاعره .

قاطعني بقوة : «رمزة .. من فضلك ! صدقيني .. أنا لم أفكر مطلقا في أن

أتزوج غيرك ، وليس لى علاقة بهذه الفتاة فى الإسكندرية ، لقد علمت بالأمس فقط بمقصدهم ، ورفضت على الفور رفضا قاطعا .. فى النهاية أنا رجل .. ولا يستطيع أحد أن يزوجنى ضد رغبتى . كما أن علاقتى بوالدى متباعدة .. هو يعيش حياته وأنا أعيش حياتى .. لكننى مسرور حقيقة انك حضرت إلى هنا واستطيع أن أخبرك أولا عن الخطوات القادمة» .

استطرد قائلا : «قبل أن يتقدم والدى بطلب يدك للزواج منى ، سوف يزوركم شخص يمنحنى شرف التوسط لى هو : واصف باشا شخصيا .. ولا أعتقد أنه يوجد من لديه فرصة أكبر منه للنجاح» .

كان واصف باشا محافظا للإسكندرية وصديقا لوالدى .. شعرت كما لو كانت كل همومى قد تبخرت .

وضع ماهر يديه فى يدى ، شعرت بلمسته الرقيقة تحمل لى دفئاً وشهوة عارمة تدفقت إلىّ بين ذراعيه .. بدأ يقبلنى .. كان بالتأكيد يستطيع أن يفعل معى ما يشاء .. ومع ذلك فقد تخلصت منه بحرص .

ثم همهم قائلا : «رمزة يجب أن تذهبى الآن» .

ألم تفهمى كم كنت مستهترة بحضورك هنا ؟! إذا رآك أحد هنا ، لكانت فضيحة عظيمة وتصبح سمعتك الطيبة فى خطر .

قلت له : «أفضل أن أفضح نفسى ليصبحوا مجبرين على تزويجنا» .

قاطعنى بحزم : «ولكنى لا أفضل أن اتخذك زوجة بهذه الطريقة» .

ألقى بنظرة على الممر وسلالم المنزل . كان الطريق خاليا . تركته مترددة، خائبة الأمل وقلقة ، يساورنى شىء غامض بأننى لن أراه مرة أخرى .

وصلت المنزل دون أن يلاحظنى أحد .

لم تمر سوى عشر دقائق لكنها بدت لى كأنها دهر كامل .. وجدت بهيجة ومدموازيل مازالتا تتحدثان عن وصفات الطبيخ ، ونماذج التطريز .

نظرت إليهما جيدا .. بدتا لى مثل كائنات غريبة من عالم آخر . ادعيت التعب وذهبت لغرفتى .

ذات يوم جاءت الخاطبة أمينة التركية للزيارة . دعتنى نرجس ورفضت الظهور .. جاءت بنفسها ووبختنى .. كان شجاراً حامياً .

«مش عايزة اشوف هذه المرأة هنا يانرجس ، مفهوم ، أنا لا أقبل المزايدة علىّ

.. لست سلعة تباع وتشترى أو تحبس فى الحرملك .. نحن لا نعيش فى عصور العبودية يانرجس» !

قاطعتنى قائلة : «أنا كنت جارية وعشان كده ماتبهدلتش» .

«مــاشى .. لكن أنا مش عــايزة اكــون جــارية .. ولن أتزوج إلا الرجل الذى اختاره بنفسى والذى أريده» .

قالت بحدة : «كيف تجدينه .. هل لك أن تخبرينى .. من أين تأخذين رجلك المختار هذا ؟ ربما من الشارع ؟ ربما تطلبين أنت الزواج منه ؟ عندما يحتاج المرء مجوهرات .. يطلب الجواهرجى فيحضر له ما يحتاجه . وإذا بحث الفرد عن شقة يتوجه إلى سمسار عقارات ! إذا أراد الواحد زوجة فيكلف خاطبة بذلك ، عندها عروض كثيرة تقدمها ! وهذه التركية هى المناسبة لأنها تعرف كل العائلات الكبيرة بالضبط .. وهى الأفضل فى الإسكندرية» .

آه .. لقد أصبح واضحا الآن فقط أن نرجس تدبر شيئا ! ربما اعجبتها الإسكندرية فأرادت أن تزوجنى هنا .. وحتى تستطيع زيارتى باستمرار .

وفهمت أيضا أنها وبالرغم من معارضتى سوف لا تتنازل عن خطتها بسهولة وبسرعة ولم أخبرها بشىء عنى وعن ماهر . ربما كان عدم محاولة كسبها فى صفى كحليفة لى خطأ منى .. ولكنى كنت أعلم شغف نرجس بالثرثرة .. وخشيت أن تذكر شيئا أمام أبى دون أن تقصد فيغضب منى .

بعد الظهر زارتنى إيزابيل وكاميلا . حكيت لهما القصة بالكامل ..

ضحكتا بلطف على مشاجراتى مع نرجس والخاطبة .. وعندما أخبرتهما بزيارتى لماهر .. لامتنى كاميلا .. إيزابيل صمتت ووجها ينم عن اعجاب لا يصدق .. وأرضى هذا غرورى .

وبعد قليل انضمت إلينا أيضا بهيجة وقالت : «لا أعرف ، ماذا حدث لأخى» ؟

صمتت برهة ثم أضافت : «أرسل عسكرى المراسلة ليأخذ أشياءه وترك رسالة بأنه سيبقى فى المعسكر فترة طويلة» .

كاميلا وإيزابيل نظرتا إلىّ : «شعرت بأن لونى قد شحب وبدأت أخاف من جديد» .

وبدأت أسأل نفسى : «هل أراد ماهر أن يتجنبنى ؟ هل كانت تأكيداته فى المساء مجرد أكاذيب مرة أخرى ؟ لا أعلم .

قبل العشاء بقليل علمت أن واصف باشا كان ضيفاً على أبى . إذن ماهر لم يكذب عليّ .. ثم علمت أن انتقاله للسكن فى المعسكر هو مجرد اجراء وقائى .. لقد فضل ألا يسكن بالقرب منى طالما أن المفاوضات مستمرة .

ظللت نصف الليلة شبه مستيقظة .. في نوم مضطرب .

فى صباح اليوم التالى ذهبت مباشرة لوالدى وكان قد جلس للإفطار .. كنت على استعداد لدفع أى ثمن حتى أراه فى تلك اللحظة .. لم أتوقع طبعا أن يخبرنى بقراره .. ولكنى كنت آمل أن تخبرنى ملامح وجهه بكل شىء .

ولكن وأسفاه ! لقد رحل ووجدت بدلا منه مدموازيل ، التى بحثت عنى لتعطينى رسالة من والدى أعطاها لها ، قرأتها عليّ ، كانت الرسالة قصيرة ومختصرة وجاء فيها : «سأعود للقاهرة ، اهتمى من فضلك فى غيابى بألا تتقابل رمزة مع صديقتها بهيجة» .

سألتنى مدموازيل فى دهشة : «ماذا حدث يارمزة ؟ أى إثم اقترفت بهيجة المسكينة» ؟

وجهى المضى زاد من حيرتها .

– «بهيجة ليس لها علاقة بالموضوع يامدموازيل ، ولكن أنا التى سوف اتزوج أخاها» .

استمر ذلك طويلا حتى فهمت وحكيت لها أننا نحب بعضنا .. ماهر وأنا .. ولم أحكِ لها كل شىء بالطبع .

– «ولماذا يمنعونك إذن من رؤية بهيجة التى ستصبح صهرتك» ؟

– «هذه عادة عندنا .. ربما تقولين أنها عادت غريبة .. ولكن بإختصار : «غير مسموح لأحد أن يظن بأن هناك شيئا بينى وبين عريس المستقبل ! حتى أنه غير مسموح له بملاحظتى» .

فجأة ظهرت الدموع فى عيون مدموازيل .. وشعرت بأنها مهمومة بمستقبلها ، عانقتها ، وأكدت لها أننى لن افترق عنها أبداً ولن أثق فى غيرها .

بدأنا نتجاذب أطراف الحديث ، ويبدو أن ذلك اسعدها ، أن تعيش ماضيها الخاص مرة أخرى .. وهى الأيام الجميلة عندما لاطفها ضابط الصاعقة .

فجأة سألتها : «هل قبلك مرة يامدموازيل» ؟

احمرت خجلا حتى جذور شعر رأسها .. قالت : «آه يارمزة هذا ما لا يجب أن تعرفيه» !

ألححت عليها : «أخبريني» .

– «في الروايات يقبل المحبون دائما» !

همست : «لم يقبلني أبداً .. فأمي لم تتركنا وحدنا أبداً» .

ابتسمت وأنا مشفقة على مدموازيل هورتان المسكينة ! أنا على العكس ! قبلني وتمتعت بحرية أكثر منها في الحب ! وكان حظي أعظم منها في حياتي كلها .

بعد أيام عندما رجعت أنا ومدموازيل من زيارة لصديقاتي الفرنسيات ، طلبتني نرجس ، ومن الفضول ذهبت استطلع ما يحدث .

في غرفة المعيشة اجتمعت نساء المنزل ، بين أيديهن أنوا ع من القماش ، بينما هناك خياطة تحت أمر نرجس .. تأخذ مقاساتهن . كن يتصايحن ويتضاحكن بصوت عالٍ ، حتى أنهن لم يلاحظن مراقبتي لهن من الباب .. وبدون كلمة تسللت مرة أخرى ، مشحونة بالفرح .. فعندما يوجد ملابس جديدة في الحريم دون أن يكون هناك عيد .. فلهذا معنى واحد فقط : «حفل زفاف .. ومن يكون غيري العروس» ؟.

وعندما قابلت نرجس صدفة ، سألتها : «لماذا يحصل الجميع على ملابس جديدة إلا أنا» ؟.

تألق وجهها كاملا : «الصبر يا ابنتي سوف يصيبك الدور» !

– «دعك من الأسرار يانرجس .. فأنا اعرف كل شيء» .

– «كنت تعلمين دائما أكثر من الناس الآخرين» .

– «والدي أعطى موافقته بسرعة» .

– «موافقة . لماذا» ؟

– «ماهر – محمد – مصطفى .. لا أعلم ما اسمه» ؟

قالت ومازالت تضحك : «حسنا إذن احتفظي بهذا السر لنفسك» !

وبتعليمات من نرجس ذهبت مدموازيل هورتان معي إلى المدينة إلى «هانو» ، واشترت لي فستانا أبيض مطرزاً باللؤلؤ وحذاء من الستان ومروحة لطيفة في شكل باقة زهر ، كما كانت الموضة زمان .

لكن مدموازيل بدت حزينة وكانت تتجنب نظراتي .

سألتها هل هي متوعكة ؟ فأجابتني بهزة رأس فقط .

كم كنت أنانية .. مثل كل البشر السعداء ، لم أهتم بها مرة أخرى . أمر واحد أدهشني حقا : زوجة أب ماهر لم تحضر حتى الآن عندنا .. خمسة أيام مرت منذ زيارة المحافظ ولم تظهر سيدة من أسرة ماهر عند نرجس .. إذن في الأمر شيء.

٢- حقوق ميت

لاحظت ذات صباح من الفراندة أن الخادمة الصغيرة لبهيجة تلوح لى .. واشارت للبوابة عند حديقة الخضر. اسرعت الى الخارج فوجدت خطابا فى انتظارى . عدت مرة أخرى إلي غرفتي فتحت الخطاب وبدأت فى القراءة بشغف .. الخطاب من ماهر لكن أخباره الجديدة كانت أسوأ مما أتصور .

كتب: «أخبر أبوك واصف باشا، عدم موافقته على زواجنا ، لأنه مرتبط من قبل بوعد سابق، أنا يائس، وحتى يواسينى، واصف باشا أكد لى ، بأنه سيطلب يد أى بنت أختارها وحتى لو كانت ابنة رئيس الوزراء . لكني قلت له لن أتزوج أبدا إذا لم اتزوجك ».

سقطت من كل السحاب وأدمعت عيناى أثناء التفكير، لأن والدى رفض تزويجي من ماهر ، وأصبحت غاضبة. أبى مرتبط بوعد ؟ أى وعد هذا؟ هل هى حجة؟! عندئذ تذكرت الملابس الجديدة واشارات نرجس. أرادوا تزويجي، هذا أكيد ولكن مِنْ مَنْ ؟ وهل صدقوا أننى حقا سأقبل الارتباط بأى شخص ؟ مستحيل أن أتنازل عن ماهر ! كنت مستعدة للمقاومة.. للتمرد ، إذا كان ضروريا .

وبسرعة محمومة كتبت خطابا لماهر من أربع صفحات، اؤكد على خلود حبى له واخلاصى . توسلت اليه الا يتراجع ، فأنا ايضا لن أتراجع ، ولن أقبل الزواج من غيره .

وعندما خرجت لاعطى الخطاب لبهيجة.. قابلت فى الممر مدموازيل هورتان، يبدو أن شكلى كان غريبا لأنها نظرت إليّ مذهولة . دفعتها الى غرفتي .. سألتها فى تحفز:

«بمن يرغب أبى فى تزويجي ! هل تعرفين شيئا ؟..

أجابت والدموع فى عينيها :

«هل تعلمين يامدموازيل ، من يكون الرجل، الذى أحبه . أبى رفض طلبه للزواج منى.. بحجة أنه عقد عهداً لشخص آخر ! من هو الذى وعدنى به؟

وبكل المرارة شددت على كلمة «وعد» .

لم تجب مدموازيل .

«من يكون هذا ؟ انشبت أظافرى فى ذراعها .

وأخيرا أخرجت ماعندها .. «أنا سمعت بأنك ستتزوجين من أخ خطيبك المتوفى».

إنهارت الدنيا أمامى . أخو مدحت ! فجأة ظهر مدحت مرة أخرى الذى نسيته تماما .

كنت حزينة وثائرة.. مدحت مات ! وهذه الفترة التعيسة انتهت ونسيتها كما نسيته هو، هل يستطيع أحد أن يعيد الأموات إلى الحياة؟.

تدفقت أسئلتى على مدموازيل هورتان ولكنها لم تعرف أكثر من ذلك . عندئذ بدأت أبحث عن نرجس، وجدتها فى المطبخ . «يا خالتى يجب أن أتحدث معك » . بحلقت فىّ بفم مفتوح. ويبدو أننى أظهرت وجها عابسا أفزعها فذهبت معى إلى غرفتى فى الحال .

ـ «بمن سيزوجونى» ؟

راوغتنى مرة أخرى ، قالت:

ـ «فلتكن لديك ثقة فينا يارمزة ، سيكون زوجا طيبا لك» .

ـ طيب أو سىء من هو ؟

لا أستطيع أن أبوح لك بذلك، أبوك سيغضب !

ـ ولكننى أريد أن أعرف ! إذا لم تجيبى سوف أسأل أبى نفسه ..

ـ لا تفعلى ذلك .

ـ إذن تكلمى !.. كان علىّ أن ألح عليها طويلا حتى حصلت على كل شىء تعرفه .

وأخيرا تكلمت .. كانت أكثر القصص غرابة هى التى سمعتها فى حياتى، وكنت بطلة هذه القصة ! فبعد حوالى نصف العام من موت مدحت بدأت نرجس فى ترقب زوج آخر .

قالت: «ماذا ترغبين.. الفتاة فى عمر الزواج يجب أن تتزوج».

كنت شغوفة جدا لسماع بقية القصة لأشتبك فى حديث عن هذا الموضوع ، ومع نرجس أكاد لا أصل الى نهاية ابدا .

ولكن كان هناك أمام تزويجى عائقا هو أن أسرة مدحت لم تطالب برد هدايا الخطبة ».

ـ «لماذا لم تعيدوها لهم ببساطة » ؟

ـ «مستحيل! لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك ، وإلا كانت إهانة» .

ـ «ولماذا عاقت هدايا مدحت زواجى؟» .

ـ «لأنه طالما لم يستردوها تكون الخطوبة قائمة ».

ـ «الخطبة مع من ؟ مع جثة مدحت» ؟

ـ «الخطبة لا تربط الفتاة بالرجل فقط وإنما بأسرته أيضا».

وعند هذا الحد لم أتمالك نفسى وبالرغم من الخوف والغضب ضحكت وقلت: هذا يعنى طالما بقيت الهدايا عندنا .. يصبح لأسرة مدحت حق التصرف فىّ !

أجابتنى نرجس بجدية: «هذا صحيح.. لأنهم لم يطالبوا باسترداد الهدايا . لذلك أرسلت الست خديجة كوسيطة إليهم . كانت عليها أن توضح لهم من خلال المودة، بأن يعملوا فينا معروفا ويستردوا الهدايا» .

ـ هل ظهر عندك فى هذه الفترة خطيبا آخر لى ؟

ـ بالطبع ، ترى ومن أسرة مرموقة كذلك . وذلك ما أكدته ست خديجة ..

ـ أوه، كم كان ينوى أن يدفع مقابلا لى؟!.

ابتعدت نرجس عن ملاحظتى المستفزة ، ربما لم تفهم مطلقا ماكنت اقصده .

وأضافت: «لم يتحدد بعد .. فقد انقطعت المفاوضات لأن والد مدحت طالب بحقه ».

ـ أوه ياه ، أخيرا له حق الشراء أولا ولكن فى ممتلكات من سوف اذهب؟ تقريبا فى ممتلكات والدة مدحت» ؟..

لا.. عندهم ابنان.. كمال الدين وفاضل، وكما قال مظهر بيك لأبيك عندما زاره بتكليف من والد مدحت ، إنهم حريصون على الارتباط بأسرتنا وتركوا لوالدك الخيار بين الاثنين .

ـ تركوا لأبى الخيار يالها من لفتة ! ولكن أنا صاحبة الشأن ألم يفكر أحد فى ذلك !

وبأسنان مضغوطة أرغمت نفسى على البقاء هادئة .

ـ «اكملى حديثك يا خالتى .. اختار أبى واحدا ..

ـ لم تكن هناك خيارات كثيرة.. فالابن الاصغر يدرس فى باريس الحقوق وينهى دراسته بعد ثلاث سنوات وحتى هذا التاريخ لا يستطيع أحد أن يترك

تنتظرى هكذا.. كان ذلك واضحا . الاكبر كمال الدين ، حاليا يدرس أيضا فى باريس الطب، وفى هذا الشتاء سوف ينتهى من دراسته ، ويكون مر عام بالضبط على موت مدحت ، وهذا يناسبك تماما ، ولذلك فليس هناك سبب آخر لتأخير الزفاف أكثر من ذلك.

ـ «كل هذه الاستعدادات الكاملة للاحتفال فى الشتاء القادم» ؟

«لا.. كمال الدين سيقضى بعض الايام فى القاهرة قريبا ، وهى فرصة مناسبة لكتب الكتاب حينئذ سنكون فى شهر رجب – شهر مناسب» . والآن تبتسم نرجس مرة أخرى . الفزع الذى سببته لها منذ قليل – اختفى – فلم تتعلم شيئا من كل مناقشاتنا ومشاجراتنا . قضية مدحت لم تجعلها تفكر أدنى تفكير.. نرجس لن تفهم مطلقا، فظاعة ذلك بالنسبة لى .. وهو أن يعاملونى كبضاعة عدة مرات ، أن يكونوا أوصياء علىّ، يعدون لحفل الزفاف.. دون حتى أن يقولوا لى كلمة واحدة . بالأمر يجب أن افتح وأغلق مشاعرى. اعطونى رجلا ويعتبروا ذلك طبيعيا أن أحبه من قلبى وأخدمه ، وحتى لم يرانى مطلقا ، لقد أخذنى فقط كزوجة لأنى كنت مخطوبة لأخيه الأكبر.. كنت ملك يجب أن يتداول فى الأسرة من واحد لآخر. حتى إذا مات الثانى، يكون ألدور على الثالث.. الذى مازال نصف طفل، وإذا لم يكن هذا فربما يكون الأب العجوز! معدتى تتلوى من القرف، كل شىء داخلىّ رفض هذه الإساءة.. وعاهدت نفسى ألا يصير هذا الزواج أبدا.. أبدا..

وكما لو كنت فى حلم سمعت نرجس تكمل حديثها: كتب الكتاب سيقام فى صمت تام ، لأن أم مدحت مازالت فى حزن، فلم يخبرها أحد بعد بهذا الزواج الجديد. بعد ذلك سيسمح لخطيبك بزيارتك يوميا، إذا أراد. أبوك سمح بذلك، كما ترين كيف يفكر والدك بعصرية؟ من الممكن شرب الشاى معا، تماما كالأوربيين، شكله وسيم جدا كلهم يقولون هذا. ستكونى معه محظوظة أكيد!.

«حاجة واحدة يمكن أن تطمئنى إليها» ثم نظرت لنرجس فى عيونها..

«دائما وأبدا، سوف لا أتزوج هذا الطبيب !».

ـ «ولكن أبوك ـ»

«أنا بلغت سن الرشد، وأبى ليس بالانسان القاسى. وإذا رفضت هذه الزيجة، فلن يرغمنى عليها. وأود فى التو والحال أن أتحدث معه».

ـ «لا تفعلى ذلك يا رمزة، أتركى لى هذا الأمر أفضل! وعلى كل فأبوك غير

موجود الآن فى المنزل».

لم أكن متأكدة مما قالته، ولكن كان ذلك صحيحا، فقد خرج أبى.

تذكرت فجأة خطابى لماهر، الذى أردت أن أحضره لبهيجة، صحيح كان كل اتصال معها ممنوع، ولكنى كنت فى حالة نفسية متمردة، وبهيجة كانت أخت ماهر، ومعها كنت أستطيع أن أتحدث عنه، اسرعت إلى الحديقة وتسلقت بوابة الحديقة، ووقفت قليلا قبل غرفة بهيجة.

ـ «بهيجة يجب أن تساعدينى»!.

نظرت الىّ مفزوعة وعانقتنى بشدة.

قالت: « آه، رمزة، لم تحضرى منذ وقت طويل، حتى أنى اعتقدت، انك غاضبة منى، وعندما أردت أن أستفسر عنك، لم يسمحوا لىّ بالدخول إليك».

ـ «ألم يقل لك أخوك أى شىء، يا بهيجة؟».

سألتنى فى دهشة: «أخى؟»، ثم استطردت: «ولكنى لم أره منذ ثمانية أيام.. ولا حتى صباح اليوم أو الأمس!!»

ماهر تسلم خطابه، فيجب أن يكون فى الإسكندرية.

ـ «أتعرفين أين يقيم؟».

ـ «فى المعسكر».

ـ «جميل، هذا خطاب لماهر، أعطيه للمراسلة وأخبريه بأن يسلمه باليد لماهر على وجه السرعة».

ـ بدون كلام بحلقت بهيجة أولاً فىّ ثم فى الخطاب.

قلت: نعم.. ماهر وأنا متحابان وأقسمنا على الزواج.

نظرت بهيجة فى ذهول .. لم تكن تعلم هل تضحك أم تبكى!!.

حينئذ سمعنا خطوات فى الممر، من المحتمل أن تكون مدموازيل هورتان.

همستُ لبهيجة: «بسرعة إخفى الخطاب ولا تنسى إعطائه للمراسلة، وبعدين أحكى لك على كل شىء.

مدموازيل هورتان، التى تبعتنى، دخلت، واضح أنها فى نفس الوقت ترغب فى اطاعة والدى وأتت لمساعدتى، استطعت أن أفهم ورطتها وأخذت بيدها.

ـ «عندك حق، يامدموازيل، عايزين يرغمونى على الزواج من أخو مدحت، من الواضح أن هذه الأسرة التعيسة لها الحق فىّ، هدايا الخطبة من مدحت كانت

نوعا من العربون الذى دفعوه لىّ، وأنا جاهزة للتوريد. لأنهم دفعوا ثمنى. ما رأيك فى هذا الموضوع، أنت، الفرنسية؟».

بدأت تبكى ولم تتفوه بكلمة.. وبهيجة لم تفهم شيئا مطلقا.

«نعم ، ولكن» .تلعثمت فى الرد.

«إذن هو ليس ماهر، الذى سوف تتزوجينه؟».

«ماهر أرسل لأبى يطلبنى منه للزواج ولكنه رفض بحجة أنى مخطوبة، وعلمت فقط ومنذ قليل، أن أسرة مدحت تطلبنى ، لكنى أحب ماهر ويحبنى، لا تنظرى إلىّ هكذا!! .. ألم تفهمى بعد، بأننى صممت أن يؤجر أبى هذه الفيلا بالذات، لأنى كنت أود أن أكون بالقرب من ماهر؟ منذ كنا هنا ، نتقابل، ونكتب لبعض».

قالت فى فزع: «أوه كيف جرؤت على ذلك ! إذا اكتشف أبوك هذا».

«أنا لم أندم على شىء فعلته ! سأتزوج ماهر، لعمرى.. أو أنتحر !».

«ولكن يا رمزة، إذا عارض أبوك ؟».

«سوف أحاول كل شىء لأجعله يعدل عن رأيه، وإذا لم أنجح، فأنا أعرف تماما ما ينبغى عمله».

بهيجة تولول: «يا إلهى إنها لمصيبة.. ولم ألاحظ شيئا طوال الوقت!! لماذا لم تخبرينى بشىء الآن سوف أفقدك وسوف يمنعونى من الاختلاط بك، حتى ماهر سأفقده هو الآخر، الله يعلم وهو على كل شىء قدير!».

قلت لها: «توقفى عن النحيب ، ومن الأفضل أن تفكرى لمساعدتنا. هل تعتقدى بأن زوجك يمكن أن يقف بجانبنا. فأبى يحترمه كثيرا».

قالت: «وهو أيضا يحترمه، إن عبدالسلام عندما يتحدث عن أبيك الباشا يبدو أنه يزوره دائما فى مكتبه فى المدينة، أعلم انهما يتحادثان طويلا وتكرارا مع بعضهما.. ومتفاهمان جدا.

ـ «ولكن هل سيقول زوجك كلمة حق، وحتى لو علم بأن ذلك سيضايق أبى؟».

ـ «نعم طبعا، بالتأكيد ! عبدالسلام يقف دائما فى صف المحبين، لم يكن صغيراً عندما تزوجنى قبل ذلك بقليل كان يحب إبنة عمه، العائلات كانت ضد ذلك، أرادوا تزويج الفتاة من آخر، ولكنها ماتت فى المساء قبل حفل الزفاف، وقيل بأنها سممت نفسها، عندما حكى عبدالسلام القصة كنت أسمعه يقول دائما، لا يجب إرغام أحد على الزواج».

قلت لها: «حسنا حينئذ اطلبي منه أن يدافع عن قضيتي ويكسبها، وإلا سأفعل كإبنة عمه».

ـ «آه يارمزة! أرجو الا تكوني جادة في ذلك؟».

كانت الدموع في عيون كلتاهما مدموازيل هورتان وبهيجة.

قلت محركة أكتافي: الآن أفضل الزواج على الانتحار.. ولكن في الزواج من ماهر وليس آخر!.

شرحت لبهيجة كيف توضح لزوجها الموضوع.. واتفقنا ان نبقى على اتصال: إما مباشرة إذا حقق عبدالسلام نجاحا، أو عن طريق مدموازيل وايزابيل، لأنهم سيمنعوا بهيجة من رؤيتي .. ولأنه من المنتظر والمحتمل أن نفترق إلى الأبد.. وأن تختلف عائلاتنا.. جعل هذا بهيجة تبكي من جديد.. خففت عنها وهدأتها ببعض الكلمات التي أعادت القليل من الثقة لي.

ومع ذلك فتوسلات عبدالسلام لم تجدي مطلقاً. فقد علمت بطرق مباشرة، من خلال مدموازيل هورتان التي عرفت من ايزابيل، التي عرفت من بهيجة أن أبي أعطى تعليمات مشددة بقطع كل علاقة مع أسرة ماهر، وحتى صديقاتي الفرنسيات لم يكن مسموحا لي برؤيتهن.

اعتقدت في البداية أن عبدالسلام كان غير موفق، ولكنه حاول كل شيء في استطاعته ، فقد اعتبر والدي ذلك تدخلا في شئون الاسرة الداخلية، ولم يعجبه، وأعلن بطريقة قاطعة أنه سوف لا يوافق على زواج بين ماهر وبيني، عبدالسلام أبلغني بأنه لا يعتقد أن والدي سيغير رأيه ونصحني أن أنحني للحكم.

وهذا لم أريده وبأي ثمن، هذا ما أكدته مدموازيل هورتان عندما أخبرتني بهذه الإجابة، قررت أن أأخذ قراري بنفسي، قبل المحادثة الشخصية مع أبي أن أكتب له خطاب، قضيت ليلة بطولها على الخطاب ، اصححه، واكتبه من جديد، وبعد ذلك أمزقه، كنت أريد ان اشرح له دون ان اجرحه، إلتزامي بقراري وعدم تراجعي.. أطلعت مدموازيل على البروفة الاخيرة للخطاب، نصحتني أن أعيد صياغة بعض الجمل بحرص أكثر. لم أحفظ هذا الخطاب الذي وضعته بنفسي على مكتب أبي ومع ذلك أتذكر البراهين التي تقدمت بها في عبارات مليئة بالاحترام.

وجهت إليه نداء لايقاظ العاطفة التي منحنى إياها منذ طفولتي المبكرة، ذكرته بالتربية التى غرسها بنفسه فىّ، الرضا الدائم الذى ساهم على تطور شخصيتى، ذكرته بجملة قالها مرة: من لايطع بإرادة حرة، يطع كعبد، ويحط من قدر نفسه .. ومن هذا المنطلق حاولت أن أوضح لأبى، أنه بالرغم من ثقتى فيه وبالرغم من رغبتى فى طاعته، إلا أن كل شيء داخلى قاوم فكرة الزواج من كمال الدين، لأن بينه وبينى سوف يقف دائما أخوه الميت. لم أذكر شيئا عن مقابلاتى السرية مع ماهر ، ولكن اعترفت فقط، اننا كنا نعرف بعض، وأكدت باننى على ثقة من مقاصده الشريفة وصفاته الطيبة، وان اسرته قريبة منى ومن خلال الصداقة مع أخته من قبل، وأن ذلك ليس مجرد مزاج هارب يحركنى ، بل حب حقيقى قوى متعقل.

وختمت الرسالة بأن أقسمت بحب ابى لامى وحبها له. وتوسلت له ألا يرفض حبا، ولا يرفض الرجل الذى أحبه نهائيا ويعطينى آخر، لا يمكن إلا أن أشعر تجاهه بالاشمئزاز.

قالت مدموازيل: «هذا الخطاب سوف يجعل أبوك يهتم».

وهذا ما أعتقدته أيضا، بالاضافة إلى أننى عملت حساب الحديث معه شخصيا عندما يسمح لى به، حتى يمكن إقناعه للنهاية.

فى المساء تصالحت مع نرجس التى جاءتنى وشرحت لها خططى، وأعترفت أيضا بأننى على حق ووعدتنى بدعمها.

عاد أبى متأخراً جدا للمنزل، وظللت مستيقظة على أمل أن يطلبنى.. لم يحدث شيئا، وأخيراً ذهبت للسرير.. لم أستطع النوم. مرة ومرة وأنا أصيغ الحجج والبراهين فى فكرى، والتى سأتقدم بها له فى الصباح التالى، فى خيالى قاومت كل الحجج ببراعة وبدون مجهود نجحت فى إقناعه، و أخيرا طلب لقاء ماهر، وضمه إليه كابنه، ثم تزوجنا!!.

كم كان هذا الحظ قريبا!!.

٣ ـ الهروب

جلس والدى فى الصالون الصغير بجانب حجرة مكتبه، حين فتحت الباب فى صباح اليوم التالي مرتعشة بعض الشيء، وأنا أشعر بثقة أقل فى نفسى عن اليوم السابق وعندما رأيته هناك واقفاً، اتجه بنظره الىّ شعرت بوخزة فى قلبى، وأصبح واضحا لىّ أنه قرأ خطابى، وأن موضوعى كان غير موفق، عضضت على أسنانى وأعددت نفسى لكفاح صعب مرير. كل شيء مر بسرعة.

بدأ هو:

«رمزة» وقبل أن افتح فمى: «دعينى أقول لك هذه المرة من غير تكرار: مش عايز اسمع كلمة واحدة عن أخو بهيجة. إن رآك أو كلمك أو لف دماغك، هذا سيء بما فيه الكفاية».

«ولكن يا أبى هو لم يغوينى بالمرة، فأنا أعرف أصله، نحن مناسبين لبعض، وأستأذنك فى الزواج منه».

ـ وبصوت حاد أكمل: «أنت ابنتى الوحيدة.. وهل أنا مضطر لاعطيك لابن تاجر صغير.. لإنسان جِلْف لضابط متواضع ليس له مستقبل؟ طفلة غبية!، عايزة ترحلى خلفه بقية حياتك فى السودان، من حامية لحامية، هل هذا هو هدف حياتك؟».

«يا أبى، هدفى فى الحياة هو أن أتزوج الرجل الذى اخترته وأحبه، وعندى من احترامى لنفسى ما يجعلنى لا أقبل الزواج من شخص غير مناسب لى. وبصفة خاصة لا أرغب فى الزواج من أسرة صفوت هذه، وحتى لا أصبح كقطعة ميراث تورث من أخ لآخر».

نظر إلىّ والدى، ولاحظت فى عيونه شيئا مثل انعكاس العطف الذى منحنى إياه من قبل، عندما كنا ندردش فى هذا الصالون وفى مثل ساعة الصباح هذه، شعرت بحقدى كله يذوب هناك.

ـ «يبدو أننى دللتك يا رمزة، والآن تتجاسرى أكثر.. وفى جزء من ذلك أنا مذنب، ولذلك سأوضح لك لماذا تصرفت هكذا، نحن نعيش فى الشرق يا رمزة

ولايعنى الزواج م ، شاب لطيف فقط، بل أيضا أن تُستقبلى فى أسرة.. وضعك فى المجتمع المصرى وسمعتك مرتبطين فى المقام الأول بالوضع الاجتماعى لهذه الأسرة، وعندما قبلت طلب الزواج من صفوت باشا، فهذا لأن أسرته تعتبر من الأوائل فى بلدنا، ولأنها أسرة محترمة بكل المعايير، وعلمت بالاضافة لذلك ان هذا الارتباط لن يكلفك أى تضحية ، لأن زوجك القادم لا هو عجوز ولا أحمق مخرف أو مريض، أو مسجون أفكاره لتجدينه متخلفا. أنا أعرف وجهات نظرك، وميولك وعملت حسابهم، صدقينى . ومثل مدحت درس أيضا اخوه كمال الدين فى أوربا، ونظرته تقدميه، وأنا مقتنع أن أمامه مستقبل وظيفى باهر. فهو صغير وسيعجبك، ولا يمكن أن تتمنى لنفسك زيجة أفضل منها. وكما ترين أنا أتحدث معك بصراحة وكما يفعل أب فرنسى أو أنجليزى مع إبنته. كما يوجد سبب آخر مقنع! حتى إذا أنا أردت فلا أستطيع أن أرفض طلب صفوت باشا. التعهد الذى أخذته على نفسى ـ نحن، أنت وأنا بقبول هدايا خطبتك من مدحت، فهذا الالتزام أمام صفوت باشا قائم كما كان ، لأنه لم يسترد هذه الهدايا».

ـ «أبى: أنا أفهم كل هذه الأسباب، ولكنى أحب ماهر، ولن أحب سواه. حضرتك ارتبطت بإلتزام وأنا أيضا أعطيت كلمتى ـ لقد وعدت ماهر ألا أتزوج غيره».

أمسكنى أبى بغضب من ذراعى وهزنى. أحمر وجهه وعيونه تصدر شررا من الغضب.. لحظة بطولها اعتقدت أنه سيضربنى أو يخنقنى. لكنه صرخ:

«كفاية الآن! أذهبى إلى غرفتك وأبقى هناك حتى نرحل! ستعودين إلى القاهرة معى غدا، أنت سامعة أبدا لن تتزوجى هذا البائس الرذل!.

وأسرع للخارج وأغلق خلفه الباب بشدة، صعدت لأعلى ورميت نفسى على السرير بكيت طويلا.. ثم تماسكت ، كنت وحيدة.. خرج أبى كالعادة من المنزل، ومدموازيل هورتان لم ترجع من القداس بعد، ونرجس أقامت فى غرفتها فى مثل هذا الوقت.

وبسرعة غيرت ملابسى: فستان أسود، حجاب وجه، ملاية سوداء، لا يوجد شيئا يمكن أن يمحو شخصية أحد مثل الثياب الداكنة للسيدات المسلمات. ووضعت كل أموالى فى حقيبة يدى، إلى حد ما كثيرة، لأن والدى لم يكن يوما بخيلا، إلى جانب المجوهرات الثمينة والخفيفة وسهلة البيع. وفى المطبخ وجدت

سلة وضعتها على رأسى. ثم غادرت المنزل بهدوء.. دون أن يشعر بى أحد، من خلال ممر الخدم.

أردت الذهاب لماهر لاتزوج منه بمجرد أن أجده. ولكن كيف أجده؟! لم أكن أجرؤ أن أذهب إلى بهيجة.

أخذت طريقى الى باكوس حيث موقف عربات الحنطور المؤجرة والمغلقة للسيدات. أخذت واحدة وأمرت السائق أن يتوجه إلى مصطفى باشا، فكما علمت تقع المعسكرات هناك.. فى هذه اللحظة اكتشفت فى الطريق وعلى الرصيف أمام الكنيسة مدموازيل هورتان ، أمرت الحنطور بالتوقف وسحبتها إلىّ فى المقعد، ثم تابعنا السير، لم تفهم شيئا مما حدث، ولم أوضح لها أيضا شيئا ولكننى شعرت بجوارها بأمان أكثر.

كنت محظوظة فبمجرد أن أقتربنا من المعسكرات، لاحظت ضابطاً صغيرا فى الشارع تشجعت وسألته عما إذا كان يعرف ماهر. فإذا به صديق لماهر، وسرعان ما أعلن استعداده أن يخبره، ولكنه لم يستطع الوعد بأن يجده على الفور، كنت حازمة ، الانتظار طويلا وعلى قدر الامكان، ومع ذلك وبعد ربع ساعة تقريبا ظهر ماهر. كان مندهشاً، لرؤيتى هناك، ومذهولا، عندما عرف بهروبى من المنزل، وطلبت منه الزواج فى نفس اليوم، ويبدو أن ذلك لم يناسبه، لأنه تردد ورفض مقدما، ثم وافق بعد ذلك أخيرا نظرا لحزمى.

توجه ماهر إلى المعسكر ليبلغ بغيابه وعاد بملابس مدنية، ركب حنطوراً خلف عربتنا المغلقة، مدموازيل هورتان لم تفهم كلمة من حديثنا باللغة العربية، وصلنا للمأذون.

كنت أعلم أن باستطاعتى الزواج، دون موافقة والدى. ولم يكن عندى أى فكرة محددة عن الاجراءات ؟ تصورت الكثير من التعقيدات التى لم توجد فى نفس اليوم قبل الظهر كنت زوجة ماهر شرعا. مرت ساعتان ببطء شديد، منتظرة انا ومدموازيل هورتان فى غرفة صغيرة بجانب مكتب المأذون، ومن وقت لآخر يمد ماهر رأسه للداخل ليخبرنا بمجريات الأحداث .

لقد فهم المأذون فى الحال طبعا أنه وعندما يحضر إليه إثنان، بدلا من دعوته للمنزل وهو العُرف المتبع.. إذن فهذا زواج ضد رغبة الوالدين.

ومع ذلك وضع ماهر مبلغاً من المال سراً على مكتب الموظف حتى لايؤنبه ضميره.

قال الرجل لماهر: إنه لابد للإذعان لفريضة النبى (صلى الله عليه وسلم) والذى قال: «تكاثروا وتزاوجو».. والله يبارك لكم وفيكم .

ابتسم ماهر عندما اخبرنى بذلك.. وفى مقابل مبلغ آخر بسيط أعلن المأذون استعداده لإحضار اثنين شهود ووكيل.. أقر الشهود بمعرفتى وأنى بلغت سن الرشد.. وقف الوكيل بجانب ماهر وأمسك بيده فى يده تحت منديل الزواج ثم قرأ المأذون الفاتحة واستشهد بآيات من القرآن الكريم.

وكان دورى بالكامل هو أن اقول: «نعم».. عندما حضرا الشاهدان ودون أن يدخلا الغرفة التى أقيم فيها، وطالبا بموافقتى، أما الوكيل غير المرئى فقال لماهر: بناءً على ذلك، «وبالتوكيل الذى حصلت عليه من رمزة فريد أمنحها لك زوجة».

ثم توجهنا بعد ذلك لمبنى المحكمة. ولاحظنا ان القاضى كان موجودا.. وسمحوا لنا بالدخول فى الحال. ولم يستطع رفض تسجيل عقد الزواج، ولم يكن من الضرورى اثبات أنى بالغة، لأن شهادة الشاهدين أمام المأذون كافية، كان القاضى شيخا عجوزا متجهما، ولم يعجبه الموضوع بالمرة، ونبهنا بأن زيجة سرية فى مثل هذه الظروف ممكن فسخ عقدها. أشعرتنى كلماته بوخزة فى قلبى.. وقلت لنفسى بأن أبى سوف يحولها إلى قضية..

والآن فقط قلت لدموازيل بأننى متزوجة.. هى أيضا خمنت ذلك من قبل وصمتت ، لأنها لا تستطيع أن تغير شيئا ولا أن تصبح شريكتى فى الجريمة.. عانقتنى وتمنت لى حظا طيبا.

قلت لها: «سنبقى معا».

ابتسمت دون أن تجاوب.

ثم رافقتنا إلى المحطة، اتفقنا على أن أكتب لها حتى تستطيع الحضور بعد ذلك، وقفت على الرصيف ، دون حركة، ونظرت إلى القطار، الذى حملنى بعيداً، كنت أشعر بالحزم وليس بالأسف، وما فعلته وكنت على علم كامل به وبكل العواقب الممكنة. شىء واحد كان يهمنى هو: أن أعيش مع ماهر. تركت أسرتى لذلك وتخليت عن كل شىء له أهمية لكيان فتاة ثرية مدللة، لكننى كنت راضية. ربما لا أرى أبى مرة أخرى ولا نرجس أيضا، كما كان الوعد الذى اعطيته لدموازيل هورتان لا أستطيع أن أحفظه، والفراق عنها آلمنى بالتأكيد كما آلمها.

فى القطار لم يُسمح لىّ حتى بالجلوس مع ماهر.. فالنساء زمان كان لهن

عربة خاصة، ومع ذلك كنا نناقش ما سنفعله بعد وصولنا القاهرة فى الممر فقررنا أن نذهب لوالد ماهر مباشرة.

بالطبع لم نكن نتوقع أن يقابلنا بأذرع مفتوحة، ولكننا لم نكن نتوقع أيضا اندلاع كل هذا الغضب منه. فقد انهال عليه نهراً وتأنيباً فى حضورى، وألقى عليه اللوم.. العار معه فى مواجهتى.

قال: «أذكى شىء يمكن أن تفعليه الآن أن تعودى فوراً لأبيك أو تطلبى إليه الحضور تلغرافيا ليأخذك. وعلى ماهر أن يطلقك، ويمكن الاتفاق على الطلاق حتى تبقى الفضيحة على الأقل فى حدود».

رفضت بحزم العودة لأبى الذى ربما لا يستقبلنى مطلقا. بذهول بحلقت فى ماهر الذى لم يحتج بكلمة واحدة.. توقعت أن تكون عنده الشجاعة ويطلقنى ويبرهن على رجولته ولكنه وقف كتلميذ سكوتلندى برأس منخفض أمام والده.. كم كرهت موقفه هذا ولأول مرة تساورنى شكوك حول مستقبلنا.

ولم يرفض والد ماهر فقط استقبالنا فى منزله، بل ولم يسمح لنا أيضا أن نسكن تحت سقف واحد، قلت: «ولكننا متزوجون»..

ألقى علىّ نظرة مدمرة:

«مثل هذا الزواج فى نظرى باطل»

توجهت لماهر: «هل تقبل ببساطة ان يفرقونا عن بعض من الآن؟»

كان باهتا كالميت.

«فى البداية همهم ، لعل ذلك أفضل لنا».

سألنى حماى: «تعرفى القاهرة؟ هل لك أسرة صديقة يمكن أن تنزلى عندهم!!».

ذكرت له عدة أسماء، أحدهم الشيخ عبدالمعطى، وكان معروفا له.. فأمر بربط الخيل وحتى يرسلنى له.

وعندما رفضت اتباعه، سمح لماهر بالذهاب معنا.

كان الشيخ يسكن فى درب الجماميز؛ أحد الأحياء القديمة بالقرب من منزلنا السابق على الخليج.

عندما كنت طفلة أحببت الشيخ عبدالمعطى، كان عملاقاً، يتمتع بعيشته وبصحة جيدة، ودائما معتدل المزاج، كنت اعتبره رجلاً شجاعا وكنت على أمل ان اكسبه فى جانبى.

سقط من السحاب، عندما اخبره والد ماهر دون مقدمة انه حضر، ليأتمنه على رعاية فتاة غير متربية تزوجت ببساطة ضد رغبة ابيها.

«ولكنى بلغت سن الرشد.. ولى الحق فى الزواج بمن أحب !».

هز الشيخ رأسه مؤنبا واحمر وجه حماى غضبا:

وانطلقت كلماته : أنا عندى أيضا بنت وإذا فعلت هذا لكنت خنقتها!».

كان النقاش معه مستحيلا ، فطلبت منه أن يسمح لى بالحديث مع ماهر لحظة على انفراد.. والده لم يوافق ولكن الشيخ اصطحبنا لغرفة مكتبه، تركت الباب مفتوحا عن قصد.

«ماهر» .. نحن متزوجون وأنا عازم على الكفاح بكل الوسائل لسعادتنا لا ارغب فى العودة لأبى، وإذا أصر على الطلاق، سوف أدافع عن نفسى بكل قواى.. أرجوك لا تخذلنى!»..

أكد بأنه ليس أقل حزماً منى.

«ولكن لماذا نفترق الآن؟ » دعنا نخرج من هنا ونعيش أمام الله والناس كأى زوجين».

لم يوافق على ذلك، وعد باتخاذ كل ما فى وسعه، ليجعل والده وأبى يعدلان عن موقفهما.

وأخيرا نجح فى إقناعى.. نظرت إليه مغادرا والدموع فى عينى وشعرت بأن الجميع خذلنى.

الشيخ عبدالمعطى مسح على ذقنه ونظر إلىّ محركا رأسه، ثم قال: سلكت الطريق الخطأ يا رمزة.

ووجدت نفسى مرة أخرى مستعدة للكفاح:

«هناك بشر أسوأ منى! ولم افعل شيئا سوى الزواج شرعا من الرجل الذى أعرفه والذى أحبه، الرجل الذى أريد أن أقضى معه بقية حياتى.. هل هذه جريمة؟

وهذا العجوز الذى يرغب وبدون حتى ان يرانى، الاحتفاظ بىّ فى منزله كالبضاعة التى دفع ثمنها ويصر على توريدها. وابنه الذى قبلنى، دون ان يعرفنى لمجرد أنى كنت مخطوبة لأخيه الميت؟ ماذا تظن عنهم ؟ وماذا تظن فى أبى الذى ضد اقتناعه الشخصى الداخلى، ودون اعتبار لرفضى واشمئزازى، أراد أن يرغمنى على هذه الزيجة؟»..

قال الشيخ : «من وراء عاداتنا توجد حكمة اكثر ، مما تظنينه، يا رمزة.. الفتيات الصغيرات يندفعن بلا روية أو عقل فى الغرام، الآباء عندهم مساحة للتفكير ولهم رؤية وهم فى وضع افضل للاختيار الصحيح».

ـ «الآباء لا يرون إلا مميزاتهم، يدفعون ابناءهم وبناتهم بأنانية عمياء للزواج ما يهمهم فقط هو جمع الأراضى والأموال ، وليس سعادة أبنائهم!».

ـ «أنت مخطئة يا رمزة، السعادة تتكون فى جزء كبير من كل هذا الخليط الغنى.. لكل هذه الاهتمامات.. فالعشاق نادراً ما يكونون أزواجا سعداء.. أنا عايز أتكلم معك بصراحة : أنت لن تكونى أبدا سعيدة مع هذا الشاب الصغير.. لأنك تتوقعى منه الكثير، لأنك واقعة في حبه، ولكنه لا يستطيع أن يعطيك الكثير».

ـ «ولكنك لا تعرفينه!» .

ـ «أنا رأيته هنا لأول مرة ، هذا صحيح، ولكنى أعرف البشر جيدا.. كان يجب ان يكون اكثر ذكاء وشجاعة عن الآخرين وإلا فتوقعى منه قريبا أن يلومك لأنك دمرتى حياته».

ـ «سوف أجعله سعيدا!»..

ـ «سوف تحبينه، ربما فترة طويلة ولكن أن يسعدك فهذا موضوع آخر تماما».

ـ «أنا لا أتصور سعادة بدون حب ولا استطيع حتى أن أتصور حياة بدون هذا الرجل!»..

ـ «وماذا تتوقعى الآن منى؟ أن أبارك ما فعلتينه؟ لا أستطيع ذلك.. ربما أساعدك، سوف أتحدث مع أبيك ولكن أثناء ذلك يجب أن تبقى هنا.. سهير وخديجة فى الحريم.. أذهبى الآن إليهن، أنت تعرفى الطريق..»..

الفصل السادس

حظ بعيد المنال

١ - القضية

خدعت نفسى باعتقادى أن والدى سيخفف من إصراره أمام الأمر الواقع.. بعد هروبى بيوم عاد إلى القاهرة . اخبرونى بعد ذلك أنه رَمَى نرجس ومدموازيل هورتان بأشد اللوم وفى غضب شديد ، أقسم بأنه سينفذ رغبته وإلا سيقتلنى .

وفى الحال بعد وصوله الى القاهرة أقام بعمل الخطوات القانونية ضد ماهر وضدى ، لكى يصبح عقد زواجنا باطلا . وعندما نجح الشيخ عبد المعطى اخيرا فى التحدث معه ، كان الوقت قد فات ! وأصبحت القضية أمام القضاء .

قال الشيخ لى: إن والدى لم يعد يفكر فى قتلى ، بل سمح لىّ بالعودة للمنزل بشرط ، ألا أظهر أمام عينيه مرة أخرى . وفضلت البقاء فى حريم الشيخ ، وصحيح لم أشعر هنا بحرية اكثر ، ولكن أقل وصاية . وسمح والدى بانتقال مدموازيل هورتان الىّ . وكنت مسرورة جدا بوجودها بجانبى فى هذا الوقت العصيب الذى أمرّ به .

وبدأ بين والدى وبينى صراع مكشوف . مازلت أحبه وتألمت بشدة لأن أفعل به هذا .. وهو أيضا ، وأنا متأكدة من ذلك ، مازال يحبنى مثل زمان ، ليته لا يتأثر بالغضب الذى يهيمن على فكره وفعله . كنا عازمين على الكفاح حتى السكاكين ، كنا نحن الاثنين من نفس النوع ، عندنا نفس الارادة التى لا تنكسر ونفس العقل المتحجر .

كان الشيخ عبد المعطى محايدا وتوسط لى عند محامى الشيخ مصطفى المغربى، والذى ذاع صيته بالرغم من صغر سنه ، صحيح كان يرتدى القفطان والعمة ، إلا أنه يمثل وجهات النظر المستنيرة . تولى قضيتى وأراد أن يبذل كل قواه دفاعا عنها .

الأمر الذى كان يقلقنى حقا هو ماهر نفسه، خشيت من خضوعه لإرهاب والده فيطلقنى . كنت أفضل الموت على قبول هذا العار . كنت نادرا ما أرى ماهر. الشيخ مصطفى كان عودنا لىّ فشجعه للدفاع عن نفسه وزوده بنصائح مفيدة .

وشاع نبأ زواجى كالبرق . وأصبح واضحا بأنه فى غضون أيام قليلة سيكون

معروفا فى القاهرة كلها ، ويتسلل خلال أسوار الحريم المتعددة ، وتلقيت خطابات عديدة من سيدات شابات تمنين لى حظا موفقا .

وكلما اقترب موعد الجلسة ، استثارت مشاعر الكفاح أكثر فى أعماقى أو حتى أكون أمينة فقد أصبح ماهر إلى حد ما فى الكواليس ، وعندما كنت أفكر فيه ، فكان فقط كزميل كفاح . اشتريت كتب القانون وناقشت احتمالات نجاحنا مع الشيخ مصطفى ، وكان اهتمامى واقتناعى بالنصر قد اصابه بالعدوى .

حقيقة لم يخف عنى شيئا ، بأن القاضى المختص بقضيتى لا يكن أدنى تعاطف نحوى . وهو بنفسه عنده بنات ويخشى أن أكون مثلا سيئا لهن !

وظهر لىّ أن كل الآباء ضدى وأن القضاة أصبحوا من ألد الأعداء لقضيتى .

ومع ذلك درست أنا والشيخ مصطفى قانون العقوبات واعتبرنا أنه من المستحيل أن يجدوا سببا مقنعا لإبطال زواجنا .

كان العقد المبرم من المأمور فى الاسكندرية مُحكم الوضع من الناحية القانونية كما كنت بالغة ورشيدة .

ودفع ماهر لىّ مهرا قدره خمسمائة جنيه نقدا وتعهد بدفعة أخرى بنفس القيمة .

وكان هذا المبلغ يتناسب فى الماضى مع ماهو مألوف فى طبقتى . ولا يمكن كما أكد لىّ الشيخ أن يلوموا ماهر بالتقليل من شأنى ، لأنه وطبقا للمصطلح القانونى المفهوم فإن قيمة المهر مطابقة لتقدير الطبقة (المكانة) الاجتماعية .

كنت مملوءة بالثقة . وعندما نتقابل أنا وماهر، وكان نادرا ما يحدث، نرسم خططا رائعة للمستقبل .

كنا نحسب ممتلكاتنا . إلى جانب الخمسمائة جنيه المهر ، كان معى مائتين أخريين، وأيضا مجوهرات أمى ، التى أخذتها معى والتى تمثل قيمة عالية جدا .

كما كان ماهر يمتلك حوالى مائة فدان أرض زراعية خصبة ، ومنزلا فى حى شبرا . هذا بالإضافة إلى مرتب يكفى لمصروفاتنا ، اتفقنا أن يقدم طلبا لنقله الى السوذان وبعد صدور الحكم نبقى هناك طويلا حتى يطوى الماضى قضيتنا .

آه ، كم كنت اتمنى أن ينتهى كل هذا.

لم أشعر بخوف فى يوم القضية ، كنت عصبية جدا . وبالطبع لم يُسمح لى

كامرأة بالمشاركة فى جلسة المحاكمة . ولأن مبنى المحكمة يقع بالقرب من منزل الشيخ عبد المعطى ، وعدنى المحامى أن يزورنى مباشرة بعد صدور الحكم .

ومن الشباك ، الذى انتظرت خلفه على أحر من الجمر ، رأيته وماهر متجهين الى المنزل وفهمت على الفور أننا خسرنا القضية .

الشيخ مصطفى استشاط غضبا .

صاح بغضب : «القاضى لم يرغب حتى فى سماع دفاعى».

لقد اتخذ قراره من قبل ! ولكن هذا الحكم ليس إلا فضيحة ، وغدا فورا سوف نستأنف ! »

كان ماهر واقفا تحت صدمة الإذلال المؤلم .

محامى والدى ألقى به فى الوحل وحتى يستكبر عليه بالفرق الاجتماعى المزعوم بين عائلتينا والذى يجعل مثل هذا الارتباط مستحيلا .

صرخ: «هذا الوغد دعانى بأننى من الوصوليين النكراء ، كانت هذه كلماته أو كم من الاحتقار الذى تحدث به عن أجدادى الفلاحين حقر من شأن والدى : ابن فلاح جمع ثروته مليم على مليم ، قرش على قرش ، وأنا جندى قروى . ولمح بأنه لذلك قبلونى بالأكاديمية العسكرية وحصلت على شهادة التخرج لأنهم فى هذه الأيام يقبلون الفلاحين البلهاء الأغبياء فى الجيش ، والشباب الصغير من العائلات العريقة يتجنبون اختيار هذه المهنة .

وأراد الشيخ مصطفى التخفيف عنه بأن هذه هى لغة المحاماة . ومع ذلك استشعر ماهر جرحا عميقا فى كرامته . تألمت له وكنت أتمنى أن أمحو هذا العار بدمى ، خشيت أنه قد يتنحى عنى .

وكما شرح الشيخ مصطفى لى ، قدم أبى إقرارا من السلطان عبدالحميد يؤهله فيه كشريف ، من أحفاد الإمام الحسين ، حفيد النبى (صلى اله عليه وسلم) ومنح هذا أسرتنا أمام أسرة ماهر رتبة وشرفا أعلى ، استطاع بذلك القاضى أن يحكم على زواجنا بأنه باطل . والذى يستند على شريعة القرآن والذى يمنع زواج سيدة مسلمة من رجل ذى مستوى وضيع . لكن الشيخ مصطفى أكد بأن هذا الدليل يبدو كحجة فقط . وليس السبب الرئيسى قرار القاضى .

ولكن ما كان يود به الحكم على الملأ (العامة) كان فى الحقيقة : أن اثنين صغيرين من البشر اختار كلُ منهما شريكا لحياته ، دون اعتبار لرغبة الأهل .

وبالضبط وبنفس المعنى تم تحليل الحكم فى الصحافة . وفى اليوم التالى بدأ جدل عنيف بين المحافظين على العادات والمحرضين عليها. وانتشرت هذه المناقشات الحادة حتى خارج مصر واشتد النزاع بين السلطان عبد الحميد وشباب الأتراك .

يوميا كانت عناوين الصحف تمتلىء تصريحات بعبارات ضخمة مع أو ضد قضيتى . هوجمت من أحدهم بكراهية شديدة ، ومن الآخر حظيت بدفاع ملتهب. أحيانا كنت أشعر بالتدليل ، ولكن غالبا ما كان يسيطر علىّ خوف شارد بأن كل هذا العصيان يعطينى الفرصة الأخيرة ، لأبقى مع ماهر وأتصالح مع أبى .

الشيخ مصطفى أعطانى أملا جديدا . استأنف وكان متأكدا أنه بسبب ردود الأفعال هذه فى الرأى العام ، لن يسمح قاضٍ لنفسه بالموافقة على الحكم الأول .

ذات يوم حضر مملوءا بسعادة غامرة ، وقال:

«الخديو فى صفنا ! ».

تحدث الخديو ثم أضاف: عن قضيتنا وأعرب عن أمله فى أن ينتصر الحب .

فاجأنى هذا الكلام بشدة لاعتقادى الدائم بأنه مرتبط بوالدى بصداقة أو على الأقل يقدره .

الخديو عباس لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره ، وطبيعى أن يميل لحزب الشباب بالإضافة لذلك كان هناك سبب آخر: قنصل انجلترا العام ، اللورد كرومر، زكىّ موقف أبى ، ويعتبر ذلك سببا كافيا لأن يفضل الخديو الموقف المعارض .

كانت شكوكى أن الخديو أقوى من هذين الرجلين القويين ... ولكن سرعان ما ظهرت أخبار تدخل اللورد كرومر ، سواء كانت صحيحة أو خاطئة ... هذا ما حررته الصحافة القومية .

لم يحدث أن قال وكتب الكثير عن الحرية . ويبدو أنه كما لو كنت أنا بطلبى للزواج من رجل أختاره، أصبحت حاملة راية الاستقلال المصرية .

وتبارت الجرائم فى العناوين :

ـ الجاريات لا يلدن إلاّ عبيدا .

ـ الحرية لأمهاتنا ، ازواجنا ، بناتنا ، تعنى الحرية للأجيال القادمة !

وجدت أن كل أفكارى النسائية قد تأكدت ، تصاعدت ، ومجدت ، واحيانا كنت أتلذذ ، نعم ، أكثر وأكثر ، كنت أشعر كأننى بطلة .

ومن ناحية أخرى لم يكن عندى سبب كاف للرضا . ما كانوا يحكونه عن والدى ، كان لا يبعث على التفاؤل . أقسم ، وكما يقال ، سيعطينى زوجة لناظر عزبة ! الرجل عمره ستون عاما !

وبدون هذا التهديد ، كنت أجده جادا ، وكنت أحفر داخلى أكثر فأكثر فكرة الدفاع بكل قواى ضد كل شىء يرغموننى عليه .

ولكن قنوط ماهر ضايقنى بمجرد أن هدأت ثورته الأولى ، ظهر مرة أخرى جبانا وغير حازم .

لم يجرؤ تقريبا على زيارتى ، وعندما حضر ، بقى على مسافة ، حتى تركونا وحدنا فى صالون الشيخ عبد المعطى .

ذات يوم لم أستطع أن أمسك نفسى عن الضحك وسألته:

ـ «هل مازلت تحبنى يا ماهر ؟».

فأكد أن حبه أقوى مما كان .

ـ أحيانا ما أسأل نفسى: «هل تزوجتنى حقا ، أم هل حلمت بذلك ، وأننا وقعنا أمام المأمور فى الاسكندرية عقد الزواج . زواج خاص ! » .

«ماذا عساى أن أفعل ؟ والدى يؤنبنى كل يوم لأنى مازلت على اتصال بك » .

حينئذ أخرجت ما عندى : «ألم تتوصل بعد لتقرر بين والدك وبينى ؟».

أنا لكى أتزوجك كسرت ما بينى وبين أبى بينما مازلت أنت تعيشين فى طغيان أبيك ؟ الآن يصعد المرء على الحواجز من أجل تحرير المرأة – هل يجب علينا أيضا كسيدات أن نكافح من تحرر الرجل ؟ » .

علا الشحوب وجهه وخشيت أن أكون قد خرجت عن حدودى .

استدركت بسرعة: حاول أن تفهمنى يا ماهر ، أنا أحبك ، ولا شىء يعوقنى لأكون زوجتك. وإذا لم تجرؤ أن تعيش معى فى القاهرة ، حينئذ تقدم بطلب نقلك إلى السوادن ، أنا مستعدة للذهاب معك حتى آخر العالم » .

وعظنى بالصبر مرة ثانية . فقد عمل حسابه على أن محكمة الاستئناف ستحكم بصحة زواجنا، كان يأمل أن يلين أبى أمام الأمر الواقع .

صرخت : «ماهو الأمر الواقع؟، والدى له أصدقاء بين القضاة والانجليز الأسياد فى بلدنا ، ويقفون أيضا فى صفه !».

ماذا ستفعل إذا تم إقرار الحكم الأول ؟

الأمر الواقع يكون إذن : أن نعيش امام الله والناس كزوجين ، أن يكون عندنا طفل ومعتزين بذلك ! »

وفى يوم أقنعته أن يترك مسكن أبيه ويبحث عن شقة . الوقت مرّ ولم أر ماهر مرة أخرى . كما أصبح من الصعب بالنسبة لىّ أن أعيش مسجونة ، فى حريم الشيخ عبد المعطى . زوجته وابنته كانتا عطوفين ، ولكن غير مثقفات بالمرة . وأفقهم لا يتعدى العمل اليومى المنزلى .

مللت مجتمعهن . لم يفهمانى بتاتا ، وإذا اعطيانى نصيحة فهى أن أتخلى عن ماهر وأعود لوالدى . وبدأت ألاحظ سخط الشيخ المتزايد أيضا . فقد غضب من الفضيحة ، التى أقامتها الجرائد فى شخصى ورمى بذنب ذلك علىّ .

مرة عارضته ، ربما بشدة ، وبذكاء اكثر مما يجب .

قال: «يبدو أنك نسيت أنك تعيشين تحت سقفى ؟».

ـ «ليس أطول من ذلك!» .

ـ وبعد خمس دقائق غادرت ومعى مدموازيل هورتان المنزل . كنت فى غضب شديد . المنزل ، الذى استقبلونى فيه بكل الود ، أصبح بالنسبة لى كسجن ، وليس الا مثل كل المنازل الأخرى ، التى تعيش فيها النساء مسجونات ، ولُمت نفسى بإهدار وقتى الثمين . «كيف كنت غبية هكذا!».

سخطت على نفسى فى العربة التى أقلتنا من هناك .

ـ «أنا المكافحة من أجل حرية المرأة اعيش فى حريم! ما هذا التناقض ! والمخالف للمنطق !» .

مدموازيل هورتان سمعتنى وكالعادة صمتت ، وأردت ألا أرى الحزن فى عينيها، ولكنها واصلت معى دون أى احتجاج . وكان من الممكن أن تذهب معى حتى الى جهنم .

ولكن الرحلة كانت حتى ضاحية المدينة فقط .

خطرت على بالى وصيفة سابقة لجدتى ، تحسين هانم وبدون عناء كبير وجدت منزلها ، ولكنه كان مغلقا . البواب أخبرنى بأن تحسين كانت عجوز وضعيفة وتعيش الآن عند ابنتها بالقرب من هنا .

ذهبت الى هناك . فرحت الوصيفة العجوز برؤيتى وأعلنت فورا استعدادها لتأجير منزلها لى بالإضافة إلى وضع خادمة تحت تصرفى .

ارسلت عنوانى الجديد لنرجس ، وارسلت بلا تردد إبنة مرضعتى زهيدة مع زوجها اليّ . الاثنان كانا يقيمان عندى . وأحضرا معهما صندوقا به مائتا جنيه من الذهب . ما أطيبك يا نرجس ! كم كنت أتمنى أن أراها مرة أخرى ! كنا نتشاجر ثم نقبل بعضا بإفراط ونتصالح .. لقد أثرت فىّ كثيرا هديتها المالية. فالقضية تكلفت الكثير واضطررت لبيع بعض قطع المجوهرات .

بعد أربعة أيام ظهر ماهر . الشيخ عبد المعطى أخبره بذهابى ، ولكنه لم يكن يعلم أين أقيم . ويحث ماهر عنى فى كل مكان . ولامنى بشدة على قرارى المفاجىء وغضب لأننى لم أسأله المشورة بل حتى لم أخبره .

كان عندى حق ، أن يكون مهموما ويلف هنا وهناك ، لأنه فى الفترة الأخيرة غاب اهتمامه ، كان يستحق العقاب .

ببرود ودون أن اعطيه ولو حتى نظرة، ودون أن أنحى ماكنت أقوم بحياكته جانبا ، عند وصوله ، استمعت الى انتقاداته ، وقد اغضبه هذا كثيرا:

ـ «أنت إنسانة متقلبة المزاج، والواحد معك يكون غير متأكد من مفاجآتك ! أنت تتصرفين أمامى كما لو كنت غير موجود» .

ـ «أنا أراك نادرا، لذلك يجب أن أصدر قرارى بدونك ، طيبا أو سيئا» .

احمر وجهه وبدا أكثر هدوءا . ثم بدأ الحديث عن أشياء أخرى . قال:

ـ «هل نويت أن تسكنى وحيدة فى هذا المنزل الموحش ؟»

ـ «عندى خادمان».

لاحظت رد فعله . انتفض. جال ببصره كما لو كان تأثيث الفيلا الصغيرة يهمه، وكنت قد حولتها فى هذه الايام الاربعة إلى مسكن مريح.

قلت: «تعلمت أخيرا ، كيف يدير المرء منزلا ، وأستطيع أن أطبخ أيضا!!» .

وبصوت مرح تساءل: «حينئذ هل يسمح لى بالبقاء لتناول العشاء ؟»

ـ «لا ! يجب أن أحافظ على سمعتى الطيبة، بالإضافة إلى أنه لا يجب أن تبقى طويلا ، فهذا غير لائق ، إلى اللقاء !»

عندما هممت بالنهوض لأغادر الحجرة . أعادنى .

قال بعصبية: «رمزة ! لماذا أنت فظيعة هكذا؟ ماذا فعلت لك ؟» .

ـ «لاشىء ، لا شىء مطلقا . أنت رزين، إذن استمر عاقلا وعد للمنزل ، لأنه إذا علم والدك بوجودك عندى ، ربما يضربك بالشبشب !!».

هذه الاهانة جعلت ماهر شاحبا ، قبض يده، زمجر وقال: «احفظى لسانك، وإلا سأضربك !»

وتقدم خطوة نحوى مهددا فقلت .

ـ «بأى حق تتكلم هكذا معى ؟ هل تعتقد أنك زوجى ؟».

بحلقت فيه غاضبة:

شعرت بنفسه على وجهى .

آه ... ماهر ... فجأة أمسك بى ورفعنى لأعلى .

دافعت عن نفسي ... ولكن بضعف. فقد كنت انتظر هذه اللحظة منذ أمد بعيد.

٢ - متماسكة

أسبوعان من السعادة كانا قصيرين جدا ، عشت خلالهما فقط لماهر .. كنت أعد كل ساعة يبعد عنى فيها . وحاولت بكل الحيل الممكنة أن أمد الساعات القصيرة التى قضاها معى . وعندما يكون معى ، أريد أن احتفظ به عندى - كنت أؤخر كل وجبة طويلا بقدر الإمكان ، وبمجرد أن ينظر للساعة ، اخترع أى حكاية وأتحدث وأتحدث حتى يبقى ، أو أتناول الكمانجة ، وأغنى له الأغانى التى يحبها . احيانا أرسل الخدم مساء وبأى تكليف من المنزل ، حتى يبقى ماهر عندى إلى حين عودتهم ، أسدلت ستائر ثقيلة على الشبابيك حتى لا يوقظه ضوء النهار مبكرا . لايهمنى أن يصل إلى عمله مبكرا.

كنت غرقانة فى الحب حتى أذنى ، ولكنى شعرت بأن هذه الأيام السعيدة لن تستمر طويلا وأحببت أن أستمتع بكل لحظة فيها . وفى نفس الوقت لم أتخذ أى إجراءات وقائية لأخفى علاقتى به.

وعندما أخبرونى بأن أبى يعلم هذا ، لم أخجل ، بل على العكس كان هذا يناسبنى تماما ، كان يجب ألا يشك ولو لحظة بأنى عازمة على أن أعيش حياتى الخاصة .

لم يعد يعنينى سير القضية.. وأثناء ذلك كان القرار يقترب دائما . وقبل يومين من إعلان الحكم قام الخديو بعمل لفتة حتى اعتقدنا أن ذلك مفيد جد لقضيتنا :

ترك ماهر يأخذ مكانا بجانبه فى الليموزين المكشوفة أمام المجتمعين ، نعم أيضا أمام أبى ، وسافر معه حتى عين شمس .

فى الماضى كان المرء يستطيع أن يحصى السيارات فى القاهرة على أصابع اليد الواحدة . وبسهولة كان يمكن تمييز سيارة تخص الخديو من بينها. الجميع علموا بالحظوة التى منحت لماهر.

أعددت مع الشيخ مصطفى المرافعة لمعارضة الحكم الأول، قلنا فى المرافعة إن خلف وجهات النظر القديمة المزعومة واختلاف الطبقات . تختفى حقيقة بشعة هى استباحة الأب المستبد لنفسه التصرف فى ابنته كما لو كانت جارية .

كتبنا كلمات رنانة مزوقة مشتعلة بالمطالب المشروعة للمصريات فى أن يعاملن كحقيقة بشرية .. وعن الحريات الديمقراطية التى لا يمكن أن تمنح بدون الاستقلال الوطنى للشباب المصرى اللاهث .

كان ذلك أقرب لكونه منشورا سياسيا منه كمذكرة للدفاع. ووجدتها مقنعة تماما. لم أشك لحظة فى أننا سنظفر بها . كان هذا مساء قبل إعلان الحكم .

لكن فى اليوم التالى فترت ثقتى قليلا عندما خرج ماهر فى الصباح الباكر من المنزل. ومرت الساعات أثناء المحاكمة بطلوع الروح.

الآن .. وفى هذه الدقيقة الأخيرة لعنت الاهتمام الذى سببته هذه القضية وبدأت أخشى الأسوأ . وقعت فى فزع . الخروج من هذه القضية سيكون مصيرى المحتوم .

إذا أقر الحكم الأول ، زواجى هذه المرة لا رجعة فيه ، سيعلن باطلا ، حينئذ أكون ضعت تماما. ويستطيع أبى بقوة القانون إرغامى على العودة لمنزله . ولأنه غاضب جدا علىّ بالطبع فسوف يحبسنى وربما يزوجنى برجل استقبحه مثل مدير العزبة العجوز . أو يصر على شقيق مدحت بسبب الانتقام فقط. شيئا واحدا مهما تذكرته فى تلك اللحظة. أننى لم أعد عذراء. ولكن أبداً ، لن أقبل أن يتحول هذا الأمر إلى عار بالنسبة لى. كان من دواعى فخرى أنى أعيش مع ماهر . إذا أخذوا منى ماهر ، فلا أرغب أن أخص أحدا غيره ، حتى لو اقتضى الأمر أن أنتحر.

أرغمت نفسى على الهدوء وحاولت الحكم على وضعى بشىء أكثر برودا . فهناك على كل حال احتمال أن المحكمة تعتبر زواجى صحيحا فإذا لم تفعل ذلك ، كيف يمكنهم التفريق بينى وبين ماهر وضد إرادتنا ؟ ماذا يمنعنا من الهروب للخارج، سيان إلى أين ؟ حتى لو اقتضى الأمر أن نهرب إلى أوروبا، إذا أغلقت البلاد الإسلامية أمامنا !.

آه ، أنا لا أضع ثقة كبيرة فى ماهر . كنت متأكدة أنه سيجد الأعذار ، عندما أرجوه مغادرة البلاد معى . وفى لحظات الصفو ، كنت أجده ضعيفا، وليست عنده أبدا الشجاعة أن يهجر بلده وأسرته وأصدقاءه ، وأن يتنازل عن كل شىء ليحتفظ بى إذا لم نكسب القضية ، كنت أنا الخاسرة ، وكلما طال الانتظار ، ازداد خوفى.

عندى جميع الاسباب للقلق . المحكمة العليا أقرت فى كل النقاط الحكم الابتدائى الأول واعلنت زواجى من ماهر باطلا ، بسبب اختلاف المستوى الطبقى .
وكانت إهانة متعمدة للخديو، إعلان حرب على شباب مصر الحر كريم النفس.. ووقفت أمام الحقيقة الدامية فجأة لم أكن الزوجة المناسبة لماهر .
لم أندم على أنى وهبت نفسى له.. وكان العار الذى يهددنى بسبب ذلك فى هذه اللحظة لايؤرقنى.. كان شىء واحد فى رأسى.. الاحتفاظ بماهر !.
وصف الشيخ مصطفى لى سير المحاكمة وبكل التفاصيل، ولعنت القضاة ، ومع ذلك لم أسمع مطلقا ، كنت أنصت فقط لفتح الباب ودخول ماهر، مرتجفا من جزعه على تأخيره .. ولو وصل فى هذه اللحظة لكنت تبعته إلى أى مكان، إلى أى مخبأ ، فقط بعيدا عن هنا وقبل أن يرسل أبى فى إحضارى .
ولكنه لم يحضر . طلبت من الشيخ مصطفى الذهاب للبحث عنه ، وبدأت أستعد للرحلة .
قلت: «مش عايزة أحد يزعجنى» . ولكن عندما أبلغونى بوصول محافظ القاهرة، شاهين باشا ، كان لابد من استقباله .
لم تشعرنى زيارته بشىء طيب ، وكان خاطرى الأول ، عندما دخل بصحبة ضابط أنه حضر ليقبض علىّ . للحظة انفعلت كحيوان محاصر ضيقوا عليه الخناق. عيونى تبحث عن طريق للهروب ، أى باب مفتوح ، أستطيع أن أهرب منه. ولكن شاهين باشا أسرع ليؤكد ، أنه حضر كصديق لى ، حتى على الرغم من كونه فى صف أبى. قدم الضابط لى الذى كان مساعد الخديو. قال:
«صاحب العرش كلفنى أن أؤكد لكم على مشاعره الطيبة».
«لماذا لم يعترض إذن على هذا الحكم الفظيع ؟» صرخت ، ورن صوتى بمرارة وبالرغم من علمى بأن الخديو لا يملك أى نفوذ على القضاة ولذلك أظهر تأييده لماهر علنا ، هذا ما فعله ويدخل فى سلطته . وبالرغم من ذلك كنت غاضبة عليه . ولكن فى هذه اللحظة كنت غاضبة على الجميع ، أبى ، ماهر ، المحامى وتقريبا كل القضاة . كنت غاضبة من نفسى ، لأنى لم أفعل شيئا من ذلك .
– «أبوك كان عندى» هكذا بدأ شاهين باشا.
قلت لنفسى: ماذا يود وضغطت على أسنانى وكنت جاهزة للتمرد .
قال: «وهو يتمنى طبعا أن تعودى إليه».

ـ «باختيارى أم مرغمة على ذلك؟!، الآن وفى الحال» .
ـ «بمجرد أن أحصل على الحكم فى يدى»
ـ «ستأتى حينئذ لتقبض على باسم القانون ، كمجرمة ؟».
ـ «أنا متأكد أن هذا ليس ضروريا . يجب أن تضعى فى الاعتبار ، أن العودة لأبيك هى الحل الوحيد العاقل لك» .

كان مزاجى على ما يرام، لأصمد أمامه وأصرخ فى وجهه.، بأنى سأذهب مع ماهر ، متزوجة أم لا . ولكن حضور المعاون منعنى من ذلك ، حتى لا أعرض فرص هروبى للخطر بذلت مجهودا لأتحدث بهدوء .

ـ «هل هذا معقول أن تعيدونى لأبى الآن ؟، فغضبه علىّ من الممكن أن يدفعه لعمل غير متعقل – ربما لسجنى أو إرغامى على زواج .. لأنه قال من قبل بأنه سيزوجنى من مدير العزبة ، رجل فوق الستين!».

ـ «لا تخشى أى شىء من هذا كله ، فأبوك يعلم تماما ، أن هذا سيسىء للخديو إذا فعله . فهو يعرف الحدود ، التى تحميك من سوء الاستخدام ، فهو يتحمل مسئوليتك ، وأيضا مسئولية الفضيحة الحديثة التى بسببتها أنت فإذا استفزك ، فأنت لست من اللاتى يمكن أن يتزوجن ضد إرادتهن يا رمزة . أو حتى يمكن حبسهن ببساطة .. أنا أعرف أباك ، كنا زملاء دراسة . فهو يغضب سريعا ، أكيد . ولكن غضبه لا يستمر طويلا بعدها يمكن التصالح معه ، يجب على المرء فقط أن يعلم كيف يفهمه . وهو يحبك بشدة.

ـ «لماذا لا يسمحون لى بأن أعيش حياتى الخاصة والاستمرار فى سكن هذا المنزل ؟». يبدو أننى اقترحت شيئا فظيعا تماما .

قال: «ولكن يا رمزة، انت تعلمين أن هذا لا يصح ! وأرجو ألا تقولى كلمة واحدة لأبيك عن هذا ، فمكانك فى منزلك !».

وكان هذا بالضبط ما أثار الشك فى نفسى : فلأنى سيدة تعتبر رغبتى فى الاستقلال مبدئيا غير مسموعة . ولأنى لا أقف تحت رعاية زوج ، فيجب أن أعود لرعاية أبى. كنت بالغة ، مثقفة ، قادرة على أن أعول نفسى ، ولم يعترف أحد بذلك.

بالرغم من أننى قررت الصمت ، إلا أننى وجدت نفسى متورطة فى مناقشة ، لكن سرعان ما قطعتها أصوات نساء عالية قادمة من الغرفة المجاورة. اعتقدت

أننى أسمع صوتا جهوريا لخالتى . شاهين باشا والمعاون استأذنا . وبمجرد إغلاق الباب خلفهما والتفت خلفى، كانت نرجس تقف حقيقة أمامى بمرافقة سيدة أخرى وضعت فى الحال حجابها ، كانت توفيقة هانم زوجة شاهين باشا .

ضغطت على شفتى حتى أدميتهما وأنا فى ضجر شديد فإذا كانت خالتى قد حضرت وحدها كنت سأبدأ معها الشجار فورا ، ولكن وجود توفيقة هانم أرغمنى على البقاء مؤدبة ، وكان هذا فوق طاقتى . وبالطبع كشفت المناورة . المحافظ لا يستطيع أن يفعل شيئا حتى يحصل على الحكم، ولن يتركونى لحظة واحدة أبعد عن أعينهن ، وحتى لا أستطيع بأى حال من الأحوال الهروب .

السيدتان لم تتوقفا عن معانقتى بمبالغة سخيفة إظهارا للعطف. كرهت الاثنتين، حتى نرجس التى لم أتعود منها على مثل هذا الرياء . قالت:

ـ «فى يوم كهذا لا يصح أن نتركك لوحدك لذلك نود أن نكون فى صحبتك» .

أحضرن معهن خادمتين ، بدأتا العمل فى المطبخ . ولاشك فى أن السيدتين تنويان قضاء الليلة معى .

وغاب ماهر ! وكانت عندى مفاجأة أخرى من قبل : وهى أن زهيدة دخلت وهمست لى بشىء فى أذنى. فاندفعت خارج الغرفة وصعقت بشدة عندما رأيت أمامى ألد أعدائى ، مراد الخشاب ، والد ماهر ، ماذا يريد منى؟، ومن أعطاه عنوانى؟!!. هل طلقنى ؟ وقفت متحجرة بينما هو تفحصنى بنظرة كئيبة .

ـ «ماهر طلب منى ، أن أخبرك بأن تعودى لمنزل أبيك».

انفجرت : «هذا غير صحيح ، وإذا ماصح يجب أن يحضر بنفسه ويقول لى ذلك !».

بحلقت عيونه بغضب : «ماهر لا يرغب فى أن يعرف عنك شيئا بالمرة ، وقد قلت لك» .

صرخت بغضب: «أنت تكذب ! كان عندى صباح اليوم، أنا متأكدة من أنه مازال يحبنى !».

قال محتقرا: «لأنك نمت معه ! ولكنك بذلك قد قلت له – من تكون أنت وإذا لم تعلن المحكمة بطلان الزواج ، لكان طلقك. الواحد لا يتزوج من ......» قذفنى بالكلمة النابية فى وجهى . أردت أن أدافع عن نفسى ، ولكن اضطرب إدراكى وسرعان ما اندلعت دموعى . وقبل أن يغادر سمعته متوعدا :

ـ «لن ترى ماهر مرة أخرى ! لقد غادر القاهرة».

مدت نرجس رأسها إلى الداخل بفضول.. مسحتُ دموعى من على الخدود . لن تفيد محاولة إقناع نفسى مرة أخرى ، بأن كل شيء سمعته كان كذبا . لم استطع أن أصدق نفسى . ضعف شخصية ماهر كنت اعرفه جيداً .

فى المساء المتأخر حضر الشيخ مصطفى عدة مرات لم يجد ماهر فى أى مكان ، ولكنه سمع بشائعة نشرها مراد الخشاب . ماهر ترقى وجاء أمر نقله إلى القصير ... وجاء تعيينه مباشرة بعد إعلان الحكم .

صرخت: «هذا مستحيل، الخديو لا يسمح بذلك !».

رد على : «لقد هُوجم الخديو نفسه وبشدة، ويبدو أنه فضل أن يدفن الموضوع كله فى الرمال» .

ـ «هل تعتقد أن ماهر فى طريقه إلى القصير ؟».

ـ «أخشى ، نعم».

ـ «دون أن يودعنى؟!».

هز الشيخ مصطفى أكتافه أسفا، وقال:

ـ «رأيته اليوم قبل الظهر عند إعلان الحكم . كان باهتا كالطباشير ، ثم غادر فى الحال ، مثل شخص خجلان أراد أن يختفى» .

ـ «لا أستطيع أن أصدق ببساطة حقيقة أنه ذهب، ربما أرغموه على ذلك» .

رافقت الشيخ حتى باب المنزل . وفى الخارج ، فى الظلام لمحت خيالا بلا حركة.. عسكريا، ولم أر من قبل مطلقا عسكريا بالقرب من المنزل. نظرت الى الشارع إلى أسفل : هناك أيضا كانت ظلال .. كنت تحت الحراسة !.

وفى الحال تحولت بوجهى نحو الباب ، ظهرت نرجس .

سألت فى فضول: «من كان هذا الرجل الذى غادر لتوه ؟».

بحلقت فيها دون كلمة . كنت أعرف فضولها ، ومتأكدة أنها تتجسس علىّ، وخمنت استراقها السمع من خلف الباب وأنها تابعت حديثنا . كانت تحرس كل حركة . بلغ غضبى ذروته.

أجبتها باقتضاب: «محامى».

لا أستطيع أن أصدق أن ماهر غادر القاهرة . دون أن يحضر إلى هنا مرة أخيرة . قلت لنفسى . ربما ينتظر حتى يحل الظلام ثم يتسلل سرا إلى المنزل .

وفى غرفتى وضعت نفسى على الشباك وانتظرت .. وانتظرت . ظهر القمر مضيئا ، استطعت التعرف على العساكر فى الخارج ولعنتهم جميعا . أمعنت الفكر ، ربما يكون ماهر بالقرب من هنا ولا يجرؤ على الحضور . أكيد هناك أمر خطير يمنعه من الدخول. وربما يكون هو الآخر تحت الحراسة فى المنزل عند والده أو فى المعسكر. نعم، لابد أن يكون هذا هو السبب أولا، لا يوجد غيره يجعله لا يحضر إلى.

لم أدخل السرير حتى الثالثة صباحا كنت يائسة تماما . ماهر لن يحضر وكنت متأكده من ذلك، ولم أرغب فى اقناع نفسى كثيرا بأنه ليس ذنبه وأنهم أبعدوه، شعرت بأننى مختزلة من الجميع، ومحاصرة بالكلاب وبلا أمل فى النجاة، محكوم علىّ بالإعدام وأنتظر الإعدام عند طلوع الفجر.

ظهر لى احتمال العودة لأبى، أفظع من الموت خضوع لا أرضاه وتخيلت بالطبع أن كل شئ أصبح أسوأ مما كان عليه. رأيت نفسى فى دور طفل غير مؤدب، عليه كفارة القيام بأحط الاعمال تحت النظرات الساخرة للخدم، ملكة أصبحت جارية.. وتذكرت قصة كنت سمعتها فى الماضى بنفس المعنى، حكاية بنت فقيرة، أصبحت حياتها مرة حتى سممت نفسها.

وبعد أن بكيت بإفاضة على حظى، خفت دموعى ونظرت حولى. الحقيبة التى كنت قد حزمتها للهروب مع ماهر واقعة على الأرض مفتوحة، والملابس التى أخذتها من الدولاب معلقة على مسند الكرسى. وكان هذا يبعث برائحة الوداع، يجب أن اترك هذا المنزل اليوم برغبتى أو بدون رغبتى . وضعت فكرة الهروب فى رأسى، كانت لاتقاوم.. وإذا أردت الهروب فلا مجال لإضاعة الوقت فقبل الظهر سوف يحصل المحافظ على الحكم لأبى، ويبدو لى هذا أكيداً، لن يتردد فى استخدام هذا الحق ولا أستطيع السماح بذلك، كل شئ داخلى ضد هذا يجب أن اذهب بعيدا أثناء نومهم فى المنزل، ومادام العسكر ينامون أيضا فى الخارج فى هذه الساعة الهادئة قبل طلوع النهار.

وبحذر فتحت الباب وتسللت سمعت فقط شخيرا منخفضا من الغرفة التى تنام فيها توفيقة هانم ونرجس. أردت دخول مدموازيل هورتان ولكن لم أفعل، خاصة من خوفى عليها أن تواجه مشاكل بسبب ذلك. شخبطت فى ورقة بسرعة وزحزحتها تحت بابها، بسببى وألا تغضب منى وأن تثق بى.

تركت الحقيبة وربطت أشياء قليلة فقط، لابد منها إلى حزام. أنصرف الآن بشجاعة ورباطة جأش. وضعت الحجاب على وجهي وتخفيت في الملاية السوداء نفسها التي هربت بها من منزل الاسكندرية دون ان يراني أحد ومثل زمان أحضرت سلة غسيل من المطبخ، وضعت فيها الحذاء ووضعتها على رأسي .

يجب أن أخرج الآن، المدخل الأمامي يضيئه فانوس من الغاز، وبحرص فتحت الباب الخلفي الذي يؤدي إلى حارة صغيرة مظلمة، لفحة هواء باردة جعلتني أرتعش، شعرت بالعتبة الحجرية تحت أرجلي عارية كالثلج استرقت السمع . لم أستطع أن اسمع شيئا في أول الأمر سوى خفقات ني صدري، ثم تسلل إلى أذني نفس منتظم هادي، وقفت ثواني دون حركة وخرجت بحرص إلى الحارة. وعندما اعتادت عيوني الظلام، رأيت شكلا يستند على السور، يمين الباب، راقبته بعض الوقت – لم يحرك ساكنا، بلا ضجيج اغلقت من خلفي الباب، وتسللت إلى داخل الظلام.

تم كل شئ بنجاح وعندما وصلت إلى شارع مضئ كنت بعيدة عن المنزل حتى لا يستطيع أحدا معرفة من أين وصلت.

انبلج الصباح ووصل الترام الأول، ركبت واختلطت بين الفتيات الخادمات والغسالات اللاتي كن في طريقهن إلى العمل.

هربت دون أن افكر إلى أين لم أتذكر أحدا معينا يمكن الاختفاء عنده أو يمكن أن اسأل عنده على ماهر لم أعلم أيضا ولم أعرف من عنده صورة أو تصور لرحيله غير والده الذي لا يمكن الذهاب إليه، ورؤساؤه، ربما لا يسمح لي بالدخول إليهم. وإذا كنت قد شككت في رحيل ماهر ساعات قليلة فأنا الآن على يقين أن والده قال الحقيقة وأنه في طريقه إلى القصير.

إذن يجب أن أسافر أيضا إلى القصير مغامرة هزلية فأنا أكاد أعرف بالتقريب أين تقع القصير، قال لي ماهر ذات مرة أنها حامية في نهاية العالم، لا ينتقل إليها ضابط برغبته ربما توجد وسيلة انتقال إليها بالسفن من السويس وكانت السويس أيضاغير معروفة لي كالقصير، وكيف وأنا سيدة وبدون مرافق أن اقوم برحلة عدة أيام على ظهر مركب ؟ وكنت اعلم أن السكة الحديد لا تصل إلى القصير، ولكني قلت لنفسي في هذه المنطقة يوجد طريق صحراوي ضيق إلى حدما بين النيل والبحر الأحمر جدتي ذكرت هذا من قبل لأنها عبرته بقافلة من

حجاج بيت الله إلى مكة .. وفكرت إذا نجحت فى الوصول إلى قنا، سوف أصل من هناك إلى القصير بطريقة ما ولكن الشئ المرجح فى اعتقادى وبدون سبب انهم يبحثون عنى فى منطقة السويس.. أى طريق أخذ ماهر ، لم اكن اعلم شيئا عن ذلك.

وقف الترام أمام المحطة. نزلت وذهبت وسلتى على كتفى وطرف الملاية بين اسنانى، لكى أخفى وجهى. وصلت إلى شباك التذاكر فطلبت تذكرة درجة ثالثة إلى قنا.

تحرك القطار إلى الصعيد بعد ساعة. كنت أخشى أن يكتشف أحد هروبى اثناء ذلك ويبحثوا عنى فى المحطة. ثم لاحظت مجموعة صغيرة من السيدات اللاتى يتحدثن بصوت عال باللهجة الصعدية واختلطت بهن وتعرفت عليهن، كن عائدات إلى بلدهن منفلوط، بعد أن شاركن فى حفل زفاف فى القاهرة.

وبسرعة اخترعت رواية ظريفة : انى مسافرة لزوجى فى قنا وأصلى من نفس البلد. تحدثت معهن باللهجة الصعيدية وصعدت مع السيدات إلى عربة الدرجة الثالثة وشاركتهن زغاريد الفرحة، عندماانطلق القطار.

جلسنا فى القسم الأخير كمجتمع صاخب مسرور ثم انضمت إلينا بعض السيدات اللاتى لم يكن بصحبة زوج أو أخ مسافرين قلت لهن أفضل الحكايات المسلية، كالتى يحكوها من حريم لحريم والتى لا تتعب الواحدة من الضحك عليها، كنت أضحك بصوت أعلى من الأخريات، بسبب حزنى، وموقفى كهاربة، يبحث البوليس عنها بالتأكيد.

فى منفلوط نزلت مرافقاتى فى الرحلة، وبعد قليل فى أسيوط جلست سيدة مليئة إلى وبدأت حديثها معى.. كانت عند ابنتها الكبرى التى ولدت طفلها الثالث لمدة أسبوعين، وهى الآن عائدة إلى زوجها، ومعها بناتها الثلاث الصغيرات إلى قنا.. زوجها يعمل جواهرجى ، أفضل واحد فى كل قنا وغنى أيضا.

كانت ترغب فى معرفة شيء عنى. حكيت لها خليطا من الشعر والحقيقة: زوجى ضابط معسكره فى قنا وسينتقل للقصير، وودت زيارته قبل رحيله. وعندما أصل القطار فى منتصف الليل إلى قنا، كنا صديقتين حميمتين. غادرت معها مبنى المحطة. وافتعلت المفاجأة وخيبة الأمل أن أحدا لم يأت ليصطحبنى.

ماذا أفعل الآن ؟ مستحيل أن أذهب فى مثل هذا الوقت إلى المعسكرات

البعيدة إلى حد ما خارج المدينة. هل أقضى الليلة فى المحطة ؟.

الست زينب، صديقتى الجديدة، وجدت هذه الفكرة فظيعة: أرادت أن تأخذنى معها لمنزلها، فيه مكان كفاية ، منزلها هو منزلى. وحررنى اقتراحها من ارتباك شديد لم أكن استطيع أن أكون ملفتة للنظر وهذا لا يحمد عقباه، أو البقاء فى المحطة، أو آخذ غرفة فى فندق، أو أتجول فى الشوارع حتى الصباح.

قضيت الليلة عند الست زينب المضيافة، نمت فى غرفة ابنتها نبيلة والتى وثقت بى على الفور، وقبل أن نطفىء اللمبة تحدثنا معا طويلا.. كانت الصغيرة عمرها ١٦ عاما ومتورطة كما اعترفت لى، فى قصة درامية، مثل قصص فتيات مصريات كثيرات، مثل تراجيديتى ! فهى تحب. هو ابن تاجر المناديل جارهم ووالدها يرغب فى إعطائها لأحد أولاد اعمامها، الذى هو أكبر منها بعشرين عاما .

ـ نبيلة المسكينة !.

لم اجرؤ أن أقنعها بألا تخضع لوالدها. مثل هذه القرارات يجب أن يتخذها المرء بنفسه إذا ما اعتبر نفسه قوياً بما فيه الكفاية.

لم أستطع النوم هذه الليلة، مغامرتى لم تخرج من رأسى. حاولت أن أتخيل كيف تطورت الإمور فى القاهرة، بينما أنا أسافر بالقطار تجاه الجنوب. أكيد قام والدى بسبب غضبه بإرهاب المنزل كله وأخبر البوليس.. ولكن هل يستطيع أحد أن يتتبع أثرى الآن ؟ فى القصير؟ أو مازال فى السويس؟ فى البحر ؟ فى الصحراء؟ أو حتى فى قنا؟ فى عقلى ، أننا ربما نكون بالقرب من بعضنا البعض دون أن نعرف، كنت أنتظر بفارغ الصبر، لأبدأ البحث عنه ! وتحولت إلى مجنونة تؤمن بالمعجزات فربما يوجد ماهر فى القاهرة او الاسكندرية ؟ وربما لم يكن هناك حديث بالمرة عن نقله إلى القصير؟ وسقطت رقبتى على رأسى فى اللامعلوم. كيف أصل إلى القصير؟ لقد أصبح الآن واضحا لى أى الصعوبات تواجهنى. المسافة أبعد مما كنت أتصور. على الأقل خمسة أيام سفر كما أكدت لى الست زينب . ومنذ عدة أعوام لم تُستخدم هذه المسافة من الحجاج، فالقلة التى تسافر بصفة عامة من قفط وليس من قنا – أنا وقعت فى خطأ، وأن أعود إلى القاهرة بالشتيمة والعار، وقبل أن أبعد حتى عن وادى النيل، فالمشقة مازالت أمامى.

فى اليوم التالى رافقتنى صديقتى الصغيرة إلى المدينة، كنت على أمل فى اشارة فقط من أى جندى ومع ذلك حدثت فعلا معجزة عندما اقتربنا من خيام

الجيش التى دقت فى الصحراء. تعرفت على ضابط من بعيد، وقبل أن أرى وجهه، تعرفت عليه من القوام :

إنه ماهر!!

وقفت كما لو امتدت جذورى وأصابعى ناشبة فى ذراع نبيلة . كان يرغب فى المرور ولم يلاحظ السيدة المحجبة والمخفية فى الملاية السوداء والتى وقفت هناك بقلب خافق.

«ماهر!»

استند وبقى بلا حركة ثوان، وقف بفم مفتوح فجأة ، خفت أن أرى على وجهه غضبا أو زعلا. ولسعادتى بدأت عيونه تضئ وابتسم. هذه الابتسامة جردتنى من أسلحتى وبلعت كل التوبيخات المريرة التى رميت بها نفسى.

خطونا جنبا إلى جنب ، بينما نبيلة تتبعنا بخطوات على بعد سرا. ولفترة لم نجد كلمات.

قال ماهر أخيرا: «تعرفى كنت أرغب فى الحضور إليك، لأودعك ولكن الجميع ادعوا أننى بذلك أجرحك أكثر أو أفضحك».

قلت له : «لم أسأل أحداً النصيحة، عندما أردت أن أحضر لك، ولذلك وصلت إليك وحيدة تماما».

ـ «كيف عرفت أنى فى قنا؟ هل قال لك أبى ؟»

ضحكت . كنت على وشك أن أحكى له ما فعله والده معى، ولكن شيئا أمسكنى عن ذلك.

ـ «لم يخبرنى أحد بشىء، ولم أخبر أحدا بخططى، إذا لم أجدك هنا، كنت سافرت للقصير».

ـ «لم تكونى لتنجحى».

ـ «بلى، صدقنى، كنت سأنجح. والآن دعنا نتحدث مع بعضنا البعض بصراحة، يا ماهر. على الرغم من الأحكام التى تصدر من جميع محاكم العالم، فأنا مازلت أرى نفسى زوجة لك، ومستعدة لاتباعك إلى أى مكان وأن أعيش معك. السؤال هو فقط، هل أنت مستعد لتتحمل المسئولية وتحتفظ بى عندك ؟ فكر جيدا ولا تحدثنى وتقول لى عليك بالرجوع لوالدك . فأنا لم أترك كل شىء، وأضع نفسى أمام القضاء، الفضيحة، غضب أبى، لم أتغلب بعد على الألم الذى كلفنى أن أفعل

به هذا، لكى أعود إليه الآن نادمة على حجره وأرزخ للأسرة . أنا الآن، لأن هذا ما أردت، حرة تماما، في تعرفى هناك احتمالان. إما أن أتبعك إلى القصير، أو آخذ القطار إلى أسوان اليوم، ومن هناك إلى الخرطوم، فأنا مثقفة بدرجة كافية تجعلنى أحصل على عمل هناك وأعيش مستقلة».

يبدو أن ماهر تعرف علىَّ الآن.. فلم يحاول أن يناقشنى فى الخطة. وبينما يذهب ببطء إلى جانبى فكر.. وفجأة جاءنى الشك بأنه يبحث عن طريق ليتخلص منى.. بقيت واقفة ونظرت إليه فى العين.

ـ «ماهر.. سامحنى.. ولكن هناك شيئا يدور فى رأسى ، ويجب أن أتحدث معك بلا لف ولا دوران.. لا يجب أن تعتقد أنه بإمكانك أن ترسل لأبى أو أبيك تلغرافا، ليحضرا ويأخذانى ! أنا أحذرك.. فأنا لا أقبل أن يحدث معى هذا، افضل أن أنتحر!».

إعترض لإهدائى له هذا الاعتقاد .

سألته: «متى سترحل إلى القصير؟».

ـ «باكر صباحا».

ـ «هل ستأخذنى معك؟!... نعم أم لا ؟»،

ضغط على ذراعى. وقال : «كيف أستطيع أن أتركك الآن ، بعد أن وجدتك؟!».

يبدو أنه يعنى ذلك ولم أطالب بشىء أكثر من ثقتى به تماما.

كان عندى انطباع حقيقى بأننى استعدته.

٣- الغناء الفاتن

غادرنا قنا عند انبلاج الصباح ، وحتى اللحظة الأخيرة تحملت مخاوف: البوليس أو الجيش، فربما يتلقون أمرا بالقبض علىّ أو على الأقل إعاقتى عن الرحيل مع ماهر. ومع ذلك لم يحدث شيء من ذلك، وهو ما أدهشنى وخشيت أن تكون مصيدة. فى الطريق أصبحت أقل شجاعة. ربما ينتظروننى فى القصير، ولم أرغب فى التفكير فى هذا الآن.. كان أمامى خمسة أيام... خمسة أيام مع ماهر.

كانت هذه الرحلة كالأسطورة بالنسبة لى. لم نكن كثيرين :

ضابطين من زملاء ماهر، ودستة عساكر، بالإضافة إلى سيدتين من زوجات ضباط الصف اللاتى اتبعنْ أزواجهن إلى القصير، واحدة منهن فقط سافرت معنا من قنا، والأخرى انضمت إلينا فى قفط ، جعلونى أركب هودجا محمولا على جمل بمكانين، شيء مثل القفص مشابه للأثاث الذى يستخدمه الفلاحون ليصحبوا العروس إلى الزفاف.. وسيلة النقل المغلقة هذه لم تكن تناسبنى بالمرة، حتى أنى فى قفط تخليت عن مكانى للضيفة الجديدة.. ومن أجلى تم سرج جمل أبيض وعلمونى كيف أوجه الحيوان وأن أخضع للايقا ع المهتز لحركته، وفرحت كطفلة .

أصبحت الأرض الخصبة خلفنا وكنا أنا وماهر كثيرا ما نوقف حيواناتنا ونبقى خلف القافلة . ثم أرفع الحجاب وأستمتع بكل مميزات قرب الرجل الذى أحببته والذى كان بالنسبة لى دائما زوجى، وأستمتع أيضا بجمال الصحراء المرير.

يجب أن أعترف أنه من العار أننى لم أكن أعلم شيئا عن صحراء مصر حتى هذه اللحظة، عن روعة شروق وغروب الشمس، لعبة التغيير بين الظل والألوان على الصخور العارية بين الصباح والمساء، الهدوء الفردوسى فى لياليها.

طارت كل مخاوفى عندما علم ماهر بالمصادفة من أحد الضباط فى قافلتنا أن مجال سلطة الحكومة المدنية لا يمتد خارج الأرض المبنية، وأنه فى منطقة الصحراء لا يمكن أن ينفذ أمر القبض علىّ.. كنت حرة، غمرتنى فرحة الحرية، منتشية بالحب أيضا، وتمنيت ألا تنتهى الرحلة أبدا.

وجاء مساء رؤية هلال رمضان في اليوم الثاني للرحلة . وبعد الظهر ضربنا خيامنا على بئر چيتا . وعند غروب الشمس ارتجل الجنود، وكان أكثرهم من النوبة، احتفالا بالأغاني والرقصات. بينما أعددت طبقا من الحلويات، كان طعمه ممتازا، للجميع.

قال ماهر: «أنت طباخة ممتازة يا رمزة».

امتداحه لي جعلتي أطير من السعادة. لم أتمن لنفسي أكثر من أن أكون زوجة طيبة.. زوجته.

في الصباح التالي وقبل أن ينبلج ضوء الصباح، غادرنا.. بعد أن شربنا شايا بسرعة على ضوء نيران المعسكر وتناولنا ملء اليد البلح الجاف. في هذا اليوم قطعنا مسافة بعيدة . كان الطريق يتلوى خلال المضايق الضيقة، وتلونت الصخور بألوان أخرى لا يمكن تصورها : من الأسود الفاحم إلى البنفسجي المشع أو الفيروز. شاهدت للمرة الأولى طبيعة سلسلة الجبال ، هذه الصخور لا يمكن مقارنتها بقمم جبال الألب ، التي وصفها أبي لي . ولكنها تشبه إلى حد كبير جبل عرفات الوعر الغريب كما وصفته لي جدتي.

كل شئ حولي وداخلي يشع بالجمال والحب ، ماهر الذى كان قريباً بجانبي، وفي مقدمة القافلة ظهر كأجمل وأفضل من كل البشر، الوحيد الذى يستحق أن أكون زوجة له.

في اليوم الخامس ظهرت من بين الصخور أشجار . نخيل ، وأغصان نبات الست المستحية «ميموزا» حول بئر وعلى ضفاف خليج صغير يسمى لماجا.. مصدر ماء «القصير».. ربط الرجال قِرب الماء المبللة على الجمال الراقدة على الرمل.

وبسبب الصيام لم نشرب، ولكن الحيوانات أطفأت عطشها طويلا.

الجبال أمامنا أصبحت أعلى منحدرة أكثر، وأعظم، وعندما نزلنا من المنحدر الصخرى الأخير، وقع البحر أمامنا، وعلى الشاطئ، وعلى الرمال العارية الحمراء، ارتسمت ظلال أحد الحصون القديمة وبعض المنازل.. القصير. لم أكن خائبة الأمل على بدائية هذه المنطقة، على العكس، كنت أتمناها أكبر بدائية «تواضعا» ومهجورة وحتى أكون فيها وحدى مع ماهر؟.

خمسة أيام كاملة . ماهر لي وحدى بالكامل . كنت فرحانة . وكيف لا ؟ أسفت

الآن على انتهاء الرحلة وعلى العيش بين البشر مرة أخرى وعلى اطاعة القوانين التي اخترعها البشر والتي هي عدو للحركة الانسانية ، كان الخوف على حبي له أسبابه العديدة .

وكقائد للحامية حصل ماهر داخل منطقة الحصن ، على منزل صغير شبه مؤثث : سراير قابلة للطي مناصفة وكراسٍ كما لو كانت غرفة النوبتجي.

وكان كل شئ في مساء وصولنا غارقاً في طبقة من التراب السميك ، ولذلك نمنا على حصائر كما كنا ننام أثناء الرحلة ، ولكن هذه المرة خلف باب سليم مغلق : في المنزل .

وبعد وصولنا بيوم ودون انتظار الخدم «المراسلة» كي يساعدوني، بدأت بالتطبيق والترتيب ، وكان ماهر مبهوتا لأنه لم يستطع أن يقدم لي منزلا أفضل.. حتى أنني ضحكت على ذلك ، وأظهرت له قدراتي المنزلية .

في الأول ساعدتني زوجة أحد ضباط الصف ثم «الخادم المراسلة» عبدالله وهو جندي عجوز من النوبة بشارب أبيض طويل. وعندما جاء ماهر للمنزل عند الظهر لفترة وجيزة، استطعت وبكل فخر أن أقدم له منزلا نظيفاً وبسرعة البرق، وهذا يبرهن على كوني زوجة طيبة.

بعد الظهر غادرت الحصن وتجولت في المدينة لأني تقريباً لم آخذ شيئاً معي من القاهرة . لا أقمشة مختلفة للمنزل ولا فواكه جافة لرمضان. وعند الغروب استطعت تقديم وجبة لماهر على المنضدة وكما هو متبع في المنازل الكريمة على الإفطار. كنت أرغب في إعداد منزل حقيقي له . كان متأثراً على كل حال وكما ادّعى هو عندما أخبرته بجولتي في السوق ، إكفهر وجهه وسألني بغضب : هل علم أحد ، من تكونين؟ أنا مش عايزك تخرجي بدوني . كنت أفضل أن أواجهه ، فأنا لا أقبل السجن منه ، أو من أي أحد آخر، ولكنني بلعت الإجابة الحادة ، وشرحت له بدلا من ذلك وبصوت أهدى ، بأني لم أكشف حجابي ولم أنطق بكلمة أكثر من الضروري للشراء .

صعدنا للتراس. كانت الليلة شديدة البرودة . هلال القمر الفضي والنجوم المتلألئة في السماء الجنوبية منحت شريط الصحراء الضيق، والجبل المظلم على البحر، جمالا هادئا بدائياً.

تحتي وعلى تراس المنازل، قرفصت مجموعة صغيرة من السيدات حول مواقد

فحم متوهج وكن يثرثرن، وفى الحارات تمايلت فوانيس رمضان.

كنت أتمنى أن أتقاسم السعادة التى ملأتنى مع ماهر، ولكن بمجرد أن التفت إليه ، لاحظت أنه نائم فى كرسى ذى مسند.

طبعاً، كان مرهقاً جداً.. ومع ذلك انمحت سعادتى، جلست وبدأت أتثاء ب من الملل .

مرت أربعة أيام فى سعادة هادئة، وكانت عندى أقل هدوءاً ! وتسوقت . اشتقت الاخبار. حقيبة البوستة الأسبوعية وصلت مع قافلتنا، وحتى القادمة سيستمر ذلك وقتاً. صحيح لم انتظر خطابات لأنى لم أخبر أحداً، ولكننى كنت مشدودة للجرائد والتى سيكون فيها بالتأكيد تعليقات على قضيتى وهروبى.

ماذا يمكن أن يكون قد حدث فى القاهرة ؟ كان هناك الكثير لمعرفته : شيء عن مدموازيل هورتان . نرجس .. وخاصة عن والدى . ولأنى لم أسمع شيئاً به أقلقنى ذلك؛ فهو وكما أعرفه سوف يبذل جهده عند رئيس أركان الجيش ليبحث عنى، أو إذا كان من الضرورى يسافر بنفسه إلى القصير. صحيح سبقته بعدة أيام ومع ذلك لم أمنح نفسى أوهاما، فسوف يبحثون عنى ويبدأ الكفاح من جديد. ومن الآن أسلح نفسى، وكنت على وشك اليأس، لأن الأيام مرت بشكل رسمى وبدون أحداث.

كم كنت أتمنى أن أقضى مع ماهر هذه الاستراحة فى نشوة الغرام ولو حتى للحظات . ظهرت الحقيقة من جانب آخر بالكامل. كنت أراه نادراً نهارا وليلاً يأخذه النوم منى . وأحيانا ما ينفعل بعصبية وضيق ، ولم أسلم من ذلك ـ ويجرحنى بعمق .

حينئذ سألت نفسى، إذا ما كان والده محقا فى ادعائه أن ماهر لم يعد يحبنى، وفى نفس الوقت أجد كل المعاذير الممكنة : العمل الكثير الهموم.. وعندما يبتسم مرة أخرى ويأخذنى فى أحضانه.. أكون أسعد زوجة على وجه الأرض.

لم أختلط بأحد عدا جيرانى زوجات ضباط الصف اللاتى تعجبن لأن ماهر يأخذنى ليقدمنى للهوانم فى المدينة ـ وليس لزوجات الضباط الآخرين. لأنه لم يكن أحد منهم متزوجا، بل زوجات المحافظ، والقاضى، ونبلاء مختلفين آخرين.

أكدت لهن بأنى أفضل أن أكون منعزلة تماماً، وهذا أيضاً صحيح ، وبالرغم من ذلك فكرت فى أن ماهر لا يقدمنى لأحد لأنه يخجل منى ولأنى كنت سيدة محط

الاهتمام، وبدأت أسأل نفسى، هل يخفينى عن العالم كله ، وحتى يتخلص منى بسهولة ، ودون أن يطلقنى بالشكل الرسمى، زواجنا كان باطلا قانونا .

هذه الأفكار العكرة كانت تعذبنى بشدة ، وعندما كنت أملها وأجلس وحيدة فى المنزل بلا عمل أو أنظر من التراس على البحر والجبال ، كنت أغطى وجهى وأخفى نفسى فى الملاية ، وأغادر الحصن . ولا أخبر أحدا حتى ماهر. عندما أذهب خلال الحارات الضيقة ، سيدة محجبة بين الكثيرات الأخريات ، لا يمكن لأحد أن يعرف من أكون ؟.

بهرنى الميناء وصخب الأمواج التى تضرب فى رصيف الميناء، الصيادون يجففون شباكهم والمراكب الراسية ترقص على الماء. ذات مرة شاهدت زورقا شراعيا بصارية واحدة ، يفرغون حمولته ، وقفت طويلا هناك ونظرت إلى السفينة الرشيقة الفاخرة ، من أين تأتى ؟ من السعودية ؟ كنت أشاهد، كيف يدفعون المِرساة ، ويضعون الشراع ثم تنساب إلى البحر المفتوح.

ولوقت طويل لم أعد أفكر بأن فى الحصن زوجا لى ربما ينزعج لغيابى ، رجلاً ضحيت من أجله بكل شىء ، وأدرت وجهى لكل العالم ، وتحت حجابى الاسود السميك كنت سيدة صغيرة تشتاق إلى المستقبل البعيد.

بعد أيام لاحظت من نافذتى وفى الخارج أمام المدينة جمهورا، اجتمع حول مجموعة من الجمال . اعتقدت أولا ، أن قافلة وصلت فى الليل ، وأنهم ربما احضروا معهم خطابات وجرائد، ولكن العجوز عبد الله قال إن أصحاب هذه الجمال من العبابدة ، بدو من الجنوب، متوحشون بمعنى الكلمة . هذا ما قصده ، ونادراً ما يظهرون فى القصير.

وضعت شيئاً على عجل وأسرعت لأراهم عن قرب . لم يحملوا شيئاً سوى ملابس صعاليك رثة على أكتافهم ، وفى الأيادى وضعوا رمحاً، وترساً مروراً . وجوههم كانت دقيقة القسمات تحت شعورهم الطويلة المجعدة، مع أنف مستقيم وشفاه ضيقة، وفى عيونهم وهج اعتزاز بالنفس برى . أناس عاشوا خارج قوانين الأمم . متمردين دائماً . حسدتهم .

وبدلا من العودة للمنزل ، ذهبت إلى البلاج . امتد البحر حتى الأفق . حلو ، زلق... بشغف غريب كنت أفكر فى عروسة البحر (الجنية) التى تحدثت عنها جدتى عندما كانت تحكى لنا عن رحلتها للحج . سمعت أغانيها الفاتنة ، أغنية

الحرية . وشعرت على بقعة الصخور المحاطة بالجبال والبحر والرمل بأننى سجينة، لا شئ يربطنى هنا عدا حبى. وفجأة ، شعرت بالرغبة التى لا تقاوم ، فى أن أرى ماهر ، أسمع صوته ، أن أنام فى ذراعيه ، وبسرعة رجعت للحصن .

لم يخبرنى ماهر بموقع مكتبه ، ويبدو أنه كان لا يرغب فى أن أضايقه هناك.. ولكن يجب أن أراه الآن وبأى ثمن . دخلت المعسكر .. سألت جنديا.. ثم مررت على عدة مواقع فى النوبتجية.. وجدت ثلاثة ضباط كان ماهر من بينهم ، يقيمون هناك ، يثرثرون ويضحكون . وعند ظهورى بحلقوا فىّ. ماهر الذى كان يجلس على راحته على ديوان ، نهض مسرعا ، فقد تعرف علىّ بالرغم من الحجاب .. كنت أرجوه أن يأتى للخارج برهة ، لكنه لم يدعنى أنطق بكلمة ، وأمرنى بصوت قاطع بالعودة للمنزل فوراً .

ضايقنى رد فعله.. غادرت المكان.. أغلقت الباب خلفى.. وبشدة.. أسرعت بعيداً ليس فى اتجاه المنزل ، بل خارج الحصن.. انسابت الدموع على وجنتى ، صارعت النفس وكان إحساسي هو الاختناق . جنوب المدينة كون ساحل البحر خليجا صغيرا .. هنا .. حيث تضل الامواج فى الرمل ، تركت نفسى أسقط على الأرض.. أتعس مخلوقة على وجه هذه الأرض.. إذن لم يعد ماهر يحبنى ، ماذا أفعل فى هذه الأرض المقفرة ؟ .

لا توجد منطقة فى العالم أردت الذهاب إليها ، لم أرغب فى العودة إلى القاهرة أو الاسكندرية ، كان العالم كله أرضاً عدوة لى .

البحر أمامى ــ ليته يحملنى بعيداً إلى أى مكان.. إلى لا مكان !.

فى البعد ، تحت أرجل الصخور الحمراء المتوهجة تحركت جمال فى طابور طويل ، واحد خلف الآخر.. العبابدة يعودون للجنوب.. آه.. لماذا لم أصبح واحدة من زوجاتهم وأختفى معهم فى الصحراء اللا نهائية ؟.

لم أشعر بالوحدة هكذا من قبل .

أعادتنى طلقة المدفع التى تعلن عن نهاية الصيام للواقع مرة أخرى.. غابت الشمس.. فكرت فى ماهر الذى ينتظرنى دون صبر.. أكيد أنه جائع.. فالصيام يسبب له إجهاداً نظرا لشهيته المفتوحة.. ولكن، عليه أن ينتظر.. كان الأمر بالنسبة لى سيان.. ولكن فى نفس اللحظة اتسع قلبى بالحب.. ووجدت كل الاعذار الممكنة لاندلاع غضبه الدامى.. كان رمضان . لم يأكل شيئا اليوم كله بالإضافة لأنى

فاجأته وضبطته وهو غير جاد فى عمله.. أراد أن يحفظ ماء وجهه أمام زملائه.. فضلت الختام السريع.. بأنه لم يعد يحبنى.

عدت للمدينة ، خلت الحارات من الناس، جلس الحراس فى مدخل الحصن للإفطار. ماهر لم ينتظرنى وأنهى وجبته توا ، رمانى بنظرة حقودة :

ـ «عايزه إيه هنا، أرجعى للمكان الذى كنت فيه !».

بعد العبارة التفت ورائى: «جميل ياماهر، لست فى حاجة لتعيد هذا مرتين، أنا فهمت».

كنت أقف على العتبة، عندما أمسك بى وأعادنى للغرفة، سمعت دوران المفتاح فى الكالون، لقد أوجعنى ماهر.. لكن هذا الألم ملأنى بالسعادة؛ فهو إذن لا يرغب فى فقدانى؟

ـ «أنا أمنعك من الخروج، هل هذا واضح؟!».

ـ «إذن لا تتركنى وحدى اليوم كله».

ـ «أنا عندى حاجات أخرى لعملها».

ضحكت مستهزئة: «نعم هذا ما رأيته، العمل الذى تقوم به، لا تجهد نفسك بالكذب.. لقد مللت صحبتى.. رائع.. إذن لا تمنعنى أن أسلى نفسى، على قدر ما أستطيع أو أذهب بعيداً».

صعد الدم فى وجهه ، صرخ: «أنا لى الكلمة هنا!، أنا أمنعك من الذهاب للمدينة، تكفينى الفضيحة التى فعلتها فى مكان ما».

ـ «أترمينى أنت بالذات بهذا؟.. يبدو أنك نسيت أننى تصرفت بشجاعة كرجل، وهذا فقط لأنك يا ماهر لم تفعل شيئا سوى النحيب كامرأة!».

هجم علىّ وأراد ضربى.. دافعت عن نفسى.. خربشت وعضيت، ولكنى أصبته، وانتهى أيضاً هذه المرة الشجار.. وكما ينتهى الشجار بين العشاق .. وقضينا اليومين التاليين فى الحب.. ماهر بذل مجهوداً ليكون لطيفا معى.. وكان يحضر عدة مرات خلال النهار، وحتى ولو لوقت قصير إلى المنزل، وأنا من جانبى راعيت ألا أذهب إلى أى مكان.

وفى مساء اليوم الثانى وصلت البوستة من القاهرة. وصل خبر فظيع.. فى خطاب موجه إلى ماهر من أخته بهيجة، أخبرته فيه بموت أبى وطَلبت منه أن يخبرنى بذلك بتحفظ، فى حالة ما إذا كنت أقيم معه وكما ظنوا.

تسلم ماهر الخطاب باليد فى مكتبه، وبعده بقليل حضر للمنزل، كنت أنتظره

على أحر من الجمر.. لسماعي بوصول القافلة، وكنت متوترة ومنتظرة الجديد. وعندما رأيت وجه ماهر الشاحب، وعيونه التى تجنبت نظرتى، علمت فوراً بأن هناك خبرا سيئا، ولكن لم أفكر فى البداية فى خبر وفاة.

ـ «ماذا حدث يا ماهر؟، هل يرغبون فى تفريقنا؟ هل طالبوا بطلاقي وعودتى إلى القاهرة؟ سوف لا أفعل ذلك! أنت مازلت تقف فى صفى، صح؟».

قال أخيرا: «لا.. ليس هذا، هناك خطاب من أختى».

ـ «إتكلم! ماذا كتبت؟»

ـ «أبوك...».

ـ «ماذا حدث له؟».

ـ «أصابته سكتة».

أطبق على الورقة وانتزعتها بصعوبة من بين أصابعه.

نعم كان خط بهيجة التى كتبت:

«اختفائى سبب استياءً شديداً، فى نفس طبعة الجريدة التى تستشهد منها، ظهر أيضاً نبأ وفاة أبى.. مات فى يوم هروبى بنزيف فى المخ.

بهيجة استقلت القطار القادم من القاهرة، زارت نرجس، تحدثا عنى وتشاورا، ماذا سيحدث فى مشكلة الإرث.. أضافت بهيجة: «إذا علمت أين تقيم رمزة، فأخبرها وصمم على عودتها إلى القاهرة.. فلا يوجد ماتخشاه وسوف تستقبلها نرجس بالأحضان».. كان الخطاب مكتوبا بحذر.. لأنه سيقع تحت يدى، فقد خشوا أن أعارض العودة والله يعلم إلى أين أهرب.

لم أفهم فى البداية. وهذا مستحيل أن يموت أبى.. الواحد لا يموت فجأة هكذا! بحلقت فى السطور ولم أستطع أن أصدق أنه كلام منى أو منه، وفكرة دارت برأسى: هل هذه ربما تكون مصيدة أرادوا أن يشدونى بها إلى القاهرة؟ ويحبسونى بذلك؟ ولكن ، يبدو أن بهيجة كتبت الحقيقة، فقد مات أبى، ويقين فظيع اخترق قلبى بسكين.. أنا كنت السبب، أنا التى قتلته» .

تهاويت باكية.. ماهر رفع الخطاب وقرأه مرة ثانية: «يجب أن ترحلى يا رمزة».

نظرت إليه مفزوعة: «لا أود أن أتركك يا ماهر!»

وظهر تعبير غامض على وجهه، حتى أنى خمنت أفكاره: «هل تعتبرنى السبب فى موته؟».

ظل صامتا.

ـ «أنا كافحت فقط من أجل سعادتنا يا ماهر، حتى ضد أبى الذى من لحمى ودمى، ومع ذلك كنت أحبه! آه، كنت أحبه وبشدة!».

لمست يده ولكنه رجع للخلف.

ـ «سنرحل غداً باكر».

ـ «هل ستذهب معى؟».

أخجل من نفسى أن أعترف، ولكنها دوّت مثل صرخة الفرح، صرخة فرح مليئة بالمرارة. كنت خائفة أن أفقده:

قال: «فقط حتى قنا.. لا أستطيع أن أبقى بعيدا عن موقعى أطول من ذلك »!

ـ «قدم استقالتك يا ماهر! عندى أموال كفاية لنا إحنا الاثنين لنعيش!»

ماذا قلت؟ بمجرد خروج هذه الكلمات، وأردت أن أعيدها مرة أخرى، كان قد فات الأوان.. وأعوجت ملامحه.

ـ «لن ألمس أموالك مطلقا.. ولن أستقيل من الجيش أبدا».

ـ «إذن أبقى معك».

ـ «لا.. لابد أن تعودى للقاهرة ، أبوك مات».

ـ «وبذلك لا أستطيع أن أحبه، وبالنسبة للإرث لا يخصنى بشىء».

ـ «يجبِ أن تعودى».

ـ «تعالَ معى واطلب اجازة»

كافحت بمرارة، وأنا مقتنعة بأنى سأفقده للنهاية، إذا ما تركته الآن، ولو حتى لعدة أسابيع، ولكنه أظهر وجها مكفهرا وتجنب نظرتى.

ـ «سأرافقك حتى قنا » .

ـ «وهل أكمل الرحلة وحدى؟».

تردد ثم قال: «حسنا، سأقدم طلبا للإجازة وبمجرد الموافقة، أسافر إلى القاهرة».

ـ «إذن دعنا ننتظر ونسافر معا».

ـ «لا.. يجب أن ترحلى فى الحال، لا يجب أن يشاهدونا معا فزواجنا أصبح باطلا، لا تنسى ذلك».

ـ «حكم المحكمة لايعنى الطرد! ماذا يعوقنا من إعادة الزواج؟ هناك أكيد قاضٍ ومأذون فى القصير».

كم دافعت بإصرار قبل انسحابى خطوة خطوة!.

ـ «أجبنى يا ماهر، هل ترغب فى الزواج؟»

هز أكتافه وقال: «حتى لو أردت .. القانون لايسمح.. أخيراً اعتبرونى غير جدير بك.. هل نسيت ذلك؟».

أخبرنى صوته المسيطر العالى أن الجرح الذى ضرب مشاعره لم يندمل بعد ولم يؤلمنى ذلك أقل منه.

ـ «هذا مخالف للمنطق ولايمكنك أن تلصق بى هذه الحجة الواهية.. فسوف أحرك السماء والأرض لأجعل هذا الحكم لاغيا ولايبقى شيء منه».

ـ «سيكون هناك شيء معلق دائماً».

ـ «ماذا تقصد بذلك يا ماهر؟»

نظر إلىّ لحظة وأدار نفسه فى الحال، أظن أن وجهى من الخوف والحزن كان يبدو فظيعا ربما خفف هذا من حدة الكلام .. كان يخشى أن أنهار بالكامل عندما يخبرنى بأفكاره.

قال: «سنغادر غداً باكر».

سألته: «وماذا بعد ذلك؟».

كان لابد من إعادة أسئلتى.

ـ «حينئذ.. سوف نرى».

كنت جبانة فى هذا المساء، ولم أسأل مرة أخرى.

ولا أعلم أين قضى ماهر هذه الليلة، تقلبت فى السرير، وحدى، ولم أنم، بعد الوفاة تحرم العلاقات الزوجية لمدة أربعين يوما. كنت أعرف ذلك، وكنت أعلم أيضاً أن هذا ليس السبب الوحيد، لعدم نوم ماهر عندى ، وكان وجه أبى الميت يظهر دائماً وأبدا واضحا أمامى حتى تألمت من عذاب الجحيم.

رحلة العودة إلى قنا كانت مثل عمليه دفن جثة.. ركبنا ساعات طويلة بجانب بعض إلى هناك دون أن نتبادل كلمة واحدة.

كان ماهر ينضم لجنوده عند الصلاة أو الإفطار أو السحور.. وكنت أصلى، وآكل وأنام وحيدة فى الخيمة التى نصبوها بعيدا.. كان ماهر ينام أمام مدخل الخيمة.

أسرعنا، وكم كنت أفضل أن أركب ليلا ونهارا، حتى أضع حداً لكل ذلك وبسرعة.. حتى جمال الطبيعة أصبح لا يهمني.

في اليوم الرابع، مساءً، وصلنا إلى بئر عنبر حيث صلينا العصر.. أخضر وادى النيل على مرمى البصر، قريباً سنصل للهدف. وقبل أن نركب الجمال استجمعت شجاعتي وطلبت من ماهر أن يسمعنى. فكرت كثيراً خلال الأيام الأربعة الصامتة.

كنا أمام قرار لا يقاوم ولا يجب أن يكون هناك سوء فهم بيننا. ثم دوى صوتى أقل ثقة، كنت أعلم أن السؤال الأول ربما يهدم كل قصورى القائمة على الأحلام:

ـ «ماهر، أجبنى بصراحة وأمانة، دون اعتبار لأملى: هل تقبلنى كزوجة؟».

مرت الثوانى ببطء وبصعوبة مثل قطرات المطر السميكة فى قلبى. ماهر صمت، وأثناء هذا الصمت الطويل نازعنى كل هذا الذى فكرت فيه فى الأيام والليالى الأخيرة، فجأة أصبح كل شيء أمامى، وكم كنت عمياء.. لم أتعرف على الحقيقة من قبل!. لم يرغبنى ماهر. لقد أرغمته على الزواج منى فى الاسكندرية، واقنعته فى القاهرة، أن ينقذ هذا الزواج، كنت أجرى فى أثره حتى القصير، عندما هرب منى، دائماً كنت أنا التى أتمسك بالمبادرة، أنا وحدى! فى القضية ضد والدى قدت الكفاح، ماهر وضع نفسه دائماً ويقدر الإمكان خلف الكواليس، لم يرغب هو أو أبوه فى كسب القضية على الأقل، وكانوا أعداء لى، لذلك فقدته.

وحتى هنا فى الصحراء، لم يقف إلى جانبى كزوج.

ومع ذلك أحببت ماهر، وربما مازال يحبنى. ولكن حبه لم يكن قويا، لأنه لم يصمد ضد الأحكام المسبقة، والرأى العام، وغروره المجروح، حتى إذا كسبت القضية أصبحت بالنسبة له دائماً المرأة التى أثارت الغضب والتى كان زوجها يخجل منها سرا، الزوجة أيضاً التى يخشاها الناس لأن سلوكها الماضى يؤثر على سلوكها المستقبلى، لأنها رفضت خضوع الأنثى الخادمة، ومذلة الإناث المنفيين فى دنيا الحريم.

أخيراً قال بصوت خفيض، وبرأس منخفضة:

ـ «أنظرى يا رمزة، لو كان أبوك مازال حيا، لكان هناك أمل أن نحصل منه على موافقته، ثم ربما موافقة أبى، لكن الآن هو ميت بسببنا، دون أن يسامحنا، وأبى أيضاً سوف لا يسامحنى وسوف يلعنا حتى ساعته الأخيرة».

أعرف الآن، ماذا أفعل.

ـ «حسنا يا ماهر، سأختفى من حياتك.. تستطيع أن تهدأ، لاغضب أبى ولا أحكام القضاء نجحوا فى أن يفرقونى عنك.. ومع ذلك أقول لك بصراحة وبقرار حر: أنا لا أستطيع ولا أرغب فى أن أكون زوجتك!.. استدعى اثنين من الجنود كشهود وطلقنى».

عاد مفزوعا وعارض: «أبدا، لا يمكن أن أسبب لك هذا العار! وهذا أيضا غير ضرورى، أنا لا أرغب فى ابعادك وحتى لو اضطررنا للفراق، فلا يوجد رباط قانونى لفسخه الآن؛ لأن المحاكم لم تعترف بزواجنا».

ـ «أنا لم أنفذ أحكام المحاكم، ولم أعترف بها.. البشر لا يملكون القوة، ليفرقوا بين الناس الذين أراد الله أن يربطهم بالحب.. ولكن اليوم فى عالم كهذا تطيع فيه المرأة فقط.. وإذا كان هذا ممكنا فأنا اليوم أطلقك وصوتى لايرتجف..

حسنا.. عندئذ أفعلها أنت .. لا .. بل انتظر لحظة»! .

نظرت فى وجهه نظرة مبحلقة ومليئة بالشك، وحتى أطبع ملامحه فى ذاكرتى ثم غطيت عيونى بيدى..

ـ «هلم، انطقها، انطق حكم الاعدام!».

عمل المحاولة الأخيرة، تهرب من واجبه الكريه وقال بتهكم، رن مزيفا: «دائما هذه العبارات الكبيرة!!.. استخدام الأدب حتى النهاية المرة.. هذا يكفى الآن، لا يجب أن يفوتك القطار، فلنذهب الآن».

ـ «ماهر، هذا آخر ما أطلبه منك! أنت جندى، كن شجاعا للضرب عندما يكون غير مسموح لى بذلك!».

ـ «ليس عندى الحق فى ذلك!أنا، أنا لا أستطيع».

ـ «هل أنت هكذا جبان؟، دعنا نجتاز هذا!»

عندئذ تحدث بصوت بلا نغم ويكاد لا يسمع، صيغة الكلمات الفظيعة للطلاق:

ـ «أنت طالق! لم تعودى زوجتى، أصبحت محرمة علىّ مثل أختى وأمى».

تردد فى إعادة الكلمات. فى هذه اللحظة سمع عبدالله العجوز ـ الذى كان يخدم ـ كشاهد: «كفاية! أتود قتلها؟ ربما تعود لها فى يوم ما!».

ولكن كنت أعلم أننى لن أعود إليه مطلقا أو استقبله عندى.. وحتى إذا أراد العودة إلىّ .. ولم ينطق بيمين الطلاق ثلاث مرات.

غطيت وجهى بالحجاب الأسود والذى لن يراه ماهر بعد الآن.

بعد عدة ساعات قليلة وصلنا قنا، وعندما نزلت من على الجمل، لم يكن ماهر بالقرب منى.. نجحت فى عدم البحث عنه بنظرى، عبدالله العجوز رافقنى إلى المحطة، واشترى التذكرة وساعدنى على الصعود.

استطعت البكاء فقط، عندما انبلج الصباح، شعرت بعد هذه الليلة أنى مستنزفة القوى ومنهكة من التعب.. وغير منتصرة.. تقطع قلبى، وبعد ذلك وجدت نفسى مرة أخرى حرة، قوية، متماسكة. كان يملؤنى رضاء مر.

كان هناك منديل أسود ملقىً بلا اهتمام بجانبى على المقعد.. الحجاب الذى خلعته فى المساء.. عندما كنت وحيدة.. قمت بكرمشته بيدى وأنا مملوءة بالكراهية كنت أفضل أن أرميه بعيدا.. ولكن الوقت الذى أتحرر فيه من الحجاب! لم يأت بعد.. وضعته مرة أخرى، عندما اقترب القطار من القاهرة. أخذت على عاتقى أن أستمر فى النضال حتى يختفى من وجوه سيدات الشرق، هذا الختم للطغيان الرجالى.

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ١٣٢٣٧/ ٢٠٠٤
رقم الإيداع الدولى : I.S.B.N 977-01-9147 -7



الطباعة : مؤسسة دار الهلال - القاهرة



قوت القلوب الدمرداشية

❑ كاتبة مصرية مولودة عام ١٨٩٢ ، وماتت عام ١٩٦٨ في ايطاليا .

❑ هى ابنة الشيخ عبد الرحيم الدمرداش مؤسس الطريقة الدمرداشية ، وقد عرفها المجتمع فى مصر كواحدة من رموز البر والإحسان قبل عام ١٩٥٢ ، إذ أقامت مستشفى الدمرداش لعلاج الفقراء ، وخصصت جائزة أدبية لرعاية الكتاب الموهوبين ، نالها نجيب محفوظ فى بداياته ..

❑ كتبت العديد من الروايات باللغة الفرنسية ، منها «ليلة القدر» ١٩٥٤ و«زنوبة» التى نشرت مختصرة فى مجلة الهلال عدد ديسمبر ١٩٤٩ ، و«حفناوى الرائع» .

❑ ترجمت رواياتها الى لغات عالمية عديدة ، منها الالمانية والانجليزية .

هذه الرواية

ما أغرب هذا العالم ، وما أكثر أسراره !!

إنه عالم الحريم .. نساء ماوراء الجدران فى تاريخنا الحديث ..

وقد خرجت واحدة من النساء اللاتى عشن فى هذا العالم الى العالم بزواية عنه ، إنها شاهدة عليه .. هى قوت القلوب الدمرداشية ، سيدة من أبرز علامات العصر الحديث ، كاتبة ذات قلم رشيق ، تقدم لنا فى «رمزة» صورة لأوضاع الجوارى ، والنساء فى حرملك القصور الخديوية ، والارستقراطية المصرية أثناء عهد الخديو اسماعيل . ومن جاءوا بعده طوال القرن الماضى ..

ورغم ان هذه الفترة غير بعيدة عن تاريخنا ، فإن الرواية تكشف الكثير من المفاجآت والأسرار فى عالم الحرملك الذى سحر المستشرقين ، ولهثوا وراءه كتابة ورسما ..

ترى هل كانت النساء سعيدات فى عالم الجوارى ؟

هذا ما تكشف عنه هذه الرواية .. المفاجأة .. التى تنشر لأول مرة باللغة العربية..

مهرجان القراءة للجميع



مكتبة الأسرة

هذا العام نحتفل ببلوغ مكتبة الأسرة عامها العاشر وقد أضاءت بنور المعرفة جنبات البيت المصرى بأكثر من ٨٠مليون نسخة كتاب من أمهات الكتب فى فروع المعرفة الإنسانية المختلفة.. ومنذ عشرة سنوات تفتحت عيون أطفال كانوا فى العاشرة من عمرهم على إصدارات مكتبة الأسرة وكانت زادهم المعرفى عبر السنوات العشره الماضية لتلهب فى تلك العقول الشابة الآن نهم المعرفة من خلال القراءة وكنا ندرك منذ البداية أن المعرفة هى سلاحنا الأمضى لتأخذ مصر مكانتها فى ذلك العالم الجديد الذى تتفوق فيه المعرفة على القو[illegible] والمال لأنها تحمل الإنسان إلى آفاق لا حدود لها فى عالم متغير شعاره ثورة المعلومات وسرعة تدفقها [illegible] كل وسائل الإتصال ولم يكن منطقيا أن نقف مكتوفى الأيدى.. فكانت مكتبة الأسرة [illegible] أساسية نستقبل بها ذلك العصر الجديد. عصر المعرفة وإنا لنتطلع فى الأعوام القا[illegible] الأسرة ثمارها اليانعة وتساهم فى التغير المعرفى والتكنولوجى لمعطيات العصر لتف[illegible] يشارك بدور فاعل فى تقدم البشرية الجديد لنكون امتدادا حضاريا معاصرا للحضار[illegible] التى كانت أهم وأقدم الحضارات الانسانية عبر التاريخ.

سوزان [illegible]

